النفسانية المنطقية
عند
جون ستيوارت مل
تأليف: عبد الفتاح الديدي

النفسانية المنطقية

عند جون استيوارت مل

تأليف

عبد الفتاح الديدى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

١٩٦٩



تمهيد

سأحاول هنا تقديم موجز لفكرة هذه الرسالة معتمدا على قرائن تكشفت لى خلال عمل طويل وبحث متصل فى موضوع « النفسانية المنطقية » عند جون استيوارت مل ، وهو موضوع شرعت فى دراســـته فى أواخر سنة ١٩٥٣ ، وأرجو أن أجد فى المستقبل فسحة من الوقت لأنظر فى كل النتائج والتفرعات التى ترتبت عليه فى مختلف الاتجاهات الفلسفية والمنطقية .

وقد تأيدت القرائن التى تكشفت لى خلال بحث هذا الموضـــوع بما ظهر من مدى تغلغل فكرة نفسانية العمل العقلى والتعبير المنطقى اللغوى فى أعماق النظرة التجريبية عند « مل » .

اذ كان « مل » يواجه وضعا فلسفيا شائكا ببلاده ، وتطلب منه هذا الوضع أن يحتاط من كل ما من شأنه أن يهادن على حد تعبيرنا العصرى التيارات الفكرية الأجنبية كما ألزمه تأييد الموقف الفلسفى القومى بانجلترا . وتمثل ذلك لدى مل فى أمرين :

تمثل أولا فى تلك الحرب العوان التى شنها على الفكر الألمانى بعامة وعلى منطق كانط بخاصة .

وتمثل آخرا فى التحفظ الشديد الذى أبداه مل ازاء طبيعة العقل ذاته ، وفى حرصه على بقائها فى مأمن من أية فاعلية جوانية .

وأعتقد أن رسالتى هذه بفصولها الأحد عشر عن النفسانية المنطقية عند جون استيوارت مل وخاتمتها لم تكن كافية مع التركيز الشديد فى عباراتها ومع التعرض الموجز لموضـــوعاتها ــ للاشارة الى جميع المشكلات التى ترتبت على اثارة هذه القضية .

اذ الواقع أن قضية النفسانية المنطقية كما صورها منطق مل تعد قضية رئيسية فى التفكير الفلسفى بعامة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولا تزال أصداؤها تتعاقب فوق صفحات المؤلفات المعاصرة فى المنطق ، فهذه المشكلة أهم بؤرة تفرعت منها اشكالات الفكر

بشتى صورها فى القرن الماضى وفى هذا القرن . ولا نبالغ اذا قلنا : ان المنطق الجديد فى الوقت الحاضر قد نشأ بجميع ألوانه ابتداء من مناقشة هذه القضية أولا وبالذات .

وبرغم ذلك فقد بقيت فاعلية هذه المشكلة تتسرب عن غير وعى مباشر بها من قبل الفلاسفة الى ميادين العمل العقلى ، ويمكن أن نقول : ان هذه المشكلة أنشبت أظفارها لا شعوريا — ان صح هذا التعبير — فى آفاق الفكر المعاصر الواسعة العريضة . ونقول لا شعوريا ، لأن موضوعاتها الظاهرة فى أبواب المنطق لم تلق المعالجة التاريخية والتحليلية الكافية برغم تجدد الكلام فى موضوعاتها . ولا شك أنها حظيت فى مجموعها ببعض الدراسات المتعلقة بها ، ولكن هذه الدراسات لا ترتفع فى الواقع الى التعادل مع أهمية الموضوع .

ونتج عن ذلك كل ما نعرفه من الاتجاهات التى أخذت شكل ردود الأفعال بالنسبة الى تلك القضية الأصلية ، وبرغم كثرة الموضوعات الناشئة عن النفسانية المنطقية فقد ظل تاريخها محدودا بمعالم وبأشخاص لا تعدوهم .

وتهدف هذه الرسالة الى تحديد الدور الذى أداه علم النفس فى منطق جون استيوارت مل . وتدخل علم النفس فى مفاهيم المنطق وتصوراته وعملياته هو ما نطلق عليه اسم النفسانية المنطقية . ولقد بدأت النفسانية المنطقية بوضوح عند جون استيوارت مل ، ولم يكن مل يدرى حينذاك أنه يضع بهذا العمل نظرية فى المنطق ، بل لم يكن يدرى اسما لما قام به فى حقل المنطق ، كل ما هنالك أنه أراد معالجة علوم المنطق بتفسيرات نفسية تذلل مصاعبها وتحل اشكالاتها .

ولا تزال هذه النزعة سارية حتى اليوم لدى كثير من المناطقة الوضعيين ، وغالبا ما تظهر قرينة النزعات الاسمية Nominalismus (١) ، ومؤدى هذا الاتجاه أنه موقف يسعى الى تغليب وجهة النظر النفسية على وجهة النظر الخاصة بأصحاب أى فرع آخر من فروع المعرفة وبخاصة علم المنطق .

---

(١) أوتونويراث : تطور حلقة فينا ومستقبل التجريبية المنطقية ص ٢٥

Otto Neurath : Le développement du cercle de Vienne et l'avenir de l'empirisme logique — Paris 1935.

وكما قال فونت (١) عن النفسانية المنطقية : انها لم تعن أول الأمر سوى تفسير المعرفة المنطقية تفسيرا نفسيا . وأدى ذلك الى ايجاد المنطقية البحتة كموقف معارض لهذا الاتجاه ، ثم أدى الأمر الى ايجاد تيار قوى يشمل الفلسفة بأكملها ويعدها امتدادا لعام النفس .

ويقول كوتيراه فى هذا الصدد : ان النفسانية المنطقية هى ادعاء علم النفس ابتلاع الفلسفة ، أو على الأقل أن يكون أساسا لها ، فعلم النفس من وجهة نظر النفسانية المنطقية يخدم الفلسفة لقدرته على توفير العناصر والوسائل والمعطيات اللازمة لحل اشكالاتها (٢) . ولم تكن النفسانية المنطقية تعنى أكثر من ارجاع المشاكل الفلسفية الى مشاكل نفسية ، ولكن جون استيوارت مل هو الذى أعطى هذا الاتجاه أخطر مواقفه فى تطبيق نظراته النفسية على عمليات المنطق ذاته ، ولذلك أحسب أن ادق وصف لهذا الاتجاه هو الذى قاله بواس Boisse فى تعليقه على هذه اللفظة فى معجم لالاند (٣) ، اذ قال بواس انه يشير بهذه اللفظة الى الاتجاه الى احلال الوصف السردى للظاهرات الداخلية محل التقدير وأحكام القيمة .

ولم يكن مل بدعا فى موقفه ذاك ، اذ أن كل مشتغل بالمنطق يخضع فى أبحاثه لوجهة نظر معينة اختارها لنفسه ، أو بعبارة أخرى : يخضع كل باحث منطقى فيما بينه وبين نفسه لنظرية معينة فى حقيقة الادراك وفى الانصال المباشر أو غير المباشر بالأشياء وفى موضوعية الوقائع وتداخل العلاقات وتشابك العلوم والرياضيات . يخضع مؤلف المنطق نفسه بالضرورة لموقف معين يتخذه بهذا الصدد ، ويفرض المؤلف موقفه ذاك على كل مفهومات العمل الذى يقوم به وعلى جملة نظراته وتفسيراته . واذا أفصح المؤلف عن موقفه ذاك كتابة وسجل اعتقاده فى طبيعة هذه العمليات التى يقوم بها سمى ذلك نظرية المنطق .

ويسمى بواريه Poirier أستاذ المنطق بالسوربون حاليا هذا الجانب باسم ميتافيزيقا المنطق ، أى أنه يطلق على هذا الجانب من التفكير النظرى اسم ميتافيزيقا علوم المنطق ، فميتافيزيقا المنطق

---

(١) فونت : كتابات قصيرة — فصل عن النفسانية المنطقية (سنة ١٩١٠) والمنطقية البحتة

Wundt : Kleine Schriften (Psychologismus und Logismus) — 1910

(٢) كوتيراه : المنطق والفلسفة المعاصرة — مجلة الميتافيزيقا سنة ١٩٠٦ ص ٣١٦ — ٣٢٠ .

(٣) لالاند . معجم فنى نقدى للفلسفة ص ٨٣٨ (طبعة ١٩٤٧) .

هى الفرع الذى يدخل ضمن الفروع الأخرى المكونة للمنطق من حيث هو منطق معيارى يهتم بالحقيقة الأصــــلية ، ويعنى بالأدلة الصـــــحيحة وبالتأكيدات المشروعة .

ونظرية المنطق تعبير ســـــهل يؤدى معنى ميتافيزيقــــا المنطق ، وميتافيزيقا المنطق هى من ناحية ميتافيزيقا التجربة كموضوع للمعرفة ، أى أنها أولا وقبل كل شىء بحث فى الأساس الموضوعى لحقيقة التجربة ، وهى من ناحية أخرى ميتافيزيقا الذات من حيث هى فاعلية فعالة مستدلة شاعرة بقواعدها الخاصة ، وبيقينها الخاص ، وبضرورتهــــا الخاصة ومن حيث هى ذات مفكرة فى أعمالها التى تصدر عنها . ومن كلتا الناحيتين يحاول أصحاب المنطق فى هذا الفرع ما من شأنه أن يرسى المنطق على أفكار سليمة ، ويجعله ممكنا كعلم من العلوم (١) .

ويخرج المنطق أيضا عند ديوى من البحث المعرفى كى يؤدى الى حل مشاكل نظرية المعرفة . ذلك أن أهم عمل للمنطق هو مناقشـــــة علاقة الفكر من حيث هو فكر بالحقيقة من حيث هى حقيقة ، ولذلك يقسم ديوى المنطق الى :

١ ــ نظرية المنطق . Logical Theory

٢ ــ المنطق التطبيقى . Applied Logic

وبمجرد الموافقة على وجود الفكر فى ذاته سيكون المنطق التطبيقى موقفا حقيقيا فى مناهج البحث على حين تتعلق نظرية المنطق بالعمـــــل الفكرى من حيث هو فكر (٢) .

أما عن جون استيوارت مل فمن الجائز أن يقال عنه : ان ذهنـــــه لم يكن قد تفتق بعد لادراك كنه ما أسميناه باسم نظرية المنطق ، وعلى الرغم من أنه حقق جانبا كبيرا وهاما جدا من نظرية المعرفة التجريبية ومن أصول الاستدلال والاستقراء .. على الرغم من ذلك كله لم يفطن مل الى ما نطلق عليه الآن اسم ميتافيزيقا المنطق أو نظرية المنطق ، فلم يعالج فى مقدمته ما يوضح نقط الانطلاق التى صدر عنها فى كتابه عن المنطق ، وبعبارة أخرى كما يقول ريجينالد جاكسون عنه : لقد فشل مل

---

(١) دنيه بواربيه : طبيعة المنطق العضوى ودلالته ــ عددا (يناير ــ فبراير) سنة ١٩٥٦ من مجلة الدراسات الفلسفية ص ٣٢ .

(٢) جون ديوى : ابحاث فى نظرية المنطق : ص ٥ ــ ٦ شيكاغو سنة ١٩٠٣
John Dewey : Studies in Logical Theories — Chicago 1903.

فى اعطائنا مفتاحا لمنطقه ، ولم يدرك مواضع الخلاف أو حقيقة المنظور الذى صدر عنه فى كتابه (١) .

ومما لا شك فيه أن منطق مل قد نجح فى أن يكون مرآة صادقة للوضعية التجريبية التى سادت فى عصره وفى أن يحقق جانبا كبيرا وهاما من أصول المنطق التجريبى والاستدلالى ، ولكن مل لم يشارك مشاركة جدية فى توضيح النظرية المنطقية التى تفسح المجال للمقارنات والتفاسير الخاصة بفكرته عن المنطق .

ولا مانع من الموافقة على ذلك ومن وصف مل بأنه لم يكن يعالج قضية المنطق لتذليل الفكر لقواعد النظر الخاصة بالمنظور التجريبى .

ولكن يصح ذلك صحة تامة لو لم تظهر فى غضون كتاب « نسق المنطق » نفسانية منطقية ذات كيان كامل ، لقد كنا نود أن نسترسل فى نقد موقف مل على نحو ما فعل ريجينالد جاكسون ، وأن نعترض مثله على اختفاء نظرية المنطق عند مل ، غير أننا لا نعتب ذلك على مل لما جاء فى غضون منطقه من نفسانية منطقية واضحة تفسر أشياء هامة فى موقفه وفى نظريته وتوضح خطوط التطور الضرورية فى بناء العلوم المنطقية . وعلى ذلك رفضنا الموقف الذى سلمنا به مبدئيا مع طائفة الباحثين فى منطق مل .

وبذلك كان مل ندا لهيجل فى الفطنة الى الدور السياسى الذى أداه المنطق وندا له أيضا فى التفكير النظرى المنطقى ، وكان الى جانب ذلك ــ وهذا هو الأهم من وجهة نظر الفلسفة التقليدية ــ ندا لكانط فى الاتجاه الفلسفى وفى الصيغة المنهجية ، اذ تقوم المدرسة النفسية كاتجاه يعارض الفلسفة النقدية الكانطية معارضة أصيلة .

واذ احاول اليوم تفسير هذا الجانب الذى يخص النفسانية المنطقية فى منطق جون استيوارت مل فانما أضع يدى على أخطر عنصر من عناصر النظرية المنطقية لدى هذا الفيلسوف النفعى الراديكالى . ولما كانت جميع الجوانب الخاصة بنظرية المنطق غير واضحة ولا بارزة لديه فقد أصبحنا نعتقد أن نفسانيته المنطقية هى هى نظريته فى المنطق ، وهى هى أيضا البذرة التى أنمت كل اتجاهات النفسانية المنطقية فى العصر الحديث.

---

(١) ريجينالد جاكسون : فحص منطق الاستنباط عند جون استيوارت مل ص ١٤ ــ ١٥ .

وحين شرع مل فى تأليف كتابه عن فلسفة هاملتون بعد ظهور كتابه عن المنطق بنحو عشرين سنة أحس بتقصيره فى جانب نظرية المنطق ، ولكنه عاد فتنبه هو نفسه رغم ذلك الى انه قد أدى نصيبا منها بما فيه من الكفاية لعنايته الفائقة بالنفسانية المنطقية . وقال مل فى مطلع كتابه الجديد عن هاملتون (١) : « يأخذ فلاسـفة القارة غالبا على انجلترا عدم اهتمامها بالفلسفة العليا ، غير أن انجلترا لم تكن تستحق دائما هذا النقد أو هذه المؤاخذة ، واظهرت سلفا بعض الدلالات التى تشير الى أنها لا تود أن تجر على نفسها مثل هذا النقد بعد اليوم ، واستعاد مفكروها فهمهم الذى نسوه بعض الوقت وهو أن الأساس العلمى الذى لا تستغنى عنه الأخلاق والسياسة والعلم وفن التربية هو علم النفس الحقيقى » .

هذه النفسانية المنطقية اذن هى التى تخللت منطقه بأكمله ، وهى بمثابة نظرية المنطق التى افتقدها كثيرون ممن تناولوا فلسفة جون استيوارت مل . ولا شك أن بعض الفلاسفة مثل لوك وهيوم قد أكثروا من التفسير النفسى لكثير من المفهومات المنطقية ، غير أن أول من تمثلت لديه النفسانية المنطقية بوضوح هو مل .

ولم تكن لفظة نفسانية منطقية أعنى Psychologismus بسيشولوجيزموس الألمانية معروفة قبل مل على نحو ما ظهرت فى كتابه عن المنطق ، لم تكن معروفة كاسم ، ولم تكن معروفة كاتجاه ، اذ استخدم هذه اللفظة لأول مرة فى تاريخ الفلسفة فيلسوف دينى ألمانى هو يوهانيس ادوارد اردمان (١٨٠٥ ــ ١٨٩٢) (٢) الذى تخصص فى كتابة موضوعات تاريخ الفلسفة، والف اردمان كتابين الأول تحت عنوان تاريخ الفلسفات الحديثة فى ثلاثة أجزاء ،والآخر تحت عنوان تخطيط لتاريخ الفلسفة ، وقد وردت النفسانية المنطقية فى غضون كتاباته كمصطلح لأول مرة .

وبحثنا هذا أول بحث يكتب فى كل اللغات عن موضوع النفسانية المنطقية التى لم يفرد لها كتاب كامل أو بحث مستقل على الاطلاق ، وكل ما أثر عن هذا الموضوع لا يعدو أن يكون مجرد اشارات أو تلميحات الى تأثير علم النفس على منطق جون استيوارت مل ، ولكن لم يدرس مل برغم ذلك فى اطار النفسانية المنطقية من حيث هى نظرية أساسية فى المنطق .

---

(١) جون استيوارت مل : فحص فلسفة السير وليام هاملتون ص ٢ .

(٢) دكتور رودلف ايسلر : معجم التصورات الفلسفية الجزء الثانى ص ٥٥
Dr. Rudolf Eisler : Wörterbuch der Philosophischen begriffe, (Berlin, 1929).

وقد توخى هذا البحث أن يثبت شيئا جديدا بالنسبة الى الفكر الفلسفى بعامة وبالنسبة الى علوم المنطق بخاصة ، واعتبر هذا العمل من جانبه اضافة حقيقية الى المعرفة؛ فقد أجمع الباحثون ـ كما سبق القول ـ على أن منطق جون استيوارت مل خال أو محروم من النظرية المنطقية المساندة لمبادئه ونظرياته المنطقية ، ولكن هذا البحث يهتم أولا بأن يؤكد وجود نظرية منطقية فى منطق جون استيوارت مل ، وأن هذه النظرية ثانيا هى هى النفسانية المنطقية المنبثة فى غضون التفسيرات التى قدمها مل بالنسبة الى عمليات المنطق وفروعه وأقسامه .

فاذا كان من السهل بالنسبة الى مناطقة اليوم أن يشيروا الى استغنائهم عن نظريتى الاستدلال والاستقراء عند مل بوصفهما عموديه الأساسيين اللذين لم يعودا لازمين بصورتهما الأصلية عند مل فسوف يصبح من العسير بعد اقرار النفسانية المنطقية لدى مل فى هذا البحث استبعادها أو الاستغناء عنها هى أيضا وذلك لما لها من دور تاريخى هام بالنسبة الى نظرية المنطق بعامة وعند ديوى بخاصة ، ولما تلقيه من أضواء رئيسية على تفسيرات المنطق وشروحه .

ولهذا اهتم هذا البحث بتفصيل مشاكل النفسانية المنطقية فى منطق مل بوصفها الجانب الأهم والأثبت فى منطقه ، وهذه أول مرة يثار فيها هذا الموضوع فى تاريخ المنطق فى ضوء النفسانية المنطقية عامة ، وقد أمكن هنا أن نبرز الدور الذى أدته فى تاريخ الفكر ، وأن نحدد المكانة الخاصة بنظرية المنطق فى منطق مل بالنسبة الى المنطق عامة ونظرياته الكثيرة مع اهتمامه بعرض أسس هذه النفسانية التى قامت عليها أخطر نظريات المنطق وموازنته المستمرة بينها وبين جميع النظريات الأخرى ، واهتمامه أيضا بالكشف عن التفرعات التى نبعت منها فى المنطق المعاصر .

وعلى ذلك فقد استطاعت هذه الرسالة أن تخص فكرة البحث وموضوعاتها بأحد عشر فصلا وخاتمة . وجاء تقسيمها مناسبا ومؤديا للغرض الذى يهدف اليه البحث .

فخص الفصل الأول بمعرفة تفاصيل حياة مل التى تهم دارس المنطق وعلم النفس عند هذا الفيلسوف النفعى مع تحديد المؤلفات الخاصة به وطبعاتها .

وخص الفصل الثانى بالكشف عن الجذور الفكرية فى عصره التى تفرعت منها آراؤه .

وكان من اللازم أن نتبع هذين الفصلين ثلاثة فصول أخرى تبين الموضوعات الرئيسية التى يعتمد عليها البحث وتعين على تحـــديد أرضيته ، فخص الفصل الثالث بتحديد مفهوم علم النفس من وجهة نظر مل ، كما خص الفصل الرابع بتحديد معنى النفسانية المنطقية وتطورها، والفصل الخامس بتحديد معالم المنطق الأساسية عند فيلسوفنا ، فبهذه الفصول الثلاثة نكون قد تأهبنا لتحديد الركائز التى تقوم عليها فكرة البحث .

ولم نلبث فى الفصل السادس أن بدأنا نتلمس مظاهر تحقق النفسانية المنطقية فى تفكير جون استيوارت مل .

ثم صببنا اهتمامنا فى الفصل السابع على عمليات الاستدلال المنطقى لنلمس أثر النفسانية المنطقية فيها ومقدار خضوعها لتقاليد ومبادىء النفسانية المنطقية .

وتشعبنا بعد ذلك فى الفصل الثامن من أجل اكتشاف مدى سيطرة مبادىء النفسانية المنطقية على موضوعات الاستقراء والعلم وموضوعية العالم الخارجى .

وأتبعنا هذا الفصل فصلا تاسعا يكشف عن صلة النزعة النفسانية المنطقية بالقانون وبالمنهج العلميين وبالاعتقاد فى العالم الخارجى وبعلوم الاجتماع والأخلاق ، وأطلقنا عليه اسم التجربة والجبرية .

ووجدنا أنفسنا فى الفصل العاشر أمام قضايا اللغة والألفاظ عند مل ، وقد توخينـــا أن يأتى هذا البحث قرب النهاية لنلغى عادة قائمة لدى الباحثين فى تقديم مبحث الألفاظ على كل المباحث فى الدراسات الفلسفية كأنها مقدمة ، مع أن الواقع هو أن هذا المبحث نتيجة تنبنى على جمـلة دراسات توضح طريقة استخدام الألفاظ كما تنبنى على مفهوم سابق معين للألفاظ والعبارات المنطقية من وجهة نظر النفسانية المنطقية ، أى أن هذا الفصل يحدد مدى تأثير هذا المفهوم النفسى على طريقة مـل الخاصة فى تحديد العبارات والألفاظ وفى تحديد الأدوار المتعلقة بها .

وجاء الفصل الحادى عشر عن نظرية المنطق عند مل لكى يكشف عن مدى أهمية الدور الذى أدته النفسانية المنطقية عند مل .

ويدفعنا هذا كله إلى تأكيد قيام النفسانية المنطقية لدى مل بدور النظرية المنطقية فى غضون منطقه ؛ فقد أدت النفسانية المنطقية دورا أساسيا عند مل يدفعنا الى الاعتقاد بأن هذه النفسانية كانت بمثابة

نظرية فى المنطق لديه ، وكان دليلنا على ذلك أن هذه النفسانية المنطقية تخللت كل مباحث المنطق عنده الى حد أن خضعت لها هذه المباحث خضوعا تاما ، وكان تفضيل مل وايثاره التفسيرات المنطقية كافة مبنيا على نظرية مساندة مستمدة من صميم النزعة النفسانية المنطقية .

فقد تنكر مل لنظرية المنطق الرمزى أو الرياضى على أساس أيمانه بأن هذا المنطق الجديد سيلغى النظريات النفسية المؤازرة للعمليات .

وتنكر مل للقياس والاستدلال فى صورته التقليدية لعدم ارتباطه مباشرة بالملابسات النفسية وبالاعتقاد ولعدم تأسيسه على القضايا العامة.

وأكد مل أن قوانين المنطق هى هى قوانين علم النفس ، ولم يؤسس منطقه على التصورات ، وانما بنـــاه على الانطباعات المباشرة المعزولة أو المترابطة .

وأقام مل نظريته فى الادراك على تفسير فردى استدلالى ، وانتهى من ذلك الى احكام تقييد كل الاستقراءات بقوانين علم النفس .

واستغنى مل عن فكرة الضرورة المنطقية ، ليقيم بدلا منها ضرورة التداعى النفسى ؛ فالضرورة نفسها ليست فى نظره سوى عدم قابليـة الترابطات الفكرية للانفصال .

واختط مل لنفســه منهجا فرديا على حـد تعبير استريت Street فى كتابه عنه بحيث ينشىء مما هو جزئى حالات تكون لها قوة العـــام وحقيقته ، وأطلق على هذا المنهج اسم المنهج الاســـــتنباطى العينى أو الفزيائى .

وحافظ مل على سلبية العقل وعلى عـــدم فاعليته أو ايجابيته بشكل ما ، وبدلا من افتراض التصورات ، أقام مضمونا خاصا بالاعتقاد داخل كل قضية .

وجعل مل أساس التفكير فى الأشياء ذاتها وفى أسماء الأشياء العينية؛ ومن ثم أنشأ نظريته فى التحليل كوسيلة يتخلص بها العقل من الانطباعات المظهرية الأولى من جهة ويربط الاستدلال بالأشياء من جهة أخرى ؛ فالتحليل فى نظر مل يقوم باستبدال الاحساسات بالأشياء الموجـودة نفسها فعلا ؛ ومن ثم صار أساس المنطق عند مل التعامل بالأشـــياء لا بالأفكار .

ويوحى هذا الدور الذى يؤديه التحليل عند مل بأن العقل فى نظره

مزود بقدرة تحليلية من شأنها أن تقوم بتضمين الأشياء المادية فى قوالب الألفاظ وصيغ أو شكول العبارات . وكأنما ألفى مل الفعل من طبيعة العقل ؛ لكى يضع محله ما يسميه بالتحليل ، والتحليل من شأنه أن يحشو الألفاظ والعبارات بمسمياتها الحقيقية خلال عمليات التفكير .

وبناء على هذا الافتراض أيضا من الجهة المقابلة استبقى مل فى القضايا الجوهر العاقل أو الذات المتشخصة كعنصر يقوم بدور الملاحظة والتجربة والبرهان .

وذهب مل بعد ذلك الى حد افتراض ضرورة أسبقية الألفة لحالات السببية المختلفة حتى يتيسر تشييد التوافق العام . فالتجريب العلمى عنده يفترض الاعتماد على الألفة داخل عمليات الاستقراء من أجل تحويل الظواهر التى هى أقل ألفة الى ظواهر أكثر ألفة حتى يمكن التقدم منها شيئا فشيئا الى القانون العام للتوافق .

وهكذا اكتفى مل بالخبرات كمقدمات للقياس الاستدلالى ، واكتفى بالألفة للانتقال من ظواهر الى ظواهر أخرى فى عمليات الاستقراء المنهجى .

واذا صح أن ثمة واقعية فى مفهوم مل عن المنطق فهذه الواقعية محصورة فى الحقيقة فى اطار الأفكار والتصورات لا فى اطار الواقع نفسه ، وكل ما نعرفه عن وقائع الشعور فى كلام مل هو أنهـا بالضرورة تناظر الوقائع الخارجية . وليس لهذا الرأى من سند سوى أنه من غـير المقبول أن نشك فى وجود الموضوعية الخارجية المستقلة عن عقولنـا والخاضعة لقوانين حقيقية . والمفروض أن هذه القوانين الطبيعية تفرض نفسها على الأشياء الخارجية وعلى طبيعة العقل البشرى ، وتتم معرفتنا بالأشياء الخارجية عن طريق تأثير الظاهرات الطبيعية على كيان العقل .

ومهما تكن طريقة مل فى تصور العالم الخارجى فقد تمسك بوجود قوانين طبيعية أساسية تشمل الحياة بأسرها وتؤثر على العقل البشرى من بين كل ما يخضع لتأثيرها من الكائنات ومن الأشياء ، وينتظم تأثير القوانين الخاصة بالعلية الخارجية على العقل البشرى خلال مظهـر معروف فى علم النفس باسم قانون التداعى .

والقوانين الوحيدة التى ينظر اليها مل بتقدير واكبار هى قوانين السببية ! فالتجارب تدل على أن المادة التى يتكون منها الكون تحتفظ بكمية دائمة ثابتة لا تبدأ ولا تنتهى ولكن تتغير صورتها وحسب ، وتخضع الأحداث أو التغيرات لقانون العلية لا العناصر الجوهرية .

ومن ثم صار من المسلم به أنه يوجد نظام للاحساسات ، وهو نظام التتابع الذى تكشفه التجربة ويسمح هو نفسه بظهور أفكار السبب والمسبب ، أى انه ثبات فى أسبقية ما يسبق وتبعية ما يلحق ، وتتابع بعض الوقائع ، وستظل تتبع وقائع أخرى معينة على الدوام ، ويسمى السابق الثابت سببا كما يسمى اللاحق الثابت مسببا أو الأول علة والآخر معلولا ، وتعتمد صحة كل مناهج الاستقراء على تأكيد وجود سبب ومسبب لكل حدث ولبدء كل ظاهرة من الظواهر .

والاستقراء جسر نعبر فوقه من الوقائع الى القوانين ، فهو عملية منطقية نثبت بها أن ما يصدق على بعض أفراد فئة ما يصدق على الفئة بأكملها .

وعلى ذلك ننتقل من المؤثرات الى التأثيرات الناجمة عنها بالفعل . وأول ما يبدهنا هنا هو أن وقائع الفكر ذاتها تتبع قوانين الطبيعة الخارجية نفسها ، ووجد مل أن أشد وقائع الفكر غموضا تتكون من وقائع أكثر بساطة وأكثر أولية ، وهى تتكون وفقا لقانون عقلى هو قانون التداعى .

وهذا القانون مبدأ منظم بحيث تتكون وفقا له كل الظاهرات العقلية بما فى ذلك من الغامض أو المعقد منها من تلقاء نفسها أو بالاشتراك مع عناصر أبسط منها .

ويمتد هذا القانون فى نظر مل الى أن يشمل كل شىء : أفكار الحس والأفكار الخالصة والانفعالات والرغبات والارادات وحالات أخرى منوعة ؛ وكأنما يزج العقل (كجملة حالات شعورية خاضعة لقوانين التجربة) بالعالم المحيط بنا الى داخل أنفسنا بدلا من أن يبقى فى تعارض مع ذلك العالم .

وها هنا نجد وفقا لما قاله لوريه عن مل فى كتابه عن فلسفته (ص٤٨) أن الضرورة فى الايمان بالعالم الخارجى وبالموضوعية الخارجية بقيت معلقة فى مجال الذاتية البحتة بدلا من الخروج والنفاذ الى العالم الخارجى نفسه ، بل أن المادة ذاتها عنده ظلت امكانية دائمة للاحساسات . ومن الصعب أن نحدد معنى الحقيقة الخارجية التى تفرض قوانينها الخاصة على العقل من وجهة نظر مل . ويظل من المشكوك فيه وفقا لنظريته احتمال أن الظاهرة الخارجية موضوعية تماما أو ذاتية تماما ، ولا تحسب هذه النظرية حساب أصول التكوين والنماء لاعتقادنا فى العالم الخارجى .

والمشكلة الأساسية هنا هى كما يعرضها ريبوه (Ribot) فى كتابه عن علم النفس الانجليزى (ص ١٣٣ — ١٣٤) مشكلة عدم اقامة مل موازنة دقيقة بين علم النفس وعلم المنطق . وأبدى ريبوه أسفه لأن يكون مل على هذا القدر الكبير من المكانة الفلسفية دون أن يتناول موضوع العلاقة بين علم النفس والمنطق تناولا مباشرا . ولا شك أن هذا التناول على بساطته كان فى امكانه أن يحدد العلاقة بين العلمين ، وأن يحدد فى الوقت نفسه موضوع كل من العلمين أو هدفهما ومنهجهما ومدى امكان تقدمهما .

ومن كل ذلك رأينا كيف كان الشاغل الأكبر لمل خلال كتابه عن المنطق وخلال كلامه حول فلسفة هاملتون مركزا فى كيفية تقديم التفسيرات المناسبة لتأسيس المنطق ولتقنين عملياته . ولم يأت مل بشىء من ذلك كله الا فى ضوء نظريات علم النفس التى كان يعتنقها ، وفى ضوء مناهج علم النفس التى كان يؤمن بها ؛ وعلى ذلك فقد استمد مل كل نظريته فى المنطق من النزعة النفسانية المنطقية التى سيطرت على تفكيره بعد النقلة الكبيرة التى حققها علم النفس فى أبواب المذهب الترابطى ونظرية التداعى ، وكل هذا الجانب فى رأينا هو نظرية المنطق عند جون استوارت مل ، وهو ما نعارض به كل تفسير سابق لمنطق مل .

أما فى الخاتمة فقد حرصنا على أن ننظر فى وضعية النفسانية المنطقية بعد تطورها عند مل على ذلك النحو ، وفى الآماد التى بلغتها فى المنطق الحديث . وحاولنا فى الخاتمة مناقشة قضية تدخل النزعة النفسية فى المنطق وحدودها ، وعرضنا لهذا الموضوع بعد تطوره عند فلسفات الظاهرية وعند بواربيه ، وكنا حريصين على أن نبرز النفسانية المنطقية كمرحلة أساسية فى المنطق الحديث وان لم نكن من مؤيديها .

اذ الواقع أن علم النفس كان قد ارتقى ارتقاء كبيرا فى عصر مل ، وأحدث ارتقاؤه دفعة قوية فى العلوم كافة ، وكان من الضرورى أن يفيد المنطق من تجربة التفسير النفسى ، ومن تجربة الاحتكاك بعلم النفس عامة ؛ ذلك أن تطور المنطق بعد كانط كان قد بدأ يعانى بالفعل من جدب واملاق شديدين ، وكان من الضرورى أن تثار المشكلة وأن يفاد من أوجه البحث ومن نتائج علم النفس الجديد . ولا شك أن اندفاع مل على هذا النحو كان مفيدا ومجديا ، لا شك أن خطوته أفادت المنطق أضعاف أضعاف ما تسببت فيه بعد ذلك من أخطاء .

وكانت دراسة المنطق قد بدأت تستقل استقلالا معيبا ، وبدأ المنطق

ينكمش ازاء جملة العلوم المتجددة ، ولكن جاءت النفسانية المنطقية عند بولتسانو وبرنتانو فى المانيا وعند مل فى انجلترا من أجل اثارة مشاكل المنطق ومن أجل القاء أضواء ساطعة على حقائق موضوعاته ومسائله .

وأضفت هذه النزعة ثوبا جديدا على مشاكل المنطق والفلسفة ؛ فاستند كل من بولتسانو وبرنتانو الى فكرة الفعل العقلى على حين استند مل الى أساس تجريبى من نظرية التداعى العقلى ، وكشفت تجارب كلا الفريقين عن مسائل هامة حلت الكثير من اشكالات الفكر الحديث .

بل يمكن أن نقول : ان المقدمة الأساسية فى علوم المنطق الحديثة لا تتوافر لباحث فى المنطق ما لم يبدأ من هذه المشكلة بالذات ، وما لم يتابع قضايا المنطق الحديث ابتداء من هذه المرحلة الهامة ؛ ففضلا عما يفيده الباحث من وراء هذا المبحث فى علوم المنطق من الالمام بتفصيلات جزئية ضرورية يمكنه الى جانب ذلك .

أولا : أن يقف على دقائق العلاقة بين المنطق وعلم النفس .

ثانيا : أن يتحاشى المبالغات الخطرة فى أمثال هذه المسائل .

وكلمة نفسانية منطقية تحتل اليوم مكانا يبشر بمدى ما سوف تعنيه هذه التسمية فى قضايا المنطق المعاصر ؛ فقد هوجمت النفسانية المنطقية مهاجمة قوية من جانب الفلسفة الظاهرية ، ولكن ذلك لم يعن اطلاقا استغناء علماء المنطق عن الالمام الماما دقيقا كافيا بعلم النفس ، وكل التطورات الأخيرة فى الفكر المعاصر تؤكد مدى التعاون الكبير بين العلمين دون أن يجور أحدهما على الآخر .

بقيت لنا كلمة هامة هنا ، وهى تخص كل انسان يشغل نفسه بعلم المنطق : ذلك أنه من الضرورى اليوم أن يتنبه رجل المنطق الى علاقة علمه بالعلوم الأخرى سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو رياضية أو طبيعية: فالمشتغل بالمنطق يحتاج عادة الى المام كبير واسع بشتى هذه العلوم ، ولكن عالم المنطق برغم ذلك كله لا يعد أصلا مشتغلا بهذه العلوم جميعها، وانما بعلمه وحده وهو المنطق . والمشتغل بالمنطق الرياضى مثلا ليس مشتغلا بالرياضيات ، وانما يعد مشتغلا بالمنطق فى حقل الرياضيات ، أو يعد مشتغلا بالرياضيات وقد صارت علما منطقيا ، أى أن المشتغل بالمنطق الرياضى يعد — وعليه أن يعد نفسه كذلك — مشتغلا بالرياضيات وقد ألحقت بالمنطق ، أى بالرياضيات المنطقية .

وكذلك الحال فى فلسفة العلوم ومنطق العلوم : فنحن لا ندرس العلم لكى نشتغل به مباشرة ، وانما لنشـــتغل به وقد صار علما منطقيا أو خاضعا لأصول المنطق .

ذلك أن المنطق قد امتد اليوم ليشمل جميع المجالات ، واذا كان من حق المنطق اليوم فى مرحلته المحورية أن يتابع كل مجالات الرياضـــة والعلوم وعلم الاجتماع وعلم النفس فذلك انما يتم بقصد « منطقة » هذه العلوم لا العكس ، أى أن المحورية المنطقية الحديثة قد صارت تهدف الى اكتشاف منطق العلوم كافة والى تتبع العلوم والرياضيات كافة من أجل ابراز المنطق الدفين الذى يسيطر عليها .

فالرياضة المنطقية أو الداخلة فى اطار المنطق هى المنطق الرياضى والعلوم « المنطقية » أو الداخلة فى اطار المنطق هى منطق العلوم . وليس أمام رجال المنطق الا أن يعرفوا أن مهمتهم اليوم قد أصبحت شاقة وأن من واجبهم أن ينظروا فى العلوم والرياضيات وقد تمنطقت وخضعت لعلمهم وتخصصهم . ولا يخطرن ببال أحد أن منطق العلوم يشير الى مرحلة انتقال علوم المنطق الى كليات العلوم ، لا يخطرن هذا ببال أحد ، بل معنى ذلك كله أن العلوم قد تمنطقت وشملتها المحورية المنطقية بحيث صارت تدور فى أفلاكها كعلم منطقى ، وكذلك الحال فى الرياضيات ؛ ولهذا أيضا يقتصر كلامنا كمناطقة عن العلم كعلم ممنطق لا كعلم تجريبى ، وعن الرياضيات كرياضيات ممنطقة لا كرياضيات عامة .

واذا استطعنا ها هنا أن نعرف حدودنا كمناطقة ، واستطاعت العلوم أن تعرف هى الأخرى حدودها ــ فسنبلغ الدرجة المطلوبة بلا شك فى تحقيق فرع التخصص على أساس الافادة الشاملة بغير أى افســـاد لدقائق العلاقات بين الأفرع المختلفة .

ويستطيع علم النفس اليوم أن يحقق أكبر الفائدة فى أبواب المنطق على أن يبقى رافدا مفيـــدا ولا يتغلب على المجرى الأم ، وقـــد حقق جان بياجيه Piaget نوعا من العلاقات الجديدة بين المنطق وعلم النفس لم تكن معروفة من قبل ، واستخدم بياجيه المنطق وعملياته فى الاستدلال على نوعية المرحلة النفسية عند التطور ، وحقق نتائج مذهلة ، والفلسفة الناسلية التى أبدعها بياجيه هى صورة للتعاون المثمر بين شتى المعارف والعلوم ، ولو كان جون استيوارت مل فى عصره قادرا على أن يحول بين نفسه وبين الوقوع فى خطأ الاندفاع مع نظريته لكفى نفسه شر الوقوع فى الخطأ ولكنه لم يكن بذلك قادرا على أن يحقق ما حققه فى المنطق فعلا من الفوائد .

ونسأل الآن : لماذا جعلنا نفسـانية مل أميل الى أن تكون تابعة للنفسانية المنطقية منها الى مجرد النزعة النفسية العابرة ؟ لماذا شددنا مل فى غضون هذا البحث ليكون أحد ممثلى النفسانية المنطقية بدلا من أن يبقى صاحب تأثرات نفسية عادية ؟

ونحن نعرف بلا شك أن مل لم يكن يوضع مباشرة فى هذا التيار ، ولم يعتد مؤرخو الفلسفة أن يذكروه بين مفكرى النفسانية المنطقية . ونحن نعرف أن النفسانية المنطقية قد اقتصرت على أن تمتد بتاريخها الى الفلاسفة والمناطقة الألمان من أمثال زولسر وبينيكه وبولتسـانو وبرنتانو برغم أنهم لم يكونوا مائة فى المائة نفسانيين مناطقة ، فلماذا يحاول هذا البحث أن يظهر مل بمظهر النفسانى المنطقى صاحب الأهمية والتأثير الكبيرين ؟ لماذا نصر هنا على أن يصير مل فى عداد النفسانيين المناطقة الرئيسيين ؟

السبب فى ذلك هو أن تيار النفسانيين المناطقة ملىء بالهواة ، ولكنه مفتقر الى المحترفين الكبار . والحق يقال : ان مل كان من أخطر هؤلاء النفسانيين المناطقة وأشدهم تأثيرا وفاعلية ، فاستطاع أن يوجه الفكر المنطقى وجهة جديدة كاملة بعد أن وضـع مبادىء النفسانية المنطقية وطبقها بحذافيرها على المنطق العملى الذى وضعه .

فقد استطاع مل أن يغذى نظرية الاستقراء ونظرية الاستدلال بهذا التفكير النفسانى بحيث لا يمكن أن تفهم النظريتان بعيدا عن مجـالات النفسانية المنطقية ، واستطاع مل أن يؤكد فضلا عن ذلك أهمية الاستدلال من الجزئى الى الجزئى بصورة جديدة . وأدى ذلك الى سريان هـذا الاستدلال كاستدلال متوسط يمر به كل استدلال من الكلى الى الجزئى ومن الجزئى الى الكلى فى جميع الحالات .

وقد استطعنا اليوم بعد التحول الذى جرى فى حقل علوم المناهج والاحصاء وحساب الاحتمال أن نبدى اهتماما ضعيفا بنظريتى مل فى الاستدلال وفى الاستقراء . ولما كانت هاتان النظريتان بمثابة العصب الرئيسى فى منطق مل .. بل ولما كانت هاتان النظريتان هما أقوى ماتقدم به منطق مل وأخلد ما جاء به من نظريات .. فان الخطورة الضخمة التى يتعرض لها منطق مل من جراء اهمال المعاصرين للاستدلال والاسـتقراء عنده تؤدى من ثم الى اهمال منطقه بأكمله .

ولكننا توخينا هنا فى هذه الرسالة أن نؤكد أن أهم وأخلد عنصر فى نظرية مل عن المنطق انما هو عمله فى تعضيد النفسانية المنطقية تعضيدا فعالا هادفا . وصار اهمال نظريتى الاستدلال والاستقراء فى منطق جون

استيوارت مل لا يؤثر قليلا أو كثيرا على وضع منطقه بعد أن توافرت له نظرية فى النفسانية المنطقية . ولما كان قدر هذه النظرية كبيرا ، ولما كان درس النفسانية المنطقية عند مل ذا أهمية وموضع دراسة وتقدير واهتمام دائم ، ولما كانت نظرية النفسانية المنطقية نموذجا حيا فى تطبيقه خلال عمليات منطقية أصيلة فى أبواب المنطق ــ فستظل نظرية المنطق عند مل ونفسانيته المنطقية بالذات محل افادة كبيرة لكل المشتغلين بالمنطق وتجربة حقيقية فى حقله ونقطة ابتداء أساسية بالنسبة الى كل من يهتمون بنظرية المنطق وعلومه .

وكيما نعود مرة أخرى الى القضية التى أثرناها فى مطلع هذا الكلام لا نريد أن تتشعب بنا الى أفق الحقيقة التى لم نجد المجال الكافى لتحليلها بين دفتى الرسالة أو فى غضون أحد فصولها .

فقد كانت النفسانية المنطقية عند مل محاولة أساسية فى منطقه من أجل ايقاف فاعلية تأثير الفكر الألمانى ممثلا فى منطق كانط على المدارس الفلسفية البريطانية ، ذلك أن كانط كان قد حدد معالم البحث المنطقى فى كتابه عن المنطق وفى مقدمة ذلك الكتاب بخاصة ، اذ قال كانط فى تلك المقدمة ما معناه أن بعض المناطقة يفترض مبادىء نفسية للمنطق ، ولكن الواقع أنه من غير الملائم أطلاقا اقحام مثل تلك المبادىء فى علم المنطق ، فذلك أشبه ما يكون تماما باستخلاص علم الأخلاق من الحياة . واذا جاز لنا أن نستقى المبادىء من علم النفس أعنى من ملاحظاتنا عن الفهم كان علينا أن نرى فقط كيف يجرى التفكير ؟ وكيف يتأثر بالعوائق والشروط الذاتية الكثيرة ؟ وهذا من شأنه أن يقودنا فقط الى معرفة القوانين الاحتمالية ، غير أن المسألة فى المنطق ليست مسألة قوانين احتمال بل مسألة قوانين ضرورة ، وليس الأمر فى المنطق أمر : كيف نفكر بالفعل ؟ ولكن : كيف ينبغى أن نفكر ؟

وعلى ذلك ــ هكذا يقول كانط ــ لا ينبغى استقاء قواعد المنطق من الاستخدام الاحتمالى وانما من الاستخدام الضرورى للفهم على نحو ما يجده المرء فى نفسه بدون أى علم نفسى ، فليس يهمنا فى المنطق أن نعرف كيف يكون « الفهم » ؟ أو كيف يفكر ؟ أو كيف تقدم حتى الآن فى التفكير ؟ بل كيف على « الفهم » أن يشرع فى التفكير ؟ (١) .

---

(١) كانط : مجموعة المؤلفات ــ الطبعة الالمانية ــ الجزء الثالث ــ طبعة روزنكرانتس ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .

Kant : Sämmtliche Werke — 3 band — Rosenkranz

وأدت هذه المقدمات الى نتيجة واضحة ، فعلم المنطق فى نظر كانط علم عقلى فى مادته وصورته ، وهو علم قبلى لقوانين العقل الضرورية . واذا صح هذا كان علم المنطق علم الاستخدام الصــــحيح للفهم والعقل عامة ـ ليس ذاتيا : أعنى أنه ليس استخداما صحيحا للفهم والعقل عامة وفقا لمبادىء تجريبية (أى نفسية) فيما يتعلق بكيف يفكر الفهم حقيقة ؛ وانما هو استخدام موضوعى : أى أنه استخدام صحيح للعقل والفهم عامة وفقا للمبادىء القبلية فيما يتعلق بكيف يجب أن يفكر الفهم ؟ (١)

ولذلك فقد كان على مل أن يحمل على هذه الفكرة حملة قوية من أجل اقتلاعها من أساسها اقتلاعا ، ولا شك أن اتجاه مل الى هذه الوجهة النفسانية التى سار فيها انما كان بدافع من هذه الرغبة الشديدة التى تملكته من أجل تخليص الفكر من ذاتية المنطق التى ظلت مسيطرة على قواعده وأسسه ومبادئه . ولا أستطيع أن أؤكد أية علاقة مباشرة بين اتجاه مل واتجاه بعض الألمان النفسانيين المعارضين للكانطية وأصولها ، ولكننى أستطيع أن أؤكد أن اتجاه مل فى نظرية النفسانية المنطقية قد اعتمد أصلا على رغبة قوية فى معارضة منطق كانط وأخـــلاقه ومنهجه التربوى بهذه الصورة الواضحة .

وعلى ذلك فبقدر ما أكد كانط مبادىء الفطرة القبلية وصور الحساسية ومقولات الفهم ، وبقدر ما تمسك تمسكا قويا باعتقاده أن « الفهم » لا يمكن أن يشرع فى شىء الا ابتداء من أفكاره وانطباعاته بوصفها الشىء المباشر الوحيد بالنسبة اليه .. سار مل فى الاتجاه المضاد معتمدا على تقرير موضـــوعية العالم الخارجى ، وعلى تأكيد حتمية قوانين الطبيعة ممثلة فى ظاهرة السببية وحدها ، وعلى حياة العقل كجزء من ظاهرات الطبيعة التى تخضـــع وتتأثر بما يفرضـــه العالم الخارجى على العقل البشرى .

وقبل أن نذهب الى حد تفصيل هذه الحقيقة نود أن نقول : ان منهج كانط قد خلا عامة مما يؤيد أى وصف نفسى ، وانه كان يعد منهج الوصف النفسى كما تمثل عند لوك منهجا خاليا من أية مشاركة ايجابية فى حل مشكلة قيمة المعرفة ، وعلى ذلك فمن الصعب أن يقال عن منهجه: انه منهج نفسى برغم انتمائه أساسا الى مجالات العقل والفهم والحساسية والروح عامة . ولا شك أن الكثيرين من النقاد كانوا قد افترضوا أن كانط

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٥ .

يتقدم على أساس نفسى ، وأنه يقيم نسقه بأكمله على تمييز نفسى بين الذهن والعاطفة والارادة . كذلك استطاع هؤلاء النقاد أن يؤكدوا تمييز كانط بين الحساسية والفهم والعقل فى اطار الذهن بوصفه تمييزا مبنيا على الملاحظة النفسية ، وقرروا أيضا أن كانط سعى جادا من أجـــل الارتفاع الى ذلك المستوى النفسى ، ولكنه ظل برغم كل شيء مقفلا بين دفتيه .

ولكن بوتروه لاحظ خطأ هذه النظرة (١) ، وأكد هذا الخطأ ، وقال بوتروه : ان تقدم كانط فى البحث خاضع للمنهج الجدلى الأفلاطونى نفسه فى محاورة السفسطائى وفى محاورة بارمنيد (٢) .

ولكن المهم هنا هو أن نلاحظ من جانبنا أن كانط رفع المنطق الى درجة أعلى من مرتبة فلسفته النقدية ، وقال : ان المنطق أكثر من مجرد النقد لأنه قانون يقوم فيما بعد ذلك مقام الغاية أو الهدف المقصود من النقد : أى أن المنطق قاعدة أو قانون يستغل كمبدأ للحكم بمقتضاه على أى استعمال من استعمالات « الفهم » برغم أن ذلك لا يتعدى حدود صحته أو خطئه من حيث صورته (٣) .

فاذا كان نقد العقل الخالص عند كانط لا يعدو أن يكون الحكم الذى يحمله العقل فى ذاته على العقل الموحد بين الفهم والحساسية على نحو ما أكد بوتروه (٤) ــ فان المنطق على نحو ما يظهره تعبير كانط السابق ــ هو القانون الذى يعلو درجة على نقد العقل الخالص ، أعنى أن المنطق هنا فى نظر كانط هو القانون الذى يسرى كمبدأ لاستعمال الفهم من حيث صحة صورته أو عدم صحتها .

ولا نستغرب أن نرى مل يستخدم التعبير نفسه أى القانون Canon أو القاعدة فى تسمية مناهج الاستقراء الخمسة فى منطقه ، فالاصطلاح السابق فيما يتعلق بالمنطق عند كانط يجرى على لسان مل بشأن مناهج الاستقراء التى تستخدم فى اثبات الفروض العلمية ، ولا غرابة فى أن يكون الرابع من بين هذه القوانين الخمسة هو قانون البواقى الذى يتعمد التثبت القياسى الخالص من صدق نتائج التجريب ، وهو قانون قياسى

---

(١) بوتروه : فلسفة كانط ص ١٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

(٣) كانط : مجموعة المؤلفات جزء (٣) ص ١٧٤ .

(٤) بوتروه : فلسفة كانط ص ٣٢٧ .

استدلالى لا استقرائى فى الواقع ، ويقصد الى التحقيق من صـدق الفروض التى يتيسر التثبت منها بالملاحظة والتجربة .

وأكاد أجزم بأن وضع هذه القاعدة الرابعة الخاصة بالبواقى ناجم عن تأثير مباشر من منطق كانط ، فاستخدام القاعدة أو القانون بمقـام الاستدلال وسط مناهج الاستقراء وضع لا يستقيم الا مع احساس معين ازاء معناه فى المنطق بعامة على نحو ما قرأه عند سابقيه وعند كانط بالذات .

ويمكن أن نخلص من ذلك الى نتيجة معينة مؤداها أن مل تأثر بكانط فى منطقه من كل الجوانب وأن تأثره ظهر فى صورة رد فعل عنيف . وتمثل رد الفعل ذلك أول ما تمثل فى حقيقة موضوعية العالم الخارجى كمصدر لكل نظام عقلى ولكل عادة عقلية .

ولكى نصل الى هذه النقطة علينا أن نعرج مقدما على مسألة تمهد لها وهى مسألة قوانين الفكر ، اذ اعتقد كانط أن الصدق الصورى يتألف ببساطة من اتفاق المعرفة مع نفسها ، ومن ثم كان مقياس الصـدق الصورى الكلى هو علامات لاتفاق المنطقية الكلية بين المعارف بعضـها وبعض ، وهو هو قوانين الفهم والعقل العامة .

ومن المؤكد فى نظر كانط (١) أن هذه المقاييس الصورية-الكلية غير كافية من أجل الصدق الموضوعى ، ولكنها تعد الشرط الذى لا يتم الصدق الموضوعى الا به .

ولكن قبل أن ننظر فى مدى اتفاق المعرفة مع الموضوع يجب أن ننظر أولا : هل هى متفقة أصلا مع نفسها ؟ لأن هذه هى مهمة المنطق ، أى أن قوانين المنطق فى الهوية وعدم التناقض والعلة الكافية والثالث المرفوع انما تهدف الى تحقيق الاتفاق بين المعرفة ونفسها أولا قبل النظر فى مدى الاتفاق بين المعرفة والموضوع الخارجى .

وعلى ذلك فهذه القوانين المنطقية الأساسية تعين على اتفاق الفكر مع نفسه . ومن ثم كان هذا الشرط مصدر كل اتفاق بين الفكر وذاته وكل اتفاق فيما بعد ذلك بين الفكر والعالم الخارجى ، فهى على ذلك قوانين ذاتية أساسية .

ولم يشأ مل أن يسلم بذلك ، بل اعتقد أن الضرورات الذهنية التى يفرضها التناسق المتكرر فى الظاهرات الطبيعية فى الخارج هى الأصل

---

(١) كانط : مجموعة المؤلفات (جزء ثالث) ص ٢٢١ الطبعة نفسها .

فى تأسيس القوانين الأساسية فى المنطق . ولو لم يوجد شيء فى الخارج يكون أبيض وأسود معا أو عربيا وعجميا معا أو دائريا ومربعا معا — ما أمكن وجود قانون نسميه باسم عدم التناقض ، فعدم التناقض كقانون فى الذهن انما هو صدق لحقيقة موضوعية تجريبية شأن كل المفهومات، واختفاء التناقض فى الأشـــياء المرئية هو الأصل فى بزوغ قانون عدم التناقض فى الذهن .

وهذه نقطة رئيسية فى نفسانية مل المنطقية لا يمكن اغفالها لما لها من علاقة بكل التراث الفكرى الترنسندنتالى من ناحية ، ولما لها من أثر كبير على كل من نظريتى الوجود الخارجى واللغة التعبيرية عند مل ، ولم يكن بد من أن نؤجل الفصلين الخاصين بالموضوعية الخارجية وباللغة وبألفاظ المنطق الى نهاية الرسالة لكونها مسائل مترتبة على حقائق نفسية معينة، وجعلنا الكلام عنها فى الفصلين التاسع والعاشر لوجوب تبعيتها لأوضاع معينة فى منطق مل ، وبحكم كونها تترتب على وقائع جزئيـــة لا تفهم الا بناء عليها .

ذلك أن التصور نفسه فى رأى مل لا ينشأ الا باجتماع مجموعة صفات محددة عن شيء ويبزغ التصور بمجرد ارتباط الاسم بهذه المجموعة من الصفات . ونفى مل امكان التفكير فى مثل هذا التصور دون أن يلحق به تركيب كامل من الصفات المعروفة أو غير المعروفة التى لا تنفصل عنه فى الحقيقة الواقعة .

وهذا بالذات هو مؤدى مانسميه بالتفسير الموضوعى للغة عند مل ، فاذا تعلق الأمر باسم ذات كلى مثل أسنان وحصان وماء وعصـــفور ، أو باسم معنى على نحو ما تكون الفضيلة صفة الانسان الفاضل أو الفطنة صفة الانسان الفطن أو الجمال صفة ما هو جميل — وهذا أيسر أيضا من اسم الذات الكلى — لم تكن الصفات الأولى الموحية بلفظة معينة ازاء الشيء نفسه وليدة ملاحظة واحدة ، وانما تستخلص هذه الصفات من جملة ملاحظات متكررة فى الذاكرة بحيث تترك عددا معينا من الانطباعات المشـــتركة ، بل ان لغتنا العادية أيضا لا تتكون الا من جملة اختلافات ملحوظة بين الأشياء المحسوسة بحيث تؤدى الى اختلاف فى التسمية .

وعلى هذا الأساس يكون التصور وليد تجمع صفات معينة فى الفكر حول اسم واحد ، ومن ثم يكون التفكير مجرد امتثال ذلك التصـــور متحققا فى الواقع وذا شكل معين وذا امتداد وهكذا الى آخره . وفى أغلب الأحوال نختار صفات محددة من بين الصفات جميعها تحت تأثير

الانطباعات التى تؤثر فينا وبفعل دوافع نفسية مختلفة ، فنعطى الدلالات الخاصة باسم معين تصورا واضحا محددا . وعلى ذلك النحو يتوافر لدينا قاموس خاص بكل أسماء الذات وأسماء المعنى الجزئية أو الكلية ، ولا شك فى أن دلالة الألفاظ لا تفقد الطابع المؤقت الذى يعلق بها من تأثير التفسير الأول ، لأن تكوينها يتم باتفاق العقل مع نفسه ، غير أن هذا كله انما يمهد فى الواقع لبزوغ المعرفة الجديدة المحددة لمحتوى أية فكرة ، ويؤدى الى تيسير السبيل الى بلوغ تعريفات ومفهومات محددة.

وبطبيعة الحال من الواضح هنا أن مل يخلط بين الصورة الذهنية وبين التصور ، ويعتقد مل أن التصور ما هو الا صورة ذهنية تتجمع فى الذهن عن طريق الحواس نتيجة اصطدامها بالمرئيات ، ولكن المشكلة هنا هى كيف لا يستطيع العقل أن يرى المتناقضات ويفكر برغم ذلك فيها، وتصبح موضوعا من موضوعات الفكر ؟ كيف يضع العقل أمام نفسه مفهوما عن التناقض فى المربع المستدير على حين لم يكن هذا المربع المستدير قط موضوع احساس مرئى أو معطى من معطيات الحس ؟

هذا هو الاعتراض الذى كان قد أثاره ميلهو Milhaud الأستاذ بالسوربون فى كتابه عن شروط اليقين المنطقى وحدوده سنة ١٨٩٧ (١). ولا أشك فى أن ميلهو أراد أن يوجه أكثر من اعتراض الى مل ، غير أن الأساس الذى اعتمدنا عليه فى هذه الرسالة هو رغبتنا فى اكتشاف جوانب عدة ومنوعة لفكرة الوصف العلمى التى غذاها مل بعصارات منطقية عدة استطاعت مع الأيام أن تتكرر كمنحى علمى لدى الكثيرين من أصحاب الفلسفات الكبيرة .

وحسبنا أن يكون فشل مل فى الاستقراء من وجهات النظر الجديدة العملية مبررا لنظرنا الى الفلسفات التى لا تعتمد على مناهجه نظرة مغايرة لنظرة أصحاب العداوات التقليدية ازاء علوم الوصف وعلوم الميتافيزيقا ، وحسبنا أن يكون مل قد مهد لفلسفات اليوم أكثر مما مهدت له معظم الاتجاهات المتطورة فى القرن التاسع عشر ، وحسب هذا الموضوع أن يكون نقطة انطلاق ضخمة فى أسس الفكر الجديد .

ويلزم أن ننبه هنا الى حقيقة هامة وهى أنه مهما كان موقفنا من النفسانية المنطقية فان دراستنا لها أساسية ، ذلك أن تجربة مل ليست

---

(١) ميلهو Milhaud (G) : Essai sur les conditions et les limites de la certitude Logique

على الاطلاق تجربة ثانوية أو اضافية بالنسبة الى علم المنطق ، بل ان تجربته فى الحقيقة تجربة رئيسية لها جذور مشدودة الى علم المنطق ذاته ، وتمس هذه التجربة جوهر كيان المنطق وبنائه . ويمكن أن نقول فى ايجاز : انه ما من دارس للمنطق يستطيع أن يستغنى عن دراسة هذه المشكلة فى منطق مل سواء من حيث هى تجربة عالم خضع لمؤثرات معينة، أو من حيث هى مقدمة للدخول الى جملة اشكالات علم المنطق الأخرى ؛ فهذا البحث - كبحث فى أوليات المنطق - يقف بمثابة مقدمة ضرورية لكل باحث فى أصول المنطق أو فروعه ، وهو يعين دارسى المنطق على معرفة جوهر اشكالاته وجملة مصاعبه ، اذ لا يستغنى باحث فى المنطق اطلاقا عن معرفة مجموع الأدوات التى يستخدمها للقيام بأبحاثه ولاستكمال دراساته ولتأسيس نظريته وتفسيراته .

وفى النهاية أشعر بانه يلزمنى ان أشير الى أمرين :

أولا : ان كتاب الأبحاث المنطقية الذى ألفه هوسرل لدراسة النفسانية المنطقية قد تضمن تحليلا لأعمال النفسانيين المنطقيين من أمثال بولتسانو وبرنتانو كما تضمن اشارة واضحة الى اتجاه جون استيوارت مل . غير انه لم يتناول موقف مل فى صفحات عديدة وخصه بخمس صفحات فقط . وقد اكتفى هوسرل بهذه الاشارة السريعة الى موقف مل بحكم عدم المامه الكبير باللغة الانجليزية واذا كانت محاولتى هنا فى هذا البحث مجرد الحرص على اكمال هذا النقص فانها قد أدت الى نتائج مذهلة لأنها عرفت بهذا الاتجاه عند مل على نحو لم يخطر على بال أحد من قبل وهو أن تقوم النفسانية المنطقية من كلامه فى المنطق مقام نظرية المنطق ذاتها . ثم ان أحدا لم يكن يتصور أبعاد موقف مل فى هذا الاتجاه ولم يكن يدرك انه يبلغ هذه الدرجة من الضخامة والتأثير والايجابية فيما بعد ذلك .

ثانيا : لا أملك أن أختم كلامى هنا قبل أن أشكر الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى الذى لولا جهوده واهتمامه ما كان يمكن أن أواصل دراستى بجامعة القاهرة أو أن أعرف أحدا بنتائج هذا البحث الذى ظل مختفيا عن أعين الناس باللغة الفرنسية سنوات طويلة . فهو صاحب الفضل الأكبر على هذا البحث وعلى صاحبه . وليس فضله هنا الا واحدا من أفضاله الكثيرة فى حقل المعرفة من أجل خدمة العلم .

عبد الفتاح الديدى

الفصـــل الأول

چون استيوارت مل

حياته ومؤلفاته

حياته :

جون استيوارت مل أكبر أولاد الفيلسوف والاقتصـــادى المعروف جيمس مل ، ولد فى لندن يوم ٢٠ من مايو سنة ١٨٠٦ ، وتوفى فى مدينة أڤينيون Avignon بجنوبى فرنسا يوم ٨ من مايو سنة ١٨٧٣ ، أى أنه لم يتجاوز سنوات القرن التاسع عشر من مولده حتى وفاته .

ولد مل اذن وسط حركة فلسفية وسياسية شديدة القوة ورثهـا القرن التاسع عشر عن القرن السابق ، وتزعمها رجل ذو شخصية لها تأثير فعال هو بنتام الفيلسوف الاجتماعى الاقتصادى ، وقد استطاع مل أن يضيف اضافات جديدة الى الاتجاه الذى ظهر بين أصحابه ، غير أنه كان أيضا متفتح العقل لتأثرات غريبة عن الوسط الذى عاش فيه بخاصة مثل تيار الرومانتيكية ، وتيـــار النزعة التاريخية ، والتيار الدينى .. وكانت كلهـا تيارات ذات أهمية بالغة فى منتصف القرن الماضى ، بل يمكن أن نقول مع كارل بريتون : ان فلسفة مل لا تعدو أن تكون تقديما للفلسفة البنتامية فى صورة ملائمة ومكيفة بحيث تصبح ذات تأثير فى العصر الجديد (١) .

وقد كانت تربية مل وتنشئته منذ طفولته مضرب الأمثال فى الكتب التاريخية والفلسفية ببريطانيا ، كما انها كانت من أهم ما استرعى نظر الباحثين ومن أكبر ما استثار تعليقاتهم المختلفة ، وهى من الشهرة بحيث لم تعد تتطلب توضيحا كثيرا ، اذ بدأ جون مل يتعلم اليونانية

---

(١) كارل بريتون : جون استيوارت مل ص ٧ .

Karl Britton : J.—S. Mill (1953)

مع الانجليزية حتى بلغ الثامنة من عمره ، وعندئذ شرع أبوه يلقنه دروسا فى اللاتينية وفى الحساب .

وهكذا أصبح مل مزودا بالفكر اليونانى فى سن مبكرة ، وصار على المام واف بصفة خاصة بمحاورات أفلاطون وبمنهجه الديالكتيكى . وقبل أن يصل الى سن البلوغ تدرج فى معرفته لعلوم المنطق ولعلوم النفس ولعلم الاقتصاد السياسى ، وكانت هذه مواد صعبة كما كانت موضوعاتها شاقة مقصورة على المتقدمين فى السن ، ولم يكن لجون مل سوى أستاذ واحد هو والده نفسه ، فعلمه المنطق فى سن الثانية عشرة والاقتصاد السياسى فى سن الثالثة عشرة .

وجعل جيمس مل من ابنه صديقا ورفيقا ، وأثر فيه بشخصيته القوية الحازمة . وقال جون استيوارت مل عن هذه التربية : « لقد كانت التربية التى أعطانيها أبى أليق فى ذاتها بأن جعلتنى أتمرن على المعرفة أكثر مما جعلتنى أعرف فعلا » (١) .

ومن المؤلفات التى مرت بمل فى تلك الفترة والتى يمكن تتبع آثارها فيما بعد فى حياته الفكرية كتاب الفيلسوف هوبز عن « العد » computation وأرسطو عن البلاغة فضلا عن محاورات أفلاطون وعن كتاب ريكاردو Ricardo فى الاقتصاد السياسى . وقد تتبع جيمس مل تعليم ابنه جون بطريقة مباشرة وسريعة ومتلاحقة ، ولم يكتف بأن يصل جون الى حد القدرة على استيعاب كل تلك المواد ، بل طلب اليه وفقا لطريقة لانكاستر فى تعليم الصغار أن ينقل معارفه الى اخوته وأخواته .

وهكذا فرض عليه أبوه أن يقوم بتربية الصغار بدوره حتى يعرف أن أفضل طريقة لفهم الدروس هى شرحها لمن عداه ؛ ومن ثم أصبح نضج جون استيوارت المبكر مضرب المثل (٢) .

وحتى تلك السن لم يكن جون مل قد اتصل بأحد خارج دائرة أسرته وأصدقاء والده . وذكرياته فى تلك الفترة مجرد ملاحظات عن

---

(١) جون استيوارت مل : السيرة الذاتية ص ٣١ .

John Stuart Mill : Autobiography — p. 31 — 1952 Oxf. Uni. Press.

(٢) وليام دافيدسون : الفكر السياسى ببريطانيا . الفصل الثامن (١٩٤٤ — طبع لأول مرة سنة ١٩١٥) :

William L. Davidson : Political Thoughtin England—ch. villi (1944, first published 1915).

بنتام وعن بليس Place وعن ريكاردو الذى اعتقد مل أنه كان رقيقا طيبا عطوفا متواضعا . وتغيرت حياته فى تلك السن بأن أرسله أبوه بناء على دعوة من صمويل بنتام (أخى جيريمى بنتام صديق الأسرة) لزيارة فرنسا وللاقامة عنده فى تولوز ومونبلييه وللجولان فى البيرينيه ، وكان لصمويل بنتام زوجة وأربعة أطفال ، وتسببت هذه الزيارة فى هيام مل الشديد بالجبال والمرتفعات وفى اهتمامه فيما بعد بالشاعر الانجليزى الرومانتيكى وردزويرث Wordsworth .

بل يمكن أن نؤكد أن تلك الزيارة كانت سببا فى ايقاظ الكثير من جوانبه العقلية ، وفى تغذية معرفته بالأدب الفرنسى وبالفكر الفرنسى وبالسياسة الفرنسية . وتأثر ذوقه أيضا بتلك الزيارة بحيث بدأت لديه اهتمامات جديدة بعلم الحيوان وعلم النبات ، وظل يحب الرحلات والانتقالات الى آخر أيامه .

وعندما عاد مل الى انجلترا بعد سنة أسند تعليمه الى مدرس ، وقد كان والده يقوم من قبــل بتعليمه دون أى وازع دينى ودون أى ارتباط بالعقيدة أو بالكنيسة ، واهتم مل بعد عودته من فرنسا أكثر فأكثر بقراءة مؤلفات بنتام ، فكان أن وقع بين يديه كتاب بنتام عن « تحليل لتأثير الدين الطبيعى على سعادة البشر الدنيوية

"Analysis of the Infuence of Natural Religion on the temporal Happiness of Mankind".

كذلك أرشده والده الى قراءة كتاب هام يصور البنتامية فى مجموعها كمذهب ، وهذا الكتاب هو « بحث فى التشريع » من تأليف ديمون Dumont : Traité de Législation وتضمن هذا البحث نظرات بنتام فى الأخلاق وآراءه فى السياسة .

وكان هذا الكتاب موضوع قراءاته الخاصة على حين امتدت دروسه مع والده الى أعلى فروع علم النفس ؛ اذ كان مل حين ذاك مشغولا بدراسة لوك دراسة دقيقة ، ولكنه وصف كتاب ديمون بأنه كان ذا أكبر أثر عليه (١) ، بل وصف نفسه بأنه أصبح كائنا آخر بعد قراءة الكتاب (٢) .

أما فيما يتصل بعلوم النفس فقد تطلع حين ذاك تطلعا جادا الى

(١) مل : السيرة الذاتية ص ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦ .

دراسة « بحث فى الفهم الانسانى » من تأليف لوك Locke (١) والى دراسة « ملاحظات حول الانسان » من تأليف هارتلى Hartley (٢) ، وكان شرح هارتلى لعمليات الفكر المعقدة ولظاهرة العقل عن طريق قانون التداعى سببا فى ارضاء تعطشه وفى الحصول على تحليل حقيقى لكثير من المسائل التى شغلته ؛ وكان هذا الفهم الجديد سببا فى استصغاره فيما بعد لكتابات كل من دى كوندياك ولوك التى قرأها من قبل .

وفى تلك الفترة عينها بدأ أبوه جيمس مل يؤلف كتابه عن تحليل العقل البشرى الذى ظهر سنة ١٨٢٩ . وقد قرأ مل هذا الكتاب فقرة فقرة قبل طبعه كما قرأ كتب هيوم وبركلى وريد واستيوارت وبراون وقد تعرف بعد ذلك على بعض أعضاء الجمعيات التى كانت تدور فيها مناقشات حادة متطرفة فى الفلسفة وفى السياسة ، ثم صار مل عضوا بارزا فى جمعية تضم لفيفا من الشبان المفكرين الذين كانوا يجتمعون فى بيت جورج جروت Grote (١٨١٣ — ١٨٦٦) للجدل والنقاش حول موضوعات الاقتصاد السياسى وعلم النفس والمنطق .

وأصبح كذلك عضوا عاملا ذا تأثير كبير فى نادى الاقتصاد السياسى ، واتصل عن طريقه بأكبر رجال الاقتصاد وقادة الفكر السياسى ، وقام هو نفسه فى النهاية أيضا بانشاء جمعية تعمل وفقا لمبدأ المنفعة الذى أصبح هو نفسه من أكبر دعاته .

وكان مل قد شغل فى سنة ١٨٢٣ وظيفة مراجع للمراسلات والمكاتبات وهو فى سن السابعة عشرة بشركة « شرق الهند » بفضل تأثير نفوذ والده ، وظل بهذه الوظيفة الى أن أصبح رئيسا للفحص بادارة الشركة سنة ١٨٥٦ أى قبل اغلاق الشركة بسنتين .

ولكنه كان قد عرف خلال ذلك طريقه الى النشر فى الصحف منذ سنة ١٨٣١ حين شرع فى كتابة سلسلة من المقالات تحت عنوان « روح العصر » ، وامتلأت هذه المقالات بأفكار جريئة وجديدة معا ، ولم يعرف مل أى أثر لهذه المقالات سوى ملاحظة واحدة نطق بها كارلايل عندما طالعها وهى قوله : « هذا متصوف جديد » وقد روى كارلايل تلك الحادثة بنفسه الى مل عندما قابله فيما بعد (٣) .

---

(١) John Locke : An Essay Concerning Human Understanding

(٢) David Hartley : Observations of Man.

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٨ : يتعين فهم هـــذه العبارة فى ضوء هذه المقالات الاجتماعية التى نشرت قبل سنة ١٩٣٤ كى لا نذهب فى تفسيرها مذاهب شتى من فلسفة =

واستفل مل وقت فراغه حين ذاك للانتهاء من أكبر مؤلفاته على الاطلاق وهو كتابه عن المنطق ، وأفاد مل فى اعداده من كتابات ويويل وهرشل وأوجست كونت ، وظل مل يقوم بنشر أبحاثه ومقـــالاته فى الصحف والمجلات الى أن ظهر كتابه عن « نسق المنطق » سنة ١٨٤٤ ، ولم يكن ظهور هذا الكتاب غريبا ؛ فقد ظلت تكمن فى قرار كل ما كتبه مل رغبة قوية فى الارتفاع بعقل الانسان كما قال لاسكى فى مقدمة سـيرته الذاتيـــة (١) .

وبرزت هذه الرغبة بوضوح فى كتابات مل ومناقشاته الاقتصادية ، كما تأكدت أخيرا فى كتابه عن المنطق . ويشير لاسكى الى أن علم النفس كما عرفه مل وكما تناول موضوعاته ليس مما يقرأ اليوم عادة ؛ والسبب فى ذلك هو أن هارتلى وأصحاب التداعى الذين استوحى مل نظرياتهم لا يحتاون اليوم المكانة الرفيعة التى كانوا قد احتاوها فى تلك الأيام (٢) .

وعلى الرغم من أن مل قد عرف دائما كباحث فى علم النفس ، وعلى الرغم من أنه كان قد نال شهرته على هذا الأساس — لم يؤثر عنـــه كتاب مستقل فى علم النفس ، ويمكن استخلاص نظرياته فى علم النفس من بعض فصول كتابه عن المنطق ، وهى الفصول التى تعرض نظريات ويويل وهربرت سبنسر (٣) عرضا نقديا وبخاصة فيما يتعلق باعتبارها اختفاء النقيض مقياسا للصدق .

ويمكن أيضا التعرف على نظرياته خلال صفحات كتابه عن مذهب المنفعة ، وقد بلغت نظرياته النفسية قمتها فى كتابه عن فحص فلسفة السير وليام هاملتون وفى تعليقاته على طبعته التى أصدرها لكتاب أبيه عن تحليل ظاهرة العقل البشرى فى سنة ١٨٦٩ .

وقد حدد ظهور كتاب مل عن المنطق انتهاء مرحلة تأثره بكولريدج Coleridge (١٧٧٢ — ١٨٣٤) أحد شعراء عصره الكبار وأحد العاملين فى حقل مذهب المنفعة ، ولكنه لم يكن يوافق فى جملة فلسفته مل لانتمائه الى المثالية الألمانية . ومنذ اللحظة التى توقف فيها أثر كولريدج على

= مل التى لم تظهر الا فى كتبه بعد هذا التاريخ وبخاصة فى مواضع تأثير بركلى على فلسفته .

(١) المرجع نفسه — مقدمة هارولد لاسكى ص ١٥ (الترقيم اللاتينى) .

(٢) المرجع نفسه — المقدمة ص ١٩ (الترقيم اللاتينى) .

(٣) هربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) هو مؤلف المبادىء الأولى First Principles سنة ١٨٦٢ .

مل عاد هذا الأخير الى النظريات التى قرأها فى شـــبابه الأول قبل سنة ١٨٢٦ ، ويمكن ملاحظة هذا الارتداد عند مل من أمرين كما يقول بريتون :

الأول : صار مل يرفض المذهب الذى يفترض فى العقل قوى حدسية لاكتشاف الصدق : واذا بقيت من هذا المذهب بعض لفتات أو لمحات قليلة فعلى أساس أن العقل يمكنه استخدام أية قوى حدسية صالحة يملكها فى استباق الحواس وملكة التحليل ، وأراد مل أن يتحاشى أية مسألة اعتقادية فى هذه المشكلة عند تأليف كتابه عن المنطق .

وود حين ذاك أن يقبل على الافادة من ستيرلينج (١) وخاصة فيما كتبه عن كانط وشلنج قبل صدور مؤلفه المشـــهور عن سر هيجل سنة ١٨٦٥ . غير أن بحثه النفسى الميتافيزيقى عن فلسفة هاملتون (٢) قطع الطريق أمام كل أمل فى تعديل موقفه . اذ هاجم هذا الكتاب حدسية الألمان بعنف بالغ .

والآخر : كان مل قد قبل فى كتابيه عن الاقتصاد السياسى وعن مطالب العمل النظرة الراديكالية التى ترى أنه لا توجد سلطة مختصة بالهداية الى اكتشاف الحقائق الأساسية أو بالتحقق منها ، ويكفى أن يضمن الناسُ التمتع بحرية النقاش كى يصبح الحق قادرا على التعريف بنفســـه ، أما التمسك بمبدأ الوصاية العقلية Paternalism الذى دعا اليه كولريدج وكارلايل فكان فى نظر مل انحطاطا بالناس وحائلا دون استقلالهم (٣) .

منذ تلك اللحظة التى ظهرت بشائرها فى هذين الاتجاهين انفصـــل مل عن كولريدج وصار أقرب الى الاتجاه المظهرى Phenomenal فى الفلسفة ،

(١) Hutchinson Stirling : The Secret of Hegel وكان ستيرلينج أول من عبر عن المثالية الألمانية ممثلة فى النزعة الهيجلية بانجلترا حينما أصدر هذا الكتاب عن سر هيجل سنة ١٨٦٥ .

(٢) كان سير وليام هاملتون (١٧٨٨ — ١٨٥٦) أستاذا للميتافيزيقا والمنطق بجامعة ادنبرة بأسكتلندة خلال عشرين سنة ، ونصب نفسه زعيما للحركة الفلسفية الكانطية . وكان ضليعا فى معرفته بتاريخ الفلسفة ، وله مؤلفات عدة أهمها :

1.—Discussions on Philosophy and Literature, 1852

2.—On Truth and Error, 1856.

3.—Lectures on Metaphysics and Logic, 1859.

(٣) كارل بريتون : جون استيوارت مل ص ٣٤ — ٣٥ .

بل صار أكبر ممثل للفلسفة المظهرية (الفينومينااليزم) كما وضعها جيمس مل وبراون ، واستبعد مل أيضا بعض بذور من هيوم ، وتعد فصول كتاب مل عن فلسفة هاملتون الأخيرة مؤلفا مستقلا عن أسس الصدق الضرورى وعن المنطق الصورى والرياضى .

وتزوج مل سنة ١٨٥١ هاريت تيلور بعد وفاة زوجها بسنتين (١) . ويقال : ان تأثير هاريت كان كبيرا فى بعض مسائل الفلسفة وفى شئون السياسة العملية ؛ اذ أنها دفعت مل الى مراجعة آرائه فى كثير من مسائل الفلسفة ، وردته الى قراءاته الأولى (٢) ، بل لقد دفعته أيضا ــ قبل زواجه منها ــ الى الايمان بتعادل الجنسين ، غير أن زواجه منها جعله يكتشف المتناقضات العملية الكبيرة فى قرارات المرأة (٣) .

كذلك بدأ اشتغال مل بالسياسة وبتوجيه الأفكار السياسية عمليا ببلاده منذ ١٨٦٥ ، وبقى مل عضوا فى البرلمان سنتين كاملتين الى أن هزم فى الانتخابات الكبيرة سنة ١٨٦٨ . واستطاع فى أثناء هذه الفترة أن يوثق العلاقات بين اليسار البريطانى وبين الحركات العمالية بحيث صار أحد الأوائل ممن نظموا تأسيس الاشتراكية الانجليزية ، وقام كذلك بدور ملحوظ فى معارضة حكومة المحافظين Tory حتى ألزم دزرايلى الذى كان رئيس الحكومة آن ذاك بتغيير قوانين الانتخاب وتعديلها لرفع نسبة العمال المشتركين فى التصويت ، وفى تلك الأوقات كانت تشغل تفكير مل وكتاباته ومقالاته ثلاث موضوعات رئيسية هى :

١ ــ التفكير العلمى .

٢ ــ الاشتراكية .

٣ ــ العقيدة الدينية .

أما التفكير العلمى فكان ظاهرا من قبل فى كتابه عن المنطق ، ولكنه تعرض لهذا الموضوع بعد ذلك مرات عدة أيضا فى مراسلاته ، وقرأ أصل الأنواع لداروين فى تلك الفترة ، وعلق على الكتاب بقوله : برغم ان المؤلف لم يستطع أن يثبت صدق مذهبه فقد أثبت فيما يبدو امكان صدق مذهبه ذاك .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧ .

وقرأ كذلك فى تلك الفترة عينها كتاب محاضرات عن الحرارة تأليف تايندال Tyndall ، ولاحظ فى تعليقه أنه يجب ألا نأخذ أنصاف الحلول بوصفها أحكاما نهائية .

أما التفكير الاشتراكى فيتمثل فى عودة مل الى بحث الاشتراكية ، وفى اعادته للنظر فى الفوائد التى تعود على العمال من حقوق الانتخاب ، ومن تأييد حقهم فى الاضراب . واقتنع مل تماما بنظرية الاضراب كوسيلة لتهديد أصحاب رءوس الأموال ولضمان كرامة العمال ، وآمن أيضا بأن العمال يمكنهم اختصار الوقت عن طريق الاضراب للوصول الى اقتسام السلطة السياسية . وبقى أمامه اشكال العمال لاعانتهم على تولى السلطات فى ترو واتزان وحكمة ، واستخدام الكلام فى اعتدال وتعقل .

وخص مل مذهب الاشتراكية بدراسة دقيقة عميقة ، فكتب أربعة فصول عن الاشتراكية خصص لها كل وقته فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته . ونشرت هذه الفصول بالمجلة نصف الشهرية Fortnighty سنة ١٨٧٩ ، وصارت هذه المقالات أساسا للنظرية الاشتراكية الفابية .

أما عن العقيدة الدينية فقد ألف مل رسالة طويلة حول موضوع الألوهية ، ولم تنشر هذه الرسالة الا عقب وفاته مع مقالين آخرين عن الدين ، وحاول مل فى مقاله الأخير وضع قواعد للايمان بالحياة الأخرى ، وظهرت فى هذه المقالة الأخيرة أيضا بوادر الايمان باله محدود ! ويعلق العقاد على موقف مل هذا فى كتابه عن « الله » بأن مل كان دستوريا فى ايمانه بالله ! فجعل الله محدود السلطات ! (١) .

مؤلفات مـــل

لمؤلفات جون استيوارت مل طبعات عديدة ، وقد تداولت كتبه دور نشر ذات اتجاهات ثقافية متنوعة ، وظهرت من كتب مل طبعات من كل نوع ومن كل المقاييس والأحجام مع اختصارات واقتطاعات عدة .

وأهم هذه الطبعات :

١ ـ رسائل ومناقشات ـ أربعة أجزاء . لندن سنة ١٨٥٩ـ١٨٧٥
Dissertations and discussions

(١) عباس محمود العقاد : « الله » (دار المعارف) ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

٢ ــ خطابات ــ نشرها هاج اليوت فى جزاين . لندن سنة ١٩١٠ .
(Ed. Hugh Elliot) Letters

٣ ــ جون استيوارت مل وهاريت تيلور (خطاباتهما) ــ نشرها هايك بلندن سنة ١٩٥١ .
John Stuart Mill and Harriet Taylor (Editor : Professor Hayek)

٤ ــ روح العصر ــ قام بطبعها البروفسور هايك بشيكاجو سنة ١٩٤٢ ظهرت أول طبعة سنة ١٨٣١ .
The Spirit of the Age. (Editor : Professor Hayek)

٥ ــ نسق المنطق ــ ظهر أول مرة سنة ١٨٤٣ بلندن فى جزاين ــ اعتمدت على طبعة لندن فى مجلد واحد سنة ١٩٥٢ وان كانت بعض اشارات البحث الى الطبعة الفرنسية A. System of Logic

٦ ــ فى الحرية ــ ظهر فى لندن أول مرة سنة ١٨٥٩ On Liberty أعيد طبعه فى سلسلة Everyman's أفريمانز مع كتابه عن مذهب المنفعة والحكومة النيابية ، وظهر فى سلسلة الكلاسيكيات العالمية World Classics مضافا اليه استعباد المرأة ، وكذلك فى سلسلة ثينكارز Thinkers مرات عدة . وترجمه الأستاذ طه السباعى الى العربية سنة ١٩٢٢ ، وأعادت دار المعارف طبعه سنة ١٩٤٦ .

٧ ــ الحكومة النيابية ــ ظهر سنة ١٨٦١ أول مرة بلندن ، وظهر ضمن مجموعة أخرى من كتب مل فى طبعات سلسلة ثينكارز والكلاسيكيات وافريمانز .Representative Government]

٨ ــ مذهب المنفعة ــ ظهر لأول مرة بلندن سنة ١٨٦٣ ، وأعيد طبعه فى مؤخر كتاب بلاميناتز عن النفعيين الانجليز سنة ١٩٤٩ بأكسفورد
Utilitarianism Reprinted 1949 (Oxford) in: The Engilsh Utilitarians by: J. Plamenatz.

٩ ــ فحص فلسفة السير وليام هاملتون لندن ١٨٦٥ .
Examination of Sir William Hamilton's Philosophy.

١٠ــ سيرتى الذاتية ــ ظهر بلندن أول مرة سنة ١٨٧٣ . قامت بطبعه سلسلة الكلاسيكيات العالمية عدة طبعات . تقديم هارولد لاسكى سنة ١٩٥٢ .
Autobiography (preface by : Harold J. Lasky.)

١١ـ ثلاث مقالات عن الدين ـ لندن سنة ١٨٧٤ .

Three Essays on Religion.

١٢ـ شذرات فى الأخلاق ـ بالألمانية سنة ١٨٩٧ . اشراف شارلز دوجلاس .

Ethische Fragmente-herausgegeben von Charles Douglas.

١٣ـ أوجست كونت والمذهب الوضعى سنة ١٩٠٣ وظهرت طبعته الأولى بالانجليزية سنة ١٨٦٥ .

Auguste Comte et Le Positivisme 1903

١٤ ـ مبادىء الاقتصاد السياسى .

Principles of Political Economy 2 vols. (1848).

الفصل الثانى

الجذور الفكرية فى عصر مل

لعلنا نستطيع هنا أن نستعرض الموقف الفلسفى والنفسى والاجتماعى او على الأصح أوضاع الاجتماع والفلسفة وعلم النفس فى القرن التاسع عشر بايجاز يسمح بالتعرف على المناخ الفكرى الذى نشأ فيه جون استيوارت مل ؛ فقد ولد جون استيوارت مل سنة ١٨٠٦ ومات سنة ١٨٧٣ ، وبذلك أمضى سنى حياته كلها فى قلب القرن التاسع عشر ان صح هذا التعبير .

وقد كانت انجلترا فى القرن الماضى مسرحا لكثير من الآراء والأفكار الاجتماعية . من الناحية الاشتراكية الخالصة يمكن أن نذكر أوين Owen (١٧٧١ — ١٨٥٨) ؛ فهو الرجل الوحيد الذى جعل اسم بريطانيا يذكر فى كتب التاريخ الاشتراكى خلال النصف الأول من الفترة الأخيرة فى حياته ؛ وآمن بأن العمل هو المصدر الوحيد والمقياس الوحيد للقيمة ، ويعد أوين عادة أول اشتراكى نقابى أو أول اشتراكى تعاونى (١) . ومات أوين آخر الأمر دون أن يذكره أحد .

غير أن جون استيوارت مل نشأ فى جو آخر : نشأ فى الجو الذى هيأه له جيمس مل James Mill باتصالاته الكثيرة وعلاقاته فى العمل ، وكان مل صديقا شخصيا لبنتام Bentham (١٧٤٨ — ١٨٣٢) فضلا على أن جون مل تأثر كذلك بريكاردو Ricardo (١٧٧٢ — ١٨٢٣)، وسادت فى تلك الفترة من أوائل القرن التاسع عشر قاعدة العمل وفقا لمبدأ المنفعة أو الفائدة أو مبدأ أكبر سعادة ممكنة . وأخذ بنتام هذه

---

(١) نشرة الجمعية الفلسفية الفرنسية ، يرجع استخدام هذه التسمية فيما يتعلق بفلسفة أوين الاشتراكية الى رينيه برتيلوه كما جاء بمحضر جلسة ٧ فبراير سنة ١٩٢٥ .

René Berthelot : Bulletin de la Société francaise de Philosophie, séance du 7 février 1925.

العبارة عن بريستلى Priestly (١) كما يشير الى ذلك كارل بريتون Karl Britton . أما الجمع بين السعادة والخير فقد عرف بنتام ذلك من كتابات لوك وهيوم ، وكما يقول بريتون كذلك كانت فلسفة اللذة النفعية شائعة فى القرن الثامن عشر بمساندة خلفية دينية ، ولكن الجديد حقا فى فلسفة بنتام هو منهجه التحليلى الذى أطلق عليه اسم المنهج التفصيلى . The Method of Detail

على ان الاطار الأكبر الذى كان يضم أفكار بنتام واصدقائه كشعار للحركة بأكملها يتلخص فيما يلى :

١ ـ أسس الفقه واصلاح القانون .

٢ ـ نظرية الحكومة النيابية المبنية على المنفعة والاصلاح الراديكالى للبرلمان .

٣ ـ بناء الاقتصاد فى نسق معرفى والغاء القيود على التجارة والعمل .

٤ ـ مذهب أخلاقى على اساس المنفعة واصلاح التعليم على أساس مدنى (٢) .

ومن المشاكل التى أثيرت على يد مالتوس ـ مشكلة السكان ـ واشترك مل فى هذه المشكلة بكتاباته ، وعرف مل كذلك كتابات سان سيمون Saint-Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) ، واعتقد أن المجتمع البشرى سيئول الى شكل من أشكال الاشتراكية (٣) . ولكنه رفض أن يتحول الى عضو عامل فى حركة السانسيمونية .

والواقع أن مل حاول دائما أن يحسب حساب أشياء لم تكن تتيسر معرفتها لوالده ، أو لعلها لم تكن تعنى شيئا بالنسبة اليه ، ولكن مل لم يكن يعرف كيف يحطم القيود التى التفت حول عنقه ، ولم يدرك أنه كان من الضرورى أن يفعل ذلك ، بل لعله لم يفطن الى هذه الضرورة

---

(١) بريستلى (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) رجل دين وعلم وكيميائى وأحد المشتغلين بالفزياء . اكتشف ظاهرة تنفس النباتات .

(٢) كارل بريتون Karl Britton جون استيوارت مل ص ٩ سنة ١٩٥٣ (بليكان) ..

(٣) المرجع نفسه ص ٢٧ ، ويلاحظ انه لا تعارض بين اشتراكية مل ومبدأ المنفعة ، لأن هذا المبدأ يقرر أكبر سعادة ممكنة لاكبر عدد ممكن من الناس ..

على الاطلاق . ويقول رسل فى التعبير عن هذه الحقيقة بأسلوبه الساخر : « لقد جرب جيمس مل نظرياته التربوية على ابنه جون استيوارت مل ، وكان لتجاربه آثار بعضها سيىء وبعضها حسن ، وأهم الآثار السيئة هو أن جون استيوارت لم يستطع قط أن يتخلص من نفوذ أبيه حتى عندما كان يفطن الى ان نظرة أبيه ضيقة الأفق (١) » ولو كان غير قادر على أن ينظر نصف نظرة الى الحقائق التى أتت بها التجربة وكتب الآخرين .. فانه كان أيضا أعجز من أن يحيط بالفروض الجديدة حتى يحسب حسابها ، فقد كان خياله قاصرا بالتأكيد فى هذا المجال ، وكانت هذه هى نكبته كفيلسوف (٢) ! .

ومورهيد J.H. Muirhead المولود سنة ١٨٥٥ قام بالاشراف على موسوعة الفلسفة البريطانية المعاصرة وشارك فيها ببحث واف عن الماضى والحاضر فى الفلسفة الانجليزية المعاصرة ، وتناول فى بحثه ذكرياته عن أهم التيارات الفلسفية التى سادت فى القرن التاسع عشر ، وبدأ كلامه بقوله : ان الفكر البريطانى هب فى السبعينات من القرن الماضى ثائرا ضد فلسفة الحس المشترك Common Sense Philosophy التى تشيع لها ريد Reid (١٧١٠ - ١٧٩٦) وهاملتون Hamilton (١٧٨٨ - ١٨٥٦) وضد الفلسفة الحسية الخاصة باستيورات مل وسبنسر Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) (٣) .

غير أن هذا لم يمنع أن تبدأ الفلسفة الألمانية وفلسفة هيجل بخاصة فى التسرب الى الجزيرة البريطانية ، بل بدأت فلسفة هيجل تستقر داخل أروقة الجامعات كما ظهر تيار كانطى ضعيف ، وقدم ادوارد كيرد Cair كتابا عن كانط سنة ١٨٧٧ وآخر عن هيجل سنة ١٨٨٣ وحاضر عن فلسفته ، وانصب كلامه فى الغالب على الوحدة المثالية للفكر والتجربة ، وتكونت جمعيات هيجلية فى أكسفورد وفى جلاسجو ، وظهرت عقب ذلك محاولات مستمرة للتعريف بالفكر الألمانى ممثلا فى كل

---

(١) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ص ٧٧٦ .

Bertrand Russell : A History of Western Philosophy

(٢) جون بلامناتز : النفعيون الانجليز ص ١٢٤ .

John Plamenatz : The English Utilitarians

(٣) مورهيد Muirhead : الفلسفة البريطانية المعاصرة بأقلام كثيرين مقال مورهيد نفسه ص ٣٠٩ السلسلة الأولى - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣ .

Contemporary British Philosophy

من هيجل وكانط ، وبدأت تظهر روح الألفة لدى الطلاب الانجليز فيما يتعلق بترجمات الفلاسفة الألمان وشروح أعمالهم .

وأدت هذه المرحلة الى نتائج هامة فيما يتعلق بالفكر الفلسفي البريطانى ، فظهر فلاسفة هيجليون ومثاليون عديدون من أمثال برادلى وبوزانكيه ، وانتشر تأثير هذه الفلسفات الانجليزية الجديدة حتى صارت فلسفات رئيسية بانجلترا وأمريكا فى الربع الأخير من القرن الماضى .

ويعد تطور هذه الفلسفات الجديدة بمثابة قصة التقدم الذى أحرزه الجيل بأسره ، اذ استطاع كل من جرين وبرادلى أن يحرز نجاحا هائلا فى باب الأخلاق والسياسة ، كما استطاع برادلى وبوزانكيه أن يحققا تقدما ملحوظا فى مضمار المنطق والميتافيزيقا ، ولا تزال مؤلفات برادلى أصدق تعبير عن المثالية الانجليزية وأوضح مثال للفكر الفلسفى الحقيقى (١) .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ارتدت الفلسفة الانجليزية مرة أخرى نحو الفلسفات التجريبية ، وكأنما استطاع جون إستيوارت مل أن يستشف روح الفلسفة فى الجزيرة البريطانية حين قال عنها فى أربعينات القرن الماضى فى غضون بحثه عن كولريدج : « لا تزال روح الفلسفة فى انجلترا مثل الدين طائفية من حيث جذورها » . ويعلق على ذلك مويرهيد بقوله : انه يشك فى احتمال أن الأمر قد تغير حتى وقت تحريره مقاله عن الفلسفة الانجليزية ، اذ لم تلبث الفلسفات الوضعية أن أخذت سبيلها الى الحياة من جديد ، وكان ذلك بفضل الأثر الكبير الضخم الذى تركته مؤلفات مل ، اذ كانت مؤلفاته نفسها أظهر ما فى هذا الاتجاه التجديدى (٢) .

وكان الاتجاه الفلسفى التجريبى يحتوى على مواد خاصة بالمعرفة المشتركة أو بالمعرفة العامة ، ولكن التجريبية امتدت حتى شملت آفاقا أبعد من المعرفة ، وأهم وضع اتخذه هذا الاتجاه التجريبى هو الذى

---

(١) كوبى / جولد « قراءات فى المنطق » ص ١١٦ .

Irving M. Copi/James A. Gould : Readings on Logic (New York 1964).

(٢) براند بلانشارد : فرانسيس هربرت برادلى (الصحيفة الفلسفية ص ١٠ عدد يناير سنة ١٩٢٥) .
Brand Blanchard : Francis Herbert Bradley
(The Journal of Philosophy Vol. .xxii. No. 1 — January 1, 1925 — p.10).

تمثل فى منطق جون استيوارت مل ؛ اذ أقام مل منطقه وارساه على قواعد علم النفس كما يقول بلانشارد (١) ؛ وفى هذه الحالة لا يستطيع مل أن يترك منطقه فى رعاية فكرة الضرورة ، وضم الى نظريته الاستدلال الذى لم يبلغ مستوى الضرورة لأن كل استدلال فى نظره بلغ ذلك المستوى . وكان مل بذلك أول منطقى طليعى فى العصر الحديث ينكر كل ما كان معترفا به من أن العلم التجريبى لا يستطيع أن يعطى صورة دقيقة عن الاستدلال (٢) .

أعنى أن جون استيوارت مل كان يأخذ أصلا بفكرة أن علم النفس الفردى ينشىء قوانين أساسية للسلوك الانسانى وهـذا من شأنه أن يستبعد الضرورة من السلوك . وكذلك أراد مل أن يفرغ عمليات الاستدلال المنطقى من الضرورة الباطنة المبنية على ربط المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى والنتيجة كلا بالآخر ربطا حتميا . وبذلك ابتكر عملية الاستدلال من الجزئى الى الجزئى وهو ما لا تتوفر فيه الضرورة المنطقية التقليدية كما سيأتى شرح ذلك فيما بعد .

وكانت النقطة الرئيسية فى منطق جون استيوارت مل هى أن كل قضية عامة ـ مهما كانت ملامح الضرورة فيها ـ ليست سوى نتيجة التداعى العشوى للاحساسات مؤيدا بالتكرار (٣) . وأساس الميتافيزيقا الذى قامت عليه هذه النظرية هو أن الميتافيزيقا مستحيلة ؛ وهكذا كانت التجريبية نظرية ذات الوان عدة ومتغيرة : فتظهر فى المنطق على صورة نفسانية منطقية ، وتظهر فى الميتافيزيقا على صورة مذهب فى الشك ، كما تظهر فى الأخلاق على صورة مذهب فى اللذة (٤) .

وعلى الرغم من أن جون استيوارت مل كان من أبرز المشتغلين بعلم النفس وعلى الرغم من اقتران اسمه دائما بأهم تيار فى علم النفس خلال القرن التاسع عشر ـ فانه لم يضع كتابا أو مؤلفا كاملا فى علم النفس ، واكتفى بأن ضمن أفكاره النفسية بعض فصول كتابه عن المنطق مثل

---

(١) بلانشارد (براند) طبيعة الفكر ص ٤٦٨ .

Blanchard : The Nature of Thought p. 468

(٢) المرجع السابق (الصفحة نفسها) .

(٣) بلانشارد : فرانسيس هربرت برادلى ص ١١ . الصحيفة الفلسفية (عدد يناير سنة ١٩٢٥) .

(٤) المرجع السابق (الصفحة نفسها) .

فصـــوله النقدية عن نظريات ويويل Whewell وسبنسر فيما يتعلق بالتمســـك بمبدأ اختفـاء النقيض كمقيـاس للصـــدق ، وكذلك جاءت معظم آرائه عن علم النفس فى كتابه عن مذهب المنفعة ، وبلغت أعلى درجات تطورها فى « فحص فلسفة وليام هاملتون » (١) وفى ملاحظاته الاضافية على طبعته لكتاب والده جيمس مل (١٧٧٣ — ١٨٣٦) عن « تحليل ظاهرة العقل البشرى » (٢) التى ظهرت فى سنة ١٨٦٩ (٣) .

واقتصر موضوع المنطق لدى هاملتون وتلاميذه على طريقة معرفه الحقائق ، لم يكن يعنيهم المحتوى الراهن للمعرفة والأشـــياء الجزئية أو الحقائق التى نعرفها وانما كان كل ما يعنيهم هو طريقة التعرف عليها ، وما يقوم به العقل حينما يتعرف عليها ، أو يفكر فيها بصرف النظر عن كل علاقة جزئية بالأشياء التى يفكر فيها (٤) ، ذلك أن هاملتون يؤيد تعريف المنطق بوصفه دراسة قوانين الفكر الصورية ، المنطق فى نظر هاملتون هو علم قوانين العمليات الذهنية الثلاث : التصـــور والحكم والاستدلال .

ولم يقبل مل هذا التعريف للمنطق ، لقد اعتقد أنه من الممكن تفسير العقل بوســـاطة التجربة وبوساطة تداعى الأفكار . واذا كانت الملكات العقلية إبتداء من الادراك حتى التفكير العقلى .. ترجع كلها الى قانون واحد .. فلمـــاذا لا يكون الأمر كذلك أيضـــا فيما يتعلق بالعمليات المنطقية ؟ ولاقتناعه بالنزعة التجريبية وضع جون استيوارت مل قانون التداعى فى أعلى مراتب علوم العقل ، وأحل التفسير التجريبى وتفسير التداعى محل التفسير العقلى للعمليات المنطقية .

ولكن يعنى ذلك شيئا واحدا ، وهو أن مل ينحاز الى تعريف المنطق وفقا للتقديرات النفسية ، ويتلخص الفارق فيما بين تعريف المنطق وفقا للأفكار الأولية أو التصورات القائمة على علم النفس وبين تعريف المنطق القائم على نظرية المعرفة فى أن الموقف الأول يبحث امكانية الفكر العلمى

---

(١) Examination of Sir William Hamilton's Philosophy

(٢) ظهرت فى سنة ١٨٢٩ أول طبعة من تحليل ظاهرة العقل البشرى :
Analysis of the Phenomena of the Human Mind.

(٣) ويليام دافيدسون : الفكر السياسى بانجلترا ص ١٩٨ فصل ٨ .
William L. Davidson : Political Thought in England

(٤) كتاب فحص فلسفة ويليام هاملتون ص ١٠٥ الفصل (٢٠) من الطبعة الفرنســـية .

والفكر غير العلمى أو السابق عليه على حين يدلل الموقف الآخر على أنه لايوجد فى بعض الظروف المعطاة سوى طريق واحد يؤدى الى التصور(١). او بعبارة أخرى يسعى المنطق وفقا للموقف الأول الى اسقاط التصورات والبقاء فى ميدان المستوى النفسى ، ذلك أنه فى حالة اختفاء الصيرورة (أو النمـــو) أو The Dialectic of experience يختفى التفـــــكير ، ومن ثم لا تبقى سوى الواقعة النفسية (٢) . ان هذه الواقعة لا يمكن أن تبقى هى هى بذاتها ، ولابد أن تتحول الى واقعة نوعية ، وهـــذا هو ما يسمى بالتعالى الذاتى ، وهو لا يحدث كنتيجة فكرية ، ولكن الفكر ذاته هو الذى ينتج عنه ، ويمثل صيرورته أو نموه .

وعلم النفس علم فردى يتعلق بالأفراد (٣) ، وعلم المنطق عند مل مشحون بعناصر فردية كثيرة (٤) ، واذا كان هاملتون قد أعان أنه عنى بالصور (الأشكال الصورية) Forms قوانين الفكر الضرورية فهـذا يؤدى فى نظر مل الى نتائج غريبة ، لأن معناه أنه يؤكد وجود علم النفس وهو علم جميع ظواهر الفكر ، وبرغم ذلك فهذا العلم فى حاجة الى علم آخر من أجل تفسير قوانينه الضرورية ، وهو ما لا يوافق عليه مل (٥) ، فالفكر عند مل هو ما يمر بالعقل عندما نفكر ، ولا شىء أكثر من ذلك (٦).

ويعبر عن ذلك بروشار Brochard بقوله : « لا تتمثل الوقائع فى العقل بوسائط ما (أى بالتصورات) وانما ستعمل هى نفسها مسائلها الخاصة دون اللجوء الى ما ينوب عنها (٧) .

غير أن السعى الى بلوغ الفكر كما هو أو التمسك بالفكر على نحو

---

(١) هوفدنج : النسبية الفلسفية ص ٢ .
Höffding : La Relativité Philosophique

(٢) شيرش : الديالكتيك عند برادلى .
Church : Bradley's Dialectic, pp. 145-150 (ch. iv)

(٣) شارلز داجلاس : جون استيوارت مل ص ٢٤ .

(٤) المرجع نفسه ص ٣٩ .

(٥) الفصل العشرون من كتاب فلسفة هاملتون .

(٦) لوريه (هنرى ـ جاك) : فلسفة جون استيوارت مل ص ١٢٠ .
Lauret (Henri-Jacques) : La Philosophie de J.—S. Mill (1885).

(٧) بروشار : المجلة الفلسفية (عدد نوفمبر ديسمبر سنة ١٨٨١) .
Brochard : Revue Philosophique (Nov. Déc. 1881).

ما يجرى — من شأنه أن يدفعنا الى تغيير الموقف الذى نكون فيه ، أو على حد تعبير بياجيه Piaget (١٨٩٦ —) « حينما نسعى للاهتمام بالفكر كما هو أو حينما يتعلق الأمر بالفكر على نحو ما هو عليه فى نموه النفسي والاجتماعى (التاريخى) — يتغير الموقف : فاما أن نعتقد امكان ارتجال الحقيقة النفسية عن طريق الاستبطان والملاحظة المباشرة دون أى قلق أو « انشغال » بشأن التجريب أو بشأن التكوين الأصلى الحقيقى .. واما أن نذهب الى حد تعيين علامات الحدود الخاصة بالتحليل النفسى بوساطة احلال جدل أو ديالكتيك الفكر محله فى وضوح، وهنا أيضا سنقول بجدل الفكر اذا كنا نعنى بذلك أن الفكر (شأنه شأن أية حقيقة واقعية) — سيفيض فى دوائر متساندة فيما بينها أو باختصار فى مواقف ديالكتيكية (١) .

فاذا كان بياجيه قد قال بوجود طريقتين فى النظر الى التجربة ازاء الأشياء الخارجية .. احداهما تعتمد على الاستبطان والملاحظة المباشرة وثانيتهما تعتمد على جدل التجربة القائم على تحول المدركات داخل الفكر .. اذا كان ذلك هو تقسيم بياجيه .. فمن الواضح أن مل قد أخذ بالجانب الأول من جوانب التفسير واعتمد على المسلك النفسى المباشر فى تأسيس المعرفة البشرية .

وهذا معناه أن مل قد جنح الى الافتراض الأول فى تقسيم بياجيه ، أعنى أنه لم يكن يستطيع أن يدرك معالم الافتراض الثانى بوضوح ؛ ومن هنا انحاز الى جانب تقدير الحقيقة النفسية من حيث هى وقائع جارية تعرف عن طريق الاستبطان والملاحظة المباشرة . فلم يشغل نفسه بمحاولة التجريب أو متابعة التكوين الأصلى الحقيقى كما تصورها أو ترمز اليها تاسليات الموضوع . وقال جون استيوارت مل فى أحد خطاباته الى وارد Ward سنة ١٨٥٩ : انه حيثما تحدث فى موضوع المنطق عن الاستدلالات التى تتبع مقدماتها بالضرورة ! فكل ما يعنيه فقط هو أن الاستدلال مقنع ، وهذه مسألة نفسية (٢) .

---

(١) جان بياجيه : (ص ٢٨٩ — ٢٩٠) مجلة « ديالكتيكا » عدد ٤ السنة الرابعة فى ١٩٥٤/١٢/١٥ .

(٢) جون استيوارت مل : الخطابات (جـ ١) ص ٢٢٧ .
Letters — vol. I (1910) edited by : Hugh Elliot.

الفصل الثالث

الملامح الرئيسية لعلم النفس عند مل

يقول مل ما فحواه :

اذا كانت كلمة العقل تعنى شيئا فانها تعنى ذلك الشيء الذى يشعر ، وحينما نقيم تصنيفا دقيقا يجب أن نضع الاحساسات فى مستوى الظاهرة العقلية ككل المشاعر الأخرى ، وتتكون ظاهرة العقل من المشاعر المتنوعة الخاصة بطبيعتنا سواء كانت عضوية أو عقلية ، ولا يعنى مل بقوانين العقل سوى تلك القوانين التى تخضع لها عملية توالد هـذه المشاعر بعضها مع بعض (١) .

ومن هنا بدأ مل يضع نسقا متكاملا وعرضا منهجيا لنظرية التداعى : لقد حاول تفسير الأحاسيس المركبة والادراك والأحكام والبراهين والبديهيات والعقل بأكمله ، حاول تفسير ذلك كله عن طريق القوانين الخاصة بالتآلف العقلى الشبيهة بقوانين الكيمياء وعن طريق قوانين التداعى المماثلة للقوانين الطبيعية ، واهتم بالعقل من جهة ما فيه من دوام واستقرار فى مقـابل التكاثر المتقلب لحالات « الوعى » التى تنضاف اليه ، وفى مقابل سلسلة الأحاسيس الآنية وسلسلة الامكانيات اللانهائية للأحاسيس المستقبلة .

وقد تردد مل ازاء التداعى البحت ، لم يكن أمامه أى سبيل للتفكير فى نوع آخر من النظريات ، وما كان يحاول الابتعاد عن هـذه النظرية الخاصة بالتداعى لو أمكنه ذلك ، ولم يكن تردده من نوع الحيرة فى القبول أو الرفض ، لكنه تردد أمام عمليات التوفيق الضرورية لمواجهة التـكامل النسقى الضرورى .

أى أنه لم يشأ أن يكون ذا مسلك محدد حيال التكامل النسقى فى مواقفه

---

(١) جون استيوارت مل : المنطق ص ٥٥٥ (ب) سنة ١٩٥٢ لندن .

وآرائه الفلسفية ولم يحرص على المواءمة بين مواقفه وآرائه ولم يحتفظ بالتناسق الضرورى بين الآراء عند محاولة انشاء المذهب .

وتفسر نظرية التداعى العقل بوصفه نتيجـــة صادرة عن سواه ، والحقيقة الوحيدة التى يبلغها الاستبطان فى نظر التداعى هى الاحساس أو الفكرة أو الصورة أو الانفعال مما يقوم بالعمل بمثابة جزئيات ذرية نفسية ويؤدى الى ايجاد كل الوظائف العقلية العليا كالذاكرة والادراك والذكاء والاستدلال وكمبادىء العقل « المزعومة » عن طريق التداعيات « الأكثر وأكثر » تركيبا .

ولا تستطيع نظرية التداعى أن تبحث عن تفسيراتها الأولى للظواهر النفسية والعقلية فى غير التجربة ، انهـا لا تستطيع أن تدرك حقيقـــة التداعيات التى تكون الوظائف العقلية والمبادىء الذهنية نفسها الا باعتبار هذه التداعيات ذات طبيعة شبيهة بطبيعة الذرات النفسية أو بوصفها عادات عقلية تكونت سلبا بملامستها للعالم الخارجى . ولا يعدو العقل أن يكون جملة حالات شعورية خاضعة لقوانين التجربة وهو يدفع العـــالم المحيط بنا الى داخل أنفســـنا بدلا من أن يكون فى موقف معـــارض لذلك العالم .

وها هنا نخرج من نطاق علم النفس لننتقل الى الفلسفة من أجل دعم النزعة التجريبية ، وعندئذ يقرر جون استيوارت مل أنه اذا تحدثنا عن العقل بوصفه سلسلة مشاعر فعلينا أن نقبل هذا التناقض الذى ينشأ عن افتراض أن شيئا ما مكون من سلسلة من المشاعر ، وعلى أنه هو نفسه هذه السلسلة (١) .

وهكذا واجه مل تردده فى التداعى البحت وحل الاشكال على أساس افتراض أن العقل مكون من سلسلة من المشاعر وعلى أساس افتراض أنه هو نفسه أيضا سلسلة . ومن المفروغ منه أن مل كان أحـــد القائلين بالتداعى ، ومن المؤكد أنه جدد فى نظرية التداعى بادخال مبادىء التجمع والربط بين العناصر العقلية على نحو مغاير للمبادىء الآلية الخالصة ؛ فقد رفض مل المبدأ الذى أقره والده والذى يقول بأن وظيفة التداعى الوحيـــدة هى ربط التجارب معـــا دون أن تتغير جوهريا خلال عمليـــة التجميع والامتزاج . ووضع مل فرضا جديدا بأن التجميع يغير كل ما يتجمع ،

---

(١) جون استيوارت مل : فحص فلسفة هاملتون ص ٢٣٥ من الطبعة الفرنسية .

وأطلق مل على مذهبه الجديد اسم كيمياء العقل بدلا مما كان مألوفا قبله تحت اسم آليات العقل : ومعنى ذلك أن مل يعترف ضمنا فيما بينه وبين نفسه بفشل النظرية القديمة (آليات العقل) فى تفسير الوقائع وتوضيح ما يحدث بالفعل ٠

ويود مل أن يخلى كتابه فى المنطق من أى تأمل ، بل ويود أيضا أن يقصر موضوع كتابه على المسائل المباشرة الأساسية ٠ ولا تعدو قوانين العقل فى نظره أن تكون قوانين الظاهرة العقليـــة ذاتها ٠٠ أى قوانين المشاعر المختلفة وحالات الشعور الخاصة بالكائنات الواعية ٠ وتتكون هذه الحالات من الأفكار والانفعالات والرغبات والاحساسات ، وهذه الأخيرة بالذات تدخل ضمن حالات العقل شأنها شأن الأفكار والانفعالات والارادات (١) ٠

وسبيلنا الى دراسة التتابع الواضح أو التآنى الخاص بكل هذه الحالات العقلية هو ملاحظة ذلك التآنى أو ذلك التتابع كأصل أو كسبب .

ووسيلتنا الوحيدة لدراسة تتابع كل هذه الحالات العقلية أو تعاصرها هى مجرد ملاحظة تتابعها وتآنيها من حيث هى أصل أو سبب ، ولابد أن تستمر كل معرفة حقيقية لهذه الحالات أمدا طويلا (على الأقل اذا لم يكن على الدوام) للبحث عنها فى الدراسة المباشرة للتتابع العقلى ذاته عن طريق الملاحظة والتجربة ٠ ولما كان من الضرورى دراسة نظام ظاهرة عقولنـــا فى تلك الظواهر وهى الحالات العقلية لا البرهنة عليها بأى قوانين لظاهرة ما أكثر تعميما فيمكننا اذن أن نتكلم عن علم متميز منفصل هو علم العقل (٢) ٠

موضوع علم النفس اذن هو اطراد التتابع أى القوانين ســـواء أكانت نهائية أم محصلة ، وهى ما يجرى وفقا لها تتابع حالة عقلية لحالة عقليـــة أخرى ، أو حدوث احداهما بالأخرى ، أو على الأقل حدوث تبعية واحدة للأخرى ٠ وبعض هذه القوانين عام وبعضها خاص (٣) ٠

وأول هذه القوانين هو ما عبر عنه هيوم بقوله : ان كل انطباع عقلى له موضوعه . واذا قام شاعر بتكوين صورة ذهنية لموضوع خيالى مثل أية قلعة «وهمية» أسطورية أو مثل شخصية هاملت فانه يستطيع بعد ذلك أن

---

(١) جون استيوارت مل : المنطق ص ٥٥٥ (أ) ٠

(٢) جون استيوارت مل : المنطق ص ٥٥٦ (ب) ٠

(٣) خطط مل كما خلط علماء النفس فى القرن التاسع عشر بأكمله بين طبيعة الوعى وطبيعة العقل . ومل بغير شك ضحية اساءة فهم معنى الوعى ٠٠

يقوم بالتفكير فى شىء مثالى قام بتأليفه دون أى فعـــل للتجميع الذهنى الحديث العهد وبغير أثر من آثار المرئيات الحديثة الوقوع فى دائرة الوعى .

ومعنى ذلك بلغة مل أن استثارة أية حالة من حالات « الوعى » فينا ، بغض النظر عن سببها – يمكن أن تنشأ عنها – فينا أيضا – حالة من حالات الوعى المشابهة لها ، وان كانت أقل قوة ، بغير حضور السبب الأول الذى أحدثها وبدون وجود المؤثر الذى أثارها ، أو بعبارة أخرى اذا لمسنا شيئا مرة أو رأيناه أمكننا فيما بعد أن نفكر فى هـــذا الشىء برغم غيابه (١) .

وثانى هذه القوانين العامة أن الأفكار أو الحالات العقلية التالية تحدث نتيجة لانطباعاتنا أو نتيجة لأى أفكار أخرى وفقا لقوانين معينـــة هى قوانين التداعى .

وأول قوانين التداعى هذه أن الأفكار المتشابهة يستدعى بعضهـا بعضـــا .

وثانيها أن تجربة أى انطباعين أو حتى التفكير فيهما طويلا معا أو على توال مباشر تؤدى الى أنه كلما وقع أحد هذين الانطباعين أو وقعت احدى تلك الفكرتين حدثت استثارة للانطباع أو للفكرة الأخرى .

وثالث هذه القوانين أن الشدة الكبرى فى أحد الانطباعين أو فى كليهما تتكافأ فى جعلهما قابلين للاستثارة ، أحدهما بواسطة الآخر ، من حيث اطرادهما اطرادا أكبر فى الوصل (٢) .

ولابد أن تتوالد قوانين الفكر والشعور المركبة ابتداء من هـــذه القوانين البسيطة ، وعلينا أن نراعى ان الأمر لا يجرى دائما على منوال واحد فى تكوين الأسباب ، وليس أثر الأسباب المتلازمة هو على التحديد مجموع تلك الأسباب حينما تكون متباعدة أو حتى دائما من نفس نوعها ، اذ تشبه قوانين ظاهرة العقل القوانين الآلية أحيانا ، وأحيانا أيضا قوانين الكيمياء (٣) . ويعد توالد أحد أصناف الظواهر العقلية من صنف آخر حيثما أمكن ذلك حقيقة هامة فى الكيمياء النفسية (٤) . وتسود قوانين التداعى العامة كل الحالات العقلية المعقدة على نحو ما تسود الحالات

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥٧ (أ) .
(٢) المرجع السابق ص ٥٥٧ (ب) .
(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨ (أ) .
(٤) المرجع نفسه ص ٥٥٩ (أ) .

العقلية البسيطة (١) . فالرغبة والانفعال والفكرة من الطبقة العالية فى التجريد .. بل واحكامنا وارادتنا حينما تصبح عادات ـ كل هـــذه يستدعيها التداعى تماما وفقا للقوانين نفسها ، شأنها شـــأن أفكارنا البسيطة .

ويختلط كل من الملاحظة والاستدلال أحدهما بالآخر اختلاطا قويا متلاحما فى كل فعل من أفعال قوانا الادراكية تقريبا ، وما نلاحظه انما هو نتيجة مركبة ، عشرها ملاحظة وتسعة أعشارها استدلال (٢) .

قد أسمع صـــوت رجل مثلا ، ويعد هذا السمع ادراكا مباشرا . وسماع الصوت بلا شك ادراك مباشر ، أما أن يكون الصوت صوتا بشريا وصوت رجل فهذا أدخل فى باب الاستدلال ، ولاعتيادى مثل هـــذه الاحساسات حينما يحدث ترتيب معين فى الأشياء الخارجية بالنسبة الى أعضائى البدنية أستجيب فى التو بحكم العادة عند وقوع التجربة الحسية مستدلا على وجود تلك الحالة المعينة الخاصة بالأشياء الخارجية . وقد بلغت هذه العادة من القوة بحيث أصبح الاستدلال يتم بسرعة الأفعال الغريزية ووثوقها وبحيث صار المزج بين الادراك والاستدلال مستمرا ، ولا نحصل بالتجربة وحدها على التعميمات الاستقرائية ، اذ تمتد الملاحظة فقط الى الاحساسات التى نتعرف بهـــا على الأشياء ، أما العبارات والقضايا التى نستخدمها سواء فى العلم أو فى الحياة العامة فتنتمى غالبا الى الأشياء ذاتها . وفى كل فعل مما نطلق عليه أسم الملاحظة ـ يوجد على الأقل استدلال واحد ابتداء من الاحساسات حتى حضور الشىء (٣) .

ويتكون منطق الملاحظة فقط من القدرة على التمييز الصحيح بين ما تم ادراكه حقا وبين ما تم الاستدلال عليه من الادراك كنتيجة للملاحظة . وعندما نستبعد كل عناصر الاستدلال تتبقى فى المكان الأول مشاعر العقل الخاصة به أو حالات الوعى ، ونعنى بها المشاعر والاحساسات الخارجية والمشاعر الداخلية ، وهى الأفكار والانفعالات والارادات (٤) .

ويتعلق الادراك عادة بشىء واحد فردى فقط ، ولكن وصف هـــذا الشىء انما هو اثبات علاقة بينه وبين كل شىء آخر دل عليه أو تضمنه اى لفظ من ألفاظ التعبير . وحينما أحاول وصف احساسى بالرؤية بأن

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٥٩ (ب) .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٠ (أ) .
(٣) المرجع نفسه ص ٤٢١ (أ) .
(٤) المرجع نفسه ص ٤٢١ (ب) .

اقول « أرى شيئا أبيض » فانني لا أثبت احساسى فقط .. انني أضعه أيضا في احدى الفئات . انني اثبت شبها بين الشيء الذى أراه وجميع الأشياء التى اعتدت أنا وغيرى أن ندعوها بيضاء . وأؤكد أن هـذا الشيء يشبه تلك الأشياء من حيث يشبه كل الآخر وفى هذا الشيء الذى يقوم كأساس لتسميتها كلهـا بذلك الاسم . وسـواء أردت تسجيل ملاحظتى للاستخدام فى المستقبل أو تسجيلها لفائدة الآخرين فلابد أن أثبت تشابها بين الواقعة التى لاحظتها وبين شيء آخر ؛ ولهذا فمن طبيعة الوصف ذاته أن يكون حكما بالتشابه أو بالأشباه (١) .

ويبدأ كل برهان كذلك باستدلال مؤقت ؛ اذ يوحى الينا حضور شيء مثل (س) بفكرة أن هذا الشيء يملك خاصية غير مرئية هى (ص) ، وها هنا فعل بسيط تلقائى لاينجم عن ذكرى علاقات مشابهة معلومة سلفا، وانما عن تأثير هذه التجارب السابقة على تداعى الأفكار وحسب ؛ وغالبا فى مجرى حياتنا العادية تكفينا النتيجة على هذا النحو ، وننتقل من ثم الى موضوعات أخرى ..

أما اذا ثار الشك فى قلوبنا حول موضوع النتيجة التلقائية فانني ألجأ الى الصيغة العامة التى تركز الحالات التى سبقت ملاحظتها عن العلاقات بين (س) ، (ص) ؛ وعندئذ أقرر أن العلاقة الجزئية التى خضعت لملاحظتى ولاستدلالى الحاليين شبيهة بتلك العلاقات العامة ، وأستنتج منها أن العلاقة الجزئية صحيحة ، وهكذا يكون البرهان اذن انشـاء علاقة محددة عن طريق المقارنة بعلاقات محددة سلفا (٢) .

ومما تقدم نستطيع أن نلمس الى أى حد لم يكن مل على درجة كبيرة من الأصالة فى تفكيره النفسى : لقد حاول أن يبرر هذا التفكير النفسى وفقـا لمبدأ من المبادىء ، وكان هـذا المبدأ هو التداعى (Association) وعلى الرغم من تعلق مل بهذا المبدأ فليس من الضرورى أن ننظر اليه كواحد من أساتذة مذهب التداعى الكبار (٣) . وقد حاول بولدوين دائما

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٢٢ (أ) .

(٢) لوى ليار : المناطقة الانجليز ص ٣٢ — ٣٣ (باريس ١٨٧٨) وراجع المقالة عن مل أيضا المنطق الانجليزى الجديد بالألمانية

Louis Liard : Les Logiciens Anglais (Paris 1878)

Die Neuere Englische Logik (Mill — Berlin 1880)

(٣) بولدوين : قاموس الفلسفة وعلم النفس (مادة مل) .

Baldwin : Dictionary of Philosophy and of Psychology (mill). Psychology

راجع كذلك كتابه عن « علم النفس » لندن سنة ١٩١٣

فى كل كتاباته عن جون استيوارت مل أن يهمله وأن يغفله اطلاقا أو أن يذكره خلال ملاحظة بسيطة لا تعطيه قدرا كبيرا ، ولم يشأ بولدوين أن يتحدث باحترام عن مل الا عندما شاء أن يذكره بوصفه أحد المناطقة الحقيقيين مع تخصيص كلمة « الحقيقيين » عندما يتعلق وصفه بهـــا بوضعها بين قوسين .

وقد يكون ذلك كله صحيحا فيما يتعلق بجون استيوارت مل كعالم بالمنطق وبعلم النفس .

على أن تقدير علم النفس عند مل يتوقف على دراسة مشكلة العقل فى مفهوم علم النفس لديه دراسة مستفيضة واضحة ، وكما رأينا فى الصفحات السالفة حاول مل أن يستبقى فى الاستدلال بعد تصفيته من عناصره المنطقية كل المشاعر النفسية التى تختفى عادة وراءه (١) .

ومعلوم أن علم النفس عند مل جزء من Psychology of Association نظرية التداعى وأقرب اليها منه الى أى باب آخر من علوم النفس . وتفسير نظرية التداعى على الخصوص عند مل الفعل العقلى . فهذا الفعل يكشف عن كل آلية الفكر أو على الأصح بما يمكن تسميته « بحالات العقل » لأن المنطق لا يتعلق بالأفعال العقلية ذاتها وانما بنتائج الفهم (٢) . وقوانين الفكر هى الظروف الخاصة بموضوع الادراك ، وانكارها انكار لامكانية الفكر ذاته (٣) . وبهذا يحتمى مل من الوقوع فى المادية البحتة من جهة كما يتحاشى البقاء فى دائرة علم النفس الخالص من جهة أخرى ، ولكن هذه الثنائية ذاتها هى التى أدت به الى الوقوع فى المثالية حينا ، وفى الذاتية حينا آخر .

وتنبه برجسون الى ذلك الوضع حينما أشار الى أن الذات أو النفس ليست الا علامة أو رمزا يستدعى به الحس البدائى المختلط الذى يخلق موضوع علم النفس ، وهذا هو ما ينبغى أن يأخذ به عالم النفس على أرض علم النفس ، فالنفس ليست بهذا الا اسما أو لفظا ، وينشأ الخطأ الأكبر من الاعتقاد بامكان العثور على شىء وراء الاسم أو اللفظ مع البقاء على ارض علم النفس نفسها . وكانت هذه غلطة هؤلاء الفلاسفة الذين لم يكتفوا بأن يكونوا علمـــاء نفس فى حقل علم النفس كما يقول برجسون ــ وتين ، ومل من هؤلاء العلماء ــ فقد استخدموا منهجا جعلهم فى زمرة

---

(١) راجع السطر ٢٠ ــ ٢٥ ص ٤٧ فيما سبق ، فقد أبقى مل على المشاعر النفسية فى الاستدلال نتيجة ابقائه على الحادثة أو الواقعة الجزئية التى ترتب ظهوره عليها .

(٢) لوى ليار : المناطقة الانجليز ص ٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ . وانظر هامش (٣) ص (٤٥) مما سبق .

علماء النفس ، ولكنهم ظلوا برغم ذلك أصحاب ميتافيزيقا بحكم الموضوع الذى أرادوا تحقيقه أو الهدف الذى شاءوا بلوغه (١) .

وتعد نظرية الاستقراء أهم اضافة أتى بها مل فى منطقه الجديد . وهى برغم ذلك تنبنى على مذهب فى السببية مغاير للمذاهب الحسية لأنها تخفى وراءها اعتقادا . وكما يقول دوجلاس تهتم الفلسفة بالمناهج اهتماما أكبر من اهتمامها بالنتائج (٢) . أى أن المقدمات استرعت انتباه مل أكثر من النتائج وقد استخدم مل مفهوما للعلاقة السببية لا بوصفها تسلسلا للأفكار ، ولكن بوصفها اعتماد حقيقة على حقيقة اعتمادا غير مشروط .

ومعنى ذلك أن المعرفة ليست مجرد توال فى الأفكار .

وحين يعترف مل بالنفس أو بالذات لا بوصفها هى نفسها حالات عابرة من « الوعى » أو كشىء آخر سوى الحالات الشعورية العابرة فانه يتنكر كحقيقة أن المعرفة لا تعدو أن تكون تواليا فى الأفكار (٣) . وهى الحقيقة التى سبق أن أيدها .

وهكذا نجد جملة لقطات مثالية فى فلسفة مل كما يقول دوجلاس .. لقطات مثالية فى روحها وفى مزاجها (٤) . ومن الصحيح أن عناصر المثالية فى تفكير مل كامنة فى وجهة نظره فعلا وأصيلة فى مذهبه ، بل لهذه العناصر دلالة كبيرة فى تاريخ التجريبية ، وتأتى أهميتها خاصة من أنها تطورت ونمت فى قلب التجريبية وفى صميم التقدم الذى حدث فى العلوم الوضعية (٥) .

ولاحظ فيرى أن مل استعاد المحافظة على خط سير التفكير الذهنى فى مشاكل المعرفة وفى مسائل الادراك الحسى . ذلك أن والده جيمس مل كان قد جنح نحو تفسيرات آلية بعض الشىء فى شرح طبيعة الوقائع النفسية وحرص على التمسك بمبدأ الأخذ بالأبسط ومبدأ قياس التعادل وتقدير الملابسات المتشابهة ووضعها موضع القوانين . فأتى مل بجديد حين أعاد الى الوقائع النفسية حيويتها الايجابية . وعارض بذلك

---

(١) برجسون : الفكر والمتحرك ص ١٩٣

Henri Bergson La Pensée et Le Mouvant — 22ème éd.

(٢) شارلز دوجلاس : جون استيوارت مل ص ٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٨ .

سلبية الانطباعات الادراكية لدى والده وأصر من جديد على موقف أصيل اشتهرت به الفلسفات الانجليزية الاسكتلندية . أى أن مل فسر الوعى الحسى تفسيرا لا يتنكر تنكرا كليا لموقف تقليدى معروف فى تاريخ الفلسفة البريطانية لدى القائلين بايجابية الحس الادراكى الى حد ما فى داخل الوعى .

ويرى « فيرى » اذن أن مل بقى مخلصا للتراث وللتقاليد الأسكتلندية عمل مل على أبعاد اجراءات التعادل والتبسيط التى أرجع والده جيمس مل كل الوقائع النفسية الى صور الحس والشعور بناء عليها ، ثم أنشأ على هذه الوقائع من جديد تلك الحيوية الايجابية التى لم تكن تتميز فى مذهب والده من السلبية الا اسما فقط ، وهذا الجانب الأساسى فى طبيعتنا أعنى تلك الحيوية الايجابية هى التى التقطها جونسون مرة ثانية فى العواطف والانفعالات على صورة خاصة من الرغبة والكراهية ومن الارادة فضلا عن تمسكه بها فى الوقائع الذهنية وبخاصة فى الانتباه والتجريد والتصنيف وفى فهم التصورات على نحو عام (١) .

ويؤكد فيرى الطابع الذهني فى علم نفس التداعى عند مل . لقد ظل التداعى قانون العقل الكلى لدى مل كما كان لدى والده ، غير أن وجهة نظر التداعى مزدوجة عند مل تماما كما يكون النمو العقلى ذاته ايجابيا وسلبيا تلقائيا واراديا على التوالى ، ويوافق مل على اعطاء الارادة وظيفة تحديد الانتباه وتثبيته على الأفكار وزيادة تركيز الأفكار نفسها تحت تأثير قوة الانتباه . وكما يقول لوسكي : « يهتم علم نفس المعرفة بالمنحى الذاتى للمعرفة ، أى بأفعال المعرفة وبالنشاط الخاص بالانتباه وبالتمييز وبالادراك » وبالتعرف الى آخر ذلك ، ثم باعتماد كل أولئك على عمليات غير ذهنية للشعور والارادة (٢) .

ويعد موضوع علم نفس المعرفة على الخصوص مظهرا عقليا وفرديا للمعرفة . وتظل من ثم مسألة اعتماد المظاهر الذهنية على المظاهر الأخرى غير الذهنية مثل الشعور والارادة ذات أهمية ملحوظة ، وذلك

---

(١) فيرى : علم نفس التداعى ص ٩٥
Ferri : Psychologie de L'Association (1883)

بل ويمكن مقارنة معنى التحليل لدى جونسون بمعناه لدى مل فى كتاب جونسون عن المنطق ــ الجزء الأول ص ١٠٤ ــ ١١٢
Johnson : Logic — Vol. I.

(٢) نيكولاس لوسكى : مقدمة معرفية الى المنطق . ص ١٨ (١٩٣٩)
Nicholas Lossky : An Epistemological Introduction Into Logic.

لان علم نفس الفكر لا يمثل القدرة على ضمان خط سير العمليات الذهنية بوساطة الأدلة الصورية أو بوساطة الحقائق الحاضرة حضورا موضوعيا . وانما هو الشعور بالضرورة التى تلزم الفكر السماح بما يترتب علي أمر من الأمور (١) .

فليس غريبا أن نرى مل يفترض أولا أن الوقائع العقلية على ظواهر ليست عقلية بالذات ، اذ تولد تصوراتنا أو مدركاتنا العقلية كلها فى نظر مل من التجربة ؛ وعلى ذلك تكون وظيفتها مستندة الى وظائف متوالية ومتشابكة فى الانتباه وفى التجريد وفى المقارنة وفى التوالد أو التصنيف واخيرا فى اللغة .

غير أنه لا يكفى أن نعترف بقوانين التداعى ، وحينما نتساءل عن السر فى قوة الالتحام والتوافق فى حالات « الوعى » أو « الشعور » سنجد لدينا عنصرين أساسيين : التكرار والاهتمام ، فأكبر عامل من عوامل التفكك أو المتانة فى تداعيات الأفكار انما هو عامل الاطراد أو التكرار لمدركاتنا ، أما ما من شأنه أن يزيد من قوة التماسك والالتحام فى حالات الشعور فهو الاهتمام الذى نوليه هذه الحالات ، ويمكن أن ينشيء تداعى فكرتين متحدتين مرة واحدة رباطا قويا فيما بينهما بفضل الاهتمام (٢) . اذ أن ما يهمنا بقوة يحصل منا على انتباه شديد .

وهكذا تعتمد وقائع الفكر على وقائع غير ذهنية ؛ اذ أن تداعى الأفكار أو الظواهر الذهنية هو تداعي الوقائع النفسية أو الوقائع الشعورية ، وهنا نضع يدنا على أحد الملامح الرئيسية لعلم نفس التداعى وعند مل بخاصة ؛ فالشعور بالضرورة هو ثمرة اللوازم الموضوعية ؛ وقوانين التداعى لها صفة الكلية وتتحكم فى نظام حالات الوعى كلها ، وهى تؤدى فى عالم الروح الدور الذى تؤديه الجاذبية فى العالم الأرضى . ومن رأى مل أن التداعى هو نفسه الفلسفة الكفيلة بتفسير كل الظواهر العقلية ، ولا يقف تأثير التداعى عند حد انتاج الحالات الشعورية ، وانما يمتد نفوذه الى مجال العقل بأكمله ، ويوجد فى أصل جميع أفكارنا ومبادئنا ومعتقداتنا (٣) .

---

(١) ادامسون : تطور الفلسفة الحديثة ص ٣٦ (المجلد الثانى ــ الجزء الثانى (ب) علم نفس الفكر).

Adamson : Development of Modern Philosophy Vol. II — IIème partie, B. La Psychologie de la pensée.

(٢) مل : فلسفة هاملتون ص ٣١٤ (طبعة فرنسية) .

(٣) مل : فلسفة هاملتون ص ٧٨ ــ ٧٩ (طبعة فرنسية) .

وقد أيد أنريكيز Enriquès هذا الموقف الى حد بعيد حين أشار الى أن تحليل عمليات الفكر سيؤدى فيما بعد الى تفسير العلاقات المنطقية نفسيا بوصفها تعبيرات عن التداعى والتفكيك المفترض حدوثهما بين الأشياء (١). وأنريكيز نفسه أحد الموالين للنفسانية المنطقية وللنفسانية العلمية فى أوائل هذا القرن ، واستعاد مجدها القديم قبل أن تبلغ خاتمتهـــا على يد هوسرل ، وقبل أن يشيع نقد هوسرل ويصبح معروفا فى أوساط الفـــكر الحديث ؛ اذ يقول بايمان تام : ان تحليله جعله مقتنعا بأن النمو النفسى ذو أسباب متغلغلة ترتبط ببناء العقل البشرى ذاته (٢) .

وعلق برتراند رسل على موقف علمـاء النفس من الاهتمـــام بربط التداعى بالموضوعات أو الأشياء الخارجية بقوله : ان علماء النفس التقليديين كانوا ينتمون الى نزعتين ظاهرتين ؛ ويقبل أصحاب النزعة الأولى ظواهر العقل ببراءة وبسذاجة كما هو الحال تماما فى المستوى الخاص بالظواهر الطبيعية نفسه ، وهؤلاء لا يلحون كثيرا على أهمية الوجود الشيئى الخارجى أو وجود الشىء كما يقول برتراند رسل (٣)،أما الذين يمثلون النزعة الثانية فيبرزون أهمية وجودنا فى العالم الذى نستشعره ، وتصبح المعرفة فى نظرهم واقعة ، ويهمهم العقل بخاصة بسبب روابطه بالعالم .

ويذكر رسل برنتانو بين ممثلى النزعة الثانية، وقد تلقى آراء برنتانو عدد كبير من المؤلفين والمهتمين بشئون المعرفة والفكر والعلوم ، وهو فى الواقع أبرز شخصية أيدت النفسانية المنطقية على الاطلاق وسار فى أثره كثيرون من الباحثين . وانضم اليه كل من مينونج Meinong وهوسرل Husserl ، وبقى هوسرل فترة طويلة متأثرا بآرائه ، واعتقد أن محتوى أية تجربة عقلية لا يعدو أن يكون ظاهرة طبيعية تنزع قصدا الى أن يشار اليها وتهدف الى أن تصير موضوعا. وعلم النفس عنـــده ذو موقف معين معروف فى تاريخ الفكر الفلسفى حيال « الأفعال » و « الاحالات المتبادلة القصدية » (٤) .

---

(١) انريكيز (فيديريجو) : مشاكل العلم والمنطق ص ١٧٠ .

Enriqués (Federigo) : Les problemes de la Science et de la Logique

(٢) انريكيز : تصورات العلم الأساسية ص ٤ .

Les concepts fondamentaux de la Science (leur signification réelle et leur acquisition psychologique) Paris 1919 — trad. Louis Rougier.

(٣) برتراند رسل : تحليل العقل ص ١٣ ــ ١٤ سنة ١٩٢٦ .

(٤) فرانتس برنتانو : علم النفس من وجهة النظر التجريبية

Franz Brentano : Psychologie von empirischen Standpunkt

ويعترض رسل على نظرية الأفعال وخاصة عند مينونج بأن الفعل The Act خال من أية ضرورة ، وأنه لا يعدو أن يكون خيالا بحتا ، ولا يجد رسل أى شىء يمكن أن يكون مقابلا لما نسميه عادة عند مينونج واضرابه بالفعل من الناحية التجريبية (١) .

ويدخل مل فى زمرة ممثلى النزعة الأولى فى التقسيم الذى وضعه رسل ؛ اذ أنه كان يحس مقدما بهذه الصعوبة أو بهذا الاشكال كما وصفه رسل . ويدخل هاملتون الى حد ما فى زمرة ممثلى النزعة الثانية ويتعرض لمشاكل مشابهة ؛ فالشعور أو الوعى عند هاملتون هو تعرف العقل على أفعاله أو عواطفه . ولكن لا يوجد الفعل المعرفى ، ولا يكون ما هو عليه فى نظر هاملتون الا بالنسبة الى الشىء الخاص به ، وحينما نشعر بعملياتنا العقلية التى تتعلق بالأشياء الخارجية نشعر بتلك الأشياء كما يقول هاملتون ، وعندئذ لا يكون الشعور أو الوعى فى هذه الحالة كما يستخلص مل مجرد النفس أو الذات وتحولاتها ، بل يكون أيضا ما هو خارج عن مجال النفس .

ومن الواضح اذن أن هاملتون يعرف الشعور أو الوعى بوصفه المعرفة المباشرة ، ويقول هاملتون فعلا صراحة : ان الشعور والمعرفة المباشرة يمكن أن يحل كل منهما محل الآخر تماما . واذا كانت هناك معرفة مباشرة بالأشياء الخارجية فلا شك فى وجود شعور بالعالم الخارجى من ثم ؛ وعندئذ سيفكر مل تفكيرا جديا قبل كل شىء فى البحث عن قواعد متينة ومباشرة لمجموع الأشياء الخارجية بحيث يمكنه بعد ذلك أن يضمنها الخصائص التى يطلق عليها صفة المباشرة ، ولكنه سيصل الى حد الاعتقاد بأن المعارف التى توصف بأنها مباشرة لا تحمل تجريبيا تلك الضرورة التى لا غنى عنها من أجل اقامة نظرية اتساق منطقى ، وهذا ما سيقول به رسل فى نقده للتداعى كما سبق أن أشرنا،لكنه من المؤكد أننا نتلقى المعرفة من الحس الذى يخضع بدوره لقوانين التداعى . واذا كانت قوانين التداعى قادرة على أن تنتج شيئا فى طبيعتنا فالشعور الذى تخلقه فى طبيعتنا انما هو بلا شك شعور بالضرورة (٢) .

ونحن نتعرف مباشرة على هذا الشعور داخل الوعى أو الشعور بالنسبة الى تناسق الطبيعة ، ومن هذه المعرفة المباشرة الضرورية يمكننا أن نذهب

---

(١) رسل : تحليل العقل ص ١٧ Russell : Analyse de l'Esprit

(٢) مل : فلسفة هاملتون ص ٣١٤ (طبعة فرنسية) .

بالتحليل الاستدلالى الى الشعور الكيفى أو الى العديد من ضروب الشعور الكيفى (١) .

وقد تعرضت علوم النفس لمشكلة عويصة دائما وهى : هل لدينا معرفة مباشرة بالأشياء المادية أو لا ؟ ولقد أعطى هاملتون الشعور تعريفين يلخصان موقفه فى الاجابة عن هذا السؤال : فى التعريف الأول يكون الشعور مرادفا للمعرفة المباشرة الحسية ، ونحن نحصل على الشعور لا بأنفسنا فقط ، ولكن بالأشياء المادية ذاتها طالما أننا نشعر بها بالحس المباشر على حـــد تعبيره ؛ أما التعريف الآخر فيقول : ان الشعور هو تعرف العقل على أفعاله وعلى عواطفه الخاصة . وعندما أراد مل أن يوفق بين التعريفين فسر كلام هاملتون على أساس أنه أراد أن يقول : ان الشعور هو معرفة العقل لأفعاله وعواطفه الخاصة ، وفى الوقت نفسه لكل ما تحتويه وتتضمنه (٢) .

وهنا يتعارض مل مع هاملتون بوضوح كامل ؛ لأنه كان يمكن بالنسبة الى مل أن يضع نفسه فى وصف هاملتون فيما يتعلق بالتعريف الذى ينص على أن : «الشعور هو تعرف العقل على أفعاله وعلى عواطفه الخاصة » . كان يمكن مل أن يقف فى جانب هذا التعريف مع بعض التحفظ فيما يتعلق بطبيعة الأفعال ، اذ أن هاملتون يأخذ تعرف العقل على أفعاله وعواطفه على أنه ليس شيئا آخر سوى الأفعال والعواطف نفسها . ويمكن من ثم الاعتقاد بأن هاملتون ــ على حسب تعريفه السابق ــ يظن أن الشعور ليس هو نفس واقعة التعرف أو الاحساس ، بل الشعور فى رأيه عملية لاحقة نحيط عن طريقها علما بهذه الواقعة .

ولكن ليس هذا رأى هاملتون ، انه على الأخص رأى مل نفسه ، اذ يلجأ مل أولا وقبل كل شىء الى قانون عام يحكم العقل الذى يمكن التعرف عليه مباشرة ، ويفرض هذا القانون بالذات نفسه على الحس ، ويضمن دلالته بالنسبة الى الصفات المدركة بدون حاجة الى تضمين الأشياء : « اذا أمكننا أن نشعر بعملية دون أن نشعر بالشىء الخاص بها فلن تنقلب بسبب ذلك على الأقل حقيقة العالم الخارجى » (٣) .

فالشعور باحدى العمليات ليس بالضرورة شعورا بموضوع العملية أو بالشىء الخاص بهذه العملية (٤) ، اذ تجعلنا التجربة كل يوم نرى بعض

---

(١) الشعور الكيفى أو الفزيائى هو الذى يتعلق بالمنحى العام للشىء الخارجى ، أو هو ما لا يمكن تحويله الى صفات كمية محددة كما هو الحال فى الحياة العاطفية .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٤ .

(٣) مل : فلسفة هاملتون ص ١٤١ .

(٤) يعنى مل هنا بالعملية ما كان يسمى بالفعل فى علم النفس لأنه يفضل كلمة عملية على كلمة فعل . انظر الفقرة التالية .

المعتقدات التى لا تقبل الانكار وبعض الحقائق الموثوق بها المؤسسة على بعض المشاعر الحادة الشديدة تتعارض مع الجهل الأكمل بالنسبة الى الشيء موضوع الاعتقاد ، ولكن ليس بلا شك بالنسبة الى الجهل الخاص بالاعتقاد نفسه . وصحيح أن المعرفة موضـوعها الأشـياء ، ولكننا لا نعرف الأشياء الا عن طريق خواصها ، وتتكون معرفتنا لأى شيء من معرفتنا بعدد ما من خواصه التى يمكن التعبير عن كل منها فى قضية . وحينما يقال اننا نعرف شيئا يراد بذلك القول أنه اما أننا نعرفه كبعض ما يتميز بخصائص معينة ، أو أننا نعرفه هو وخصائصه معا كموجودات ؛ وهكذا فاننا حين لا نعرف شيئا ويكون لدينا برغم ذلك اعتقاد بشأنه فاننا نعتقد اما أنه يملك خصائص معينة أو أنه موجود ؛ وهذا هو معنى الاعتقاد بشأن شيء ما . وعندما يتعلق الأمر بالخصائص يكون موضوع الاعتقـاد قضية . وعندئذ يكون هو موضوع المعرفة ، ولـكن عندما يتعلق الأمر بالوجود يكون موضوع المعرفة شيئا ما ، وعندئذ يكون هو موضـوع الاعتقاد . وقد أيد مانسل Mansel عند تعبيره عن هذه الآراء موقفـا أفاض جون استيوارت مل فى امتداح دقته .

وفيما يتعلق بمعرفتنا المباشرة لموضوعات المعرفة من الأشياء الخارجية لا نستطيع أن نحكم بأننا نحصل على معرفة مباشرة بالأشياء الخارجيـة نفسها ؛ ولذلك كان مل غير قادر على أن يؤيد سوى قول واحد هو أن معرفة عملية ما تنطوى بالضرورة على معرفة بالشيء موضوع هذه المعرفة ، وهو يفضل كلمة عملية على كلمة الأفعال ، ولم يكن يمكنه أن يدرك هذه العملية منفصلة عن دلالتها الخارجية ؛ فالعملية التى تحمل الى صفة ما هى هى تلك التى تجعلنى أحس بتلك الصفة .

ولهذا يشيد مل اشادة كبيرة بملاحظة توصل اليها هاملتون وعلق عليها والده جيمس مل تعليقا بارعا : اذ أن اختـلاف الأسماء لا يعنى اختلاف الأشياء ، وانما يعنى اختلافا فى العلاقة الجزئية التى يدخل فيها شيء ما . « فالاحساس وأن يكون لدى المرء احساس ليسا شيئين ؛ انهما شيء واحد ذو اسمين وعندما يخزنى دبوس لا يكون ثمة سوى احساس واحد، ولكننى أملك القدرة على تسميته احساسا أو انطباعا أو ألما كما أشاء، وعلى ذلك عندما يكون لدى احساس وأقول انى أحس الاحساس أستخدم تعبير تحصيل حاصل ، اذ ليس أن يكون ثمة احساس ـ شيئا وأن نحس شيئا آخر : فأن يكون ثمة احساس هو نفسه أن يحس المرء، وامتلاك الشعور

هو أن نكون شاعرين ، وأن نكون شاعرين هو هو امتلاك الشعور » (١) .

وينطبق التفسير نفسه على الأفكار وان كنا سنملك ها هنا فـــكرة متميزة :

ليس امتلاك الفكرة والاحساس بامتلاك هذه الفكرة شيئين ؛ انهمـا نفس الشيء الواحد ؛ فالشعور والوعى كلمتان تعبران عن شيء بعينه ، وكان ذا أهمية بالغة بالنسبة الى الفعل المنطقى فى التسمية ألا يكون لدينا أسماء نميز بها اختلاف الفئات أو الأصناف عن انطباعاتنا فقط ، ولكن أن يكون لدينا أيضا اسم ينطبق بالتساوى على كل الفئات أو الأصناف . وقد أرضينا هذه الحاجة بكلمة « واعين » وبالكلمة المجردة « الوعى » ؛ وبذلك اذا أحسسنا على أى نحو كان ، أى عندما يكون لدينا مشاعر على أى نحو كان تخص الكائن الحى ـ تنطبق كلمة « واعين » علينا نحن الذين نحس وكلمة « الوعى » على فعل الاحساس ، أى أن الكلمات انما هى رموز نوعية تستوعب كل أسماء الفئات أو الأصناف الاضافية للمشاعر ذات الطابع الحسى ، وعندما أشم عبير الوردة أكون واعيا (٢) .

أما فيما يخص علم نفس التداعى فهذا الشعور أو هذا الوعى سيخضع لقوانين العقـــل ، ويعنى مل بقوانين العقل قوانين الظواهر العقليـــة والانطباعات أو حالات الشعور المختلفة للكائنات على الخصوص ، ولكن الاحساسات هى أيضا حالات للعقل مثل الأفكار والانفعالات والارادات ، وتشتمل المشاعر المختلفة أو حالات الشعور الخاصة بالكائنات ذات الحس على أفكار وانفعالات وارادات واحساسات (٣) .

وفى رأى مل أننا لا ندرك ادراكا مباشرا سوى حالات الشـــعور ، ويستحيل من ثم أن نبلغ المعطيات الخارجية التى ترد الى الشعور أو الوعى ؛ اذ أن القانون الذى تخضع له الأشياء الخارجية مستخدما الجسد ينتمى الى علم الطبيعة ، أما القانون الذى يسيطر على عالم العقل فهو من دائرة علم النفس الخالص ، وفى عالم العقل تنتج جميع الحالات مبـــاشرة على السواء عن حالات أخرى للعقل فلها معالم مبـــاشرة تتقدمها من حالات

---

(١) جميس مل : تحليل العقل البشرى الجزء الأول ص ١٧٠ ـ ١٧٢ وفلسفة هاملتون لجون استيوارت مل ص ٣٥ الطبعة الانجليزية

James Mill : Analysis of Human Mind J.—S. Mill; Philosophy of Hamilton

(٢) مل : فلسفة هاملتون ص ١٣٦ (الطبعة الانجليزية) .

(٣) جون استيوارت مل : المنطق جزء ثان طبعة فرنسية ص ٤٣٣ .

الجسد • وبعبارة موجزة : اذا نتجت حالة عقلية مباشرة عن حالة جسدية فهى تنتمى الى علوم الطبيعة • وبما أن الحياة النفسية مشروطة بالحياة العضوية فلماذا تفلت من قوانينها على حد تعبير بياجيه ؟ (١) الواقع أن موضوع علم النفس هو وقائع الشعور وأسبابها المباشرة وقانونها ، انه يحتوى ذلك كله •

ونعبر عن ذلك بلغة علم النفس فنقول : ان العالم الخارجى يتلخص فى امكانية دائمة للاحساس ، هذا على حين أن الشعور هو المعرفة الحدسية التى تكون أساس حالاتنا العقلية التى لا تتوافر الا فى الشعور وبالشعور ، فان يكون لدى المرء فكرة أو احساس انما هو فى الحقيقة شعور بفكرة أو باحساس (٢) • وبرغم ذلك اذا استقرت نظرية الشعور والادراك الخارجى كأساس لكل علم نفس فستكون نظرية السبب مفتاحا لكل فلسفة (٣) • فالتركيز على فكرة الاحساس بالاحساس فى علم النفس يؤدى الى ربط علم النفس بفلسفة السببية •

وينبغى أن تتضح كل الأفكار الأساسية كالزمان والمكان والسببية والجوهر بوصفها مجرد مفهومات (٤) ناتجة عن أفكار الحواس بوساطة قانون التداعى المعروف ، وتحيل وجهة نظر مل فى التداعى القـــانون الى تتابع منتظم • ويكون كل ما نسميه حقيقيا دائما ممتدا وكل ما ينتمى الى العالم الطبيعى ولا يشغل مكانا فى الأنا (Ego) صورة مطبوعة من قوانين التداعى المعروفة على الأفكار المأخوذة من التجربة . وعنـــدئذ يتحول العقل فى هذه الحالة الى امكانية دائمة للحس محتوية على مشاعر داخلية وأفكار وانفعالات الخ . . وعلى احساسات حواسنا الخارجية (٥).

والأفكار انما هى أفكار عن المحسوسات التى يمكن أن توجد والتى

---

(١) جان بياجيـــه : السببية الفزيائية عنـــد الطفل ص ٣٩ باريس ١٩٢٧!
Jean Piaget : La causalité physique chez l'enfant. Paris 1927

(٢) راجع الفصـــل الثانى من فلسفة هاملتون ، والمقصـــود هنا قصر الفكر أو الاحساس على ما نطلق عليه Reflexion وترجمتها التأمل أو الاحساس بالاحساس . .

(٣) ريبو : علم النفس الانجليزى : ص ١٢٧ باريس ١٨٨١ .
Ribot (Th.) : La Psychologie Anglaise — 1881.

(٤) مفهومات أية عمليات خاصة بالفهم فى مقابل عمليات الخيال وتؤدى الى تكوين تصـــورات . .

(٥) مل : فلسفة هاملتون (الفصل ١٢) .

توجد فقط خارج الشعور الفردى • ويمكننا أن نلحظ رغبة مل فى تحويل مقولات التجربة الأساسية الى عبارات وألفاظ نفسية ، وهكذا يجعل مل من علم النفس علما موضوعه القوانين التى هى أكثر تعميما للطبيعة البشرية ، انها وسيلة العقل الى اضافة أفكاره وجمعها فى ثنائيات أو فى مجموعات تشغل علم نفس التداعى بصورة رئيسية •

ويهمنا هنا أن نتنبه الى نقطة الالتقاء الهامة التى يمثلها الاحساس بوصفه خاصة الشعور الجوهرية بين أحداث الطبيعة وحالات العقل ؛ فما دام الاحساس يخضع بحكم وجوده فى أصل كل الأفكار المعقـــدة لقوانين الطبيعة فلن يكون هناك مبرر لعدم اقامة أوجه شبه كاملة بين القوانين المتتالية فى الطبيعة وقوانين العقل الباطنة • يجب أن يسجل الحس أولا شعورا بالتوافقات المتسقة الجزئية ، وتتكرر هذه التوافقات المتسقة الجزئية على نحو رتيب بحيث يرتسم معنى النظام فى العقل • ويمكن التعرف مع الوقت على وجود التناسق بالنسبة الى وجهتيه : التتالى والمعية • ويوجد هذا النظام بالتأكيد كأصل كل الأفكار ، واذا اختفت هذه الرتابة استحالت اقامة التصورات والمدركات الكلية ، اذا تجدد كل شىء على الدوام لم يكن من الممكن الامساك بأية فكرة أو بأى تصور • بل صار من المستحيل التعرف على أى شىء خصوصا على الرغم من امكان التجربة (١) •

يحسن اذن القول بوجود نظام على صورة تتال أو معية ، وبأن هذا النظام لا غناء عنه من أجل معرفة العالم ، وهذا النظام هو أكثر الأشياء بساطة وأيسرها فى الادراك بالنسبة الى العقـــل الانسانى • ويفرض الاتساق بناء أو هيكلا للاحساس أقل تعقيدا من الصفات عموما • وأسهل شىء انما هو استرجاع الرسوم التخطيطية أو الصور الاجمالية المشتقة من التجربة الداخلية ، ولكن على العكس أيضا أسهل شىء من الوسط الطبيعى فى ترك الآثار أو فى الطبع فوق التجربة الداخلية هو الارتباط الذى يفرضه التكرار الخارجى •

بقدر ما نرتفع الى أصـــول المعرفة نجـــد على الدوام احساسات وحركات ، وعلم النفس كما يقول بياجيه (٢) قد وضع أولا تأكيده على

---

(١) يقول برجسون فى كتابه الفكر والمتحرك ص ١٨٧ : « ان التصـــور يعمم اذ يقوم بالتجربة ، ولا يستطيع التصور أن يرمز الى خاصية معينة الا بأن يحيلها الى شىء مشترك بين ما لا نهاية له من الأشياء » •

(٢) جان بياجيه : السببية الفزيائية عند الطفل ص ٣١٩ •

الاحساسات مما أدى الى الاعتقاد بأن المعرفة لم تكن سوى رد فعل للوسط الخارجى ، ولكن لم يلبث العلم أن تبين أنه لا توجد احساسات بلا حركات وأن المعرفة قد صيغت فى جزء كبير منها من حركات مسجلة أو مخططة . وبمجرد اعترافنا بهذا يجب أن نسمح على الأقل بافتراض تكوين رسوم تخطيطية سلفا عند ظهور المعرفة وبأن لهذه الرسوم التخطيطيـــة دور الصورة المستقلة عن المادة بالنسبة الى تلك المعرفة (١) .

كل ما يهم تأكيده هنا هو أن الفكر يدرك العلاقة بسهولة أكثر مما يدرك الصفة ، وليس الأمر ها هنا أمر سببية بالمعنى الصحيح للكلمة كما هو واضح ، كل ما نود تقريره هو أن الوصل أيسر للادراك من أية صفة من وجهة نظر الشعور أو الوعى • وهنا تحفظ فى هذا الشأن نحب أن نضيفه فى هذه النقطة وهو تحفظ قال به بريدجمان فى كتابه عن منطق الفيزياء الحديثة • قال : ان السهولة التى يدرك بها العقل واقعة خارجية ليست دليلا على بساطة تلك الواقعة فى العالم الطبيعى ، وعلينا أن نلاحظ أن الشىء البسيط انما هو بسيط من حيث علاقته بألفاظ تصوراتنا ؛ فالبسـاطة ذات دلالة فيما يتعلق بنا وفيما يتعلق بآلية عقلنا (٢) .

وليس المطلوب هو أن نعرف : هل الفكر يدرك الكيف بعلاقة ما أو بدون علاقة ما ؟ ذلك أن فكر جون استيوارت مل انما يتجه نحو البحث عن دليل على المباشرة فى الواقعة الخاصة بادراك التوافقات المتسقة ؛ فهذه التوافقات يسيرة جدا للادراك بحيث تأتى فى المرتبة الأولى ، أما الأشياء فمعقدة وأما الكيفيات فصعبة التعريف ، وأما قوانين التوافقات فبدائية ميسرة • وليس أمامنا الا أن نكتشف من ثم : اما التتابع أو التآنى الذى تتضمنه التوافقات خلال الزمن •

وتعتمد الاتساقات Uniformities الخاصة بالتتابع بأكملها على قانون السببية وعلى ما يترتب عليه ، وتنتج أعداد كبيرة من اتساقات التـــآنى بنفس الطريقة التى تنتج بها اتساقات التتابع المجلوبة •

ومما له دلالة كبيرة فى هذا الشأن من وجهة نظر علم النفس أن مل يستثنى من التآنيات السببية التآنيات التى تتم بين الخصائص الأساسية للأشياء ، وهى خصائص بدائية يمكن أن يوجد بينها اتساقات تآن •

---

(١) جان بياجيه : السببية الفزيائية عند الطفل ص ٣١٩ .

(٢) بريدجمان : منطق الفزياء الحديثة ص ٢٠١ .

Bridgman : The logic of Modern physics P. 201.

وهى أيضا أسباب كل الظواهر ، ولكنها لا تنتج اطلاقا عن أية ظاهرة ؛ فهى أصل كل الظواهر ، ولا تصدر هى نفسها عن أية ظاهرة ، ولا يمكن أن نبحث عن سببها الا اذا صعدنا الى أصل كل شىء .

وهكذا نستطيع أن نقول ان Le Phénoménisme psychologique المظهرية النفسية الساذجة لم تعد ذات قيمة لدى مل كما كانت لدى هيوم مثلا . فمل يتعلق بالوقائع ذاتها ، ويذهب مباشرة نحو القوانين ، ولا يمكن ان تصيبه الانتقادات التى وجهت فى هذا المعنى الى هيوم وسنرى فى فصل قادم عن الاستدلال أن السياج الذى أقامه مل حول نسقه المنطقى ، أعنى سياج التحليل التأملى Reflexive قد حماه حماية كبيرة (١) . فهذا التحليل الانعكاسى الذى يقيم اقامة دائمة فى أساس الملاحظة يحول دون الخلط بين التتابعات والتآنيات السببية وبين ما عداها ، ومل هو الذى ذكر أن التابعة الثانية ليست مرادفة للعملية الا كانت التابعة ثابتة وغير شرطية فى آن معا (٢) .

مهما يكن من أمر فان التكرار يعلن عن نفسه بانتظام وبطريقة ظاهرة على نحو من الأنحاء فى العالم الخارجى . والأشياء الأولى التى تبرز فى قلب الوعى أو الشعـــور (٣) والتى تؤثر فى العقل ليست عناصر ذاتية ولكنها وقائع طبيعية . وعلى حد تعبير مل اذا كان ثمة علاقة ولزم أن تكون هذه العلاقة شيئا يتضمن أشياء أخرى عداها وعدا الذات المدركة — فذلك أنها قد تأسست على واقعة تحتوى فقط على الشيئين المرتبطين بعلاقة ؛ فالعلاقة اذن : مشاركة شيئين اثنين فى واقعـــة توحد بينهما وتربطهما ربطا (٤) .

ولكن لا يوجد شىء فيما هو متضمن باحدى الكلمات التى تعبر عن علاقة مما ليس يقبل التحول الى حالات الشعور ، والأشياء الخارجية هى التى تظل على الدوام أسبابا مثيرة لبعض حالات الشعور ، وأبسط العلاقات المثيرة لبعض تلك الحالات الشعورية هى تلك التى يعبر عنها بكلمة سابق ولاحق وبكلمة « آنى » ، وتعد علاقتا التشابه والمغايرة من طبيعة مماثلة .

---

(١) التحليل الفكرى او الانعكاس يسمى فى بعض القواميس التحليل التأملى .

(٢) مل : المنطق جزء أول ص ٣٨١ (الطبعة الفرنسية) .

(٣) انظر كتاب مبادىء علم النفس العـــام للدكتور يوسف مراد فى ترجمة لفظة Consciousness ص ٣٨٥ .

(٤) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ١٢٣ .

ولكن هذه العلاقات جمعاء كما أكدها وأبرزها لوريه تحمل برغم ذلك خاصية جزئية ؛ ذلك أنها لا تقوم على وقائع الشعور ، ولكنها هي نفسها وقائع شعورية ، والتتابع هو في الغالب واقعة طبيعية ، ولكن العقل يكتشفها بمواجهة النفس (أو الذات) للنفس (أو للذات) وليس بمواجهتها للا نفس (أو للا ذوات) (١) ويعرف التشابه مباشرة كالتتابع وكالمعية ، وتلك مشاعر لا تنحل الى ما هو أبسط منها ولا تقبل التفسير . وفي كل مرة تتقدم احساسات أو مشاعر أخرى كمعطيات تصبح هذه الحالات الشعورية شروطا للتحكم في تبديلها وتغييرها . ولا يمكننا أن نؤكد شيئا فيما يتعلق بالعقل في ذاته سوى توالي مشاعره الخاصة ؛ ذلك أن الوقائع كما يقول بروشار ليس يوجد ما يمثلها في العقل عن طريق الوسائط ، وانما تقوم هي نفسها بشئونها الخاصة بها ودون لجوء الى تفويض .

فلا مشاحة اذن في أن القوانين التي تتحكم في عالم العقل لا تقوم الا بعكس القوانين الخارجية ، وسيختص علم النفس الصحيح في نظر بدراسة الوقائع الشعورية ، وبالبحث بين الوقائع عن القوانين التي تشبه أكثر ما تشبه قوانين الطبيعة . وكذلك يجب بالتأكيد أن تكون تلك القوانين مكونة بنفس طريقة تكوين تلك القوانين الطبيعية تماما ، وتختلف نتائج التداعي على نحو ما تختلف أيضا وقائع التناسق الخارجية . uniformité هناك نموذجان للربط يلخصان جميع أنواع الربط : والنموذج الأول هو الربط الآلي والآخر هو الربط الكيميائي ، وسنجدهما أيضا هنالك في تفسير الظاهرات العقلية .

وأكثر النموذجين شيوعا هو النموذج الأول ، ورؤية اللاحق أو التفكير في اللاحق يوقظ فكرة السابق .. والعكس صحيح ، وكذلك توحي فكرة الشيء بفكرة الشيء الذي يعاصره ، وذاك تسلسل مشابه لما يتم بين حلقتين ملتحمتين فيما بينهما أو مرتبطتين بساق مما يمكن تسميته اذن بالترابط الآلي ، أما النموذج الآخر فهو أشبه بالمزج الكيميائي الذي يختلف الناتج منه بخصائصه عن العناصر الداخلة في تكوينه . واذا قمنا بمد ألوان الطيف السبعة على مساحات تتناسب كبرا مع الحيز الذي يشغله كل لون في الطيف نفسه ، وقمنا بتمرير ذلك السطح على نحو ما

(١) ملحوظة : يلاحظ أن اكتشاف العالم الخارجي يتم بطريقة مختلفة . المهم هنا هو التتابع البسيط أو الآني في الخارج .

أعد طلاؤه أمام العينين فى حركة دائرية ـ بدا كل السطح أبيض . وتوجد أمثلة أخرى تدل على استحالة انكار تلك الكيمياء العقلية Rational (١) .

وبهاتين الطريقتين فى التكوين أو التأليف الطبيعى يمكن أن تحسب القوانين الخاصة بالتداعى حساب جميع الظاهرات النفسية ، وتشبه قوانين الظاهرات النفسية أحيانا قوانين الكيمياء . ويسمى قانون الطبيعة الأول فى الديناميكا مبدأ تكوين القوى أو تأليف القوى ، ولا يتحكم هذا القانون فى الطبيعة بأكملها . ويأخذ المزج الكيميائى أيضا مكانه فى مجرى الطبيعة دون أن يكون ذا قوة استدلالية مثل التكوين أو التأليف الآلى ؛ اذ لا يوجد أثر لخصائص الهيدروجين والأكسجين فى ناتج تأليفهما وهو الماء ، وأغلب التوافقات التى تتطابق مع أسبابها فى الكيمياء ، وتصدر عنها تفاعلات منفصلة ـ تختفى كلية عندما تتحد (٢) .

وكذلك فى علم النفس يمكننا أن نقرر من ناحية وجود تأليف بسيط للأسباب عن طريق الجمع حيث يكون ناتج الأسباب مجموع الجهود المنفصلة ومن ناحية أخرى وجود المزج الكيميائى ذى الآثار المنفصلة . وعلينا أن نلاحظ هنا برغم ذلك أن مل يرفض مبدأ التداعى الذى قال به جيمس مل ؛ اذ اعتقد جيمس مل أن نظام حدوث الأفكار يعتمد على نظام الاحساسات الذى يتكيف وفقا للنظام القائم بين الأشياء الطبيعية فقط (٣) . وظن جيمس مل أن أفكارنا اذ تبزغ فى نفس النظام الذى تظهر فيه الاحساسات التى تكون أفكارنا صورا منها .. تتتابع فى وجودها (٤) . ويميز هذا الموقف الآلى جيمس مل من كل من عداه من القائلين بالتداعى وخاصة من ابنه جون استيوارت مل الذى يقول بالمزج الكيميائى . وقد حاول الكثيرون من أصحاب التداعى ما عدا بين وجيمس مل استبعاد النظرية التقليدية بسبب عدم قدرتها على تفسير وقائع الذهن .

وافترض مل هذا المزج الكيميائى الى جانب النظرية القديمة فى التأليف الآلى ، وتلتقى الصعوبة التى أتى بها علم النفس عند جيمس مل برغبته

---

(١) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ٢٨ .

(٢) مل : المنطق ـ الجزء الأول ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

(٣) جيمس مل : تحليل العقل البشرى الفصل الثالث ص ٧١ .

(٤) المرجع نفسه ص ٧٨ .

خصوصا فى عدم السماح بحضور العوامل التركيبية المحولة فى عملية التداعى (١) .

ولم يتردد مل فى ادخال الطابع الكيميائى فى تأليف وقائع العقل ، فيكون التداعى هو القوة الموحدة والمنسقة للأفكار والاحساسات . واذا كانت الفزياء تتكون من قوانين الجزيئات الذرية للمادة المتحركة فان علم النفس ينبنى على قوانين التتابع والتآنى للحالات العقلية . ويظهر هنا فى هذه النقطة أثر نيوتن بوضوح كما يقول كنيدى (٢) . ولكننا نرى الى جانب ذلك على الخصوص رغبة أكيدة فى تجاوز التداعى عن طريق صياغة هذا المفهوم الجديد الذى يقول بتوالد الأفكار المعقدة من الأفكار البسيطة . وليس الشاغل هنا لدى مل هو الاتيان بعلم نفسى غير علم نفس التداعى . ولكن ينبغى أن يعترف القــارىء الحديث فى رأى همفرى بأن الكيمياء العقلية لدى مل تتصل اتصالا دقيقا وتكاد تختفى الفوارق بينها وبين موضوعات علم النفس المعادى للتداعى اليوم عند أصــحاب علم نفس الجشطالت أو علم نفس الصيغ (٣) .

---

(١) وارين : تاريخ علم نفس التداعى ص ٩١ لندن سنة ١٩٢١ .

H. C. Warren : History of the association psychology

(٢) كنيدى : التجريبية النفسية عند مل ص ١١٦ .

Kennedy : The psychological Empiricism of Mill. (1928).

(٣) همفرى : التفكير ص ١٠ . M.G. Humphrey : Thinking (1951)

الفصل الرابع

منطق جون استيوارت مل

قال جون استيوارت مل عن نفسه فى كتابه عن سيرته الذاتية : أنه كان ذا رأى متواضع فى قواه وشخصه كمفكر أصيل الا فى العلوم التجريدية كالمنطق والميتـــافيزيقا وكالمبـــادىء النظرية فى الاقتصاد السياسى وعلوم السياسة (١) •

وقال أيضا : أنه ـ وقد رأى كثيرا من الصدق فى فلسفات استيرلينج وكولريدج وكارلايل الترنسندنتالية الصوفية برغم انغماسهم المتصل فى الخطأ ـ لم ييأس من تمييز الصواب من الخطأ ، بل ولم ييأس من أن يقدم ذلك يوما فى عبارات معقولة غير مرذولة بالنسبة الى الذين يقفون الى جانبه فى الفلسفة (٢) •

وقال أيضا : ان كتابه عن المنطق لم يشأ أن ينشد الشعبية بقـــدر ما قصد أن يعارض المدرسة المقابلة فى الميتـــافيزيقا والوجود والمبادىء الفطرية (٣) ؛ ولذلك يوفر كتابه عن المنطق فى رأيه جانبا مفتقدا وهو جانب المذهب المعارض للمدرسة السابقة ، وهو المذهب الذى يستقى كل معرفة من التجربة ، ويستخلص كل الصفات الأخلاقية والذهنية بالذات من الاتجاه الخاص بالتداعيات ضمن مذهب الترابط النفسى •

وقال : ويعادل تقديرى المتواضع تقدير أى شخص آخر فيما يمكن أن يؤديه التحليل لعمليات المنطق أو فيمـــا يمكن أن تؤديه أية قواعد ممكنة للاثبات فى ذاتها نحو زيادة أو تصحيح عمليات الفهم ، ولكن اذا أضيفت الى هذه كلها مستلزمات أخرى فانى موقن بالتأكيد من مدى فائدتهـــا العظيم » (٤) •

---

(١) مل : السيرة الذاتية ص ٢٠٥ •

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٦ •

(٣) المرجع نفسه ص ١٨٩ •

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٠ ـ ١٩١ •

ومن هذا كله يتضح أولا الغرض الذى ألف مل الكتاب من أجله ، وثانيا استعانته بعلم النفس الترابطى بوصفه أحد مستلزمات تحليـــل عمليات المنطق وتحديد قواعد الاثبات .

وقال مل أيضا ان مصدر القوة الكبيرة التى تتمتع بهـا تلك الفلسفة الخاطئة التى أشرنا اليها فى الفقرة السابقة ســواء فى الأخلاق أو فى السياسة أو فى الدين هو الارتياح الى تأكيدها المعتاد لقوة الاثبات الرياضى ولما يشبهه من فروع العلم الطبيعى (١) .

ومن تجارب مل السابقة تلك الطبعة التى قام بتقديمها سنة ١٨٢٩ من كتاب والده عن تحليل ظاهرة العقل البشرى التى كشفت عن مدى صـعوبة نشر بحث فى الفلسفة فى الوقت الذى يتعارض ويتصارع فيه تياران عنيفان : تيار التأمل الميتافيزيقى المعارض تماما لتيـــار علم نفس التجربة والترابط (٢) .

ولذلك لا نعجب اذا رأينا مل مشغوفا بالتجربة الطبيعية شغفا قويا الى حد طموحه فى وضع بحث أساسى عن منابع المعرفة الانسانية بالنسبة الى عصره كما فعل لوك من قبل . ولا نعجب أيضا اذا رأينا مل يؤكد أن مبادىء الرياضيات تستمد من الملاحظة شأنها شأن مبادىء العلم الطبيعى عن طريق الاستدلال الاستقرائى . وحاول أن يعوض النقص البادى فى الملاحظة من وجهة نظر الضرورة بمذهب والده فى الترابط عن التداعى الذى لا يقبل الانفصال أو الفكاك ، وحاول من الناحية المقابلة أن يعوض مذهب الترابط من ناحية الضرورة بالاهتمام الشديد المبذول نحو البحوث الخاصة بالطب والتاريخ والطبيعة (٣) .

وانصب اهتمام مل البالغ على بيان أنواع البراهين ومصادر المعرفة ، وهذا يفسر لنا حقيقة هدف مل من تأليف بحثه عن المنطق ، وتحاشى مل أن يحدثنا عن طبيعة القضايا التى تتعلق بالتجربة المباشرة ، ولا يحدثنا عن نظريته عن الوعى أو الشـعور الا مؤخرا فى كتابه عن فحص فلســفة السير وليام هاملتون ، وعارض بذلك كلا من الاتجاهين الخاصين بالحدسية

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦١ .

(٣) موريس : المنطق المثالى ص ٢٨٤ — ٢٨٥ Morris : Idealistic Logic

الألمانية المتحالفة مع كولريدج الانجليزى والعقلانية عند كل من ديكارت وليبنتس (١) .

ويضع مل حقيقة التجربة فى الرياضيات وفى العلوم الطبيعية كبديل عما كان يسمى بالصدق الضرورى ، وكان يعنى بالتجربة ما يستقى من مصادر الحس كالمدركات والذكريات واللذة والألم والمشاعر الأخرى ، ولم يكن مل يدرى بطبيعة الحال مقدار الصعوبة (على نحو ما نعرف اليوم)(٢) فى مدى فشل اللذة والألم والمشاعر الأخرى فى أن تصبح وسيلة معرفة وان كان نصيبها من الحســية كبيرا ؛ اذ صرنا نفرق الآن بين الوعى الذهنى Intensité وبين الوعى العاطفى Attensité ، ولا نجعل من الوعى العاطفى الا موضوعا معروضا على الوعى الذهنى (٣) . وليس الألم نفســه حالة معرفية بين حالات عدة ، وكما قال برادين Pradines : ليس فى الألم ما يحيطنا علما بشىء عن طبيعة المؤثر (٤) .

أما فيما يتعلق بالذاكرة وبالادراك فأقل ما يقال : ان مل كان لا يزال بعيدا عن تقدير جملة الحقائق المتصلة بمثل هذه الموضوعات ؛ فالادراك ليس تذكرا كما يقول ميرلوبونتى (٥) . واذا عولنا على الظاهرات فليس فى التداعى ما يقيم وحدة الشىء المدرك وان كانت هــذه الوحدة شرطا للتداعى (٦) . بل حتى اذا تعلق الأمر بتداع بالتشابه تطلبت اثارة الصورة القديمة (الذكرى) وضع الادراك الحالى على نحو ملائم من أجل جعــله قادرا على حمل التشابه (٧) ؛ فالادراك رؤية انبثاق معنى باطنى فى اطار كوكبة من المعطيات ، أو هو التقاط المعنى داخليا بين محســوسات وبدون هذا المعنى يستحيل أى استدعاء للذكريات .

---

(١) بريتون : جون استيوارت مل ص ١١٢ .

(٢) فردينان ألكييه : وحشة الوجود ص ٩٤ ــ ١٠٤ . وراجع كلامنا عن الندم عند كامو وسارتر فى كتابنا عن الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة .

(٣) الكييه : وحشة الوجود ص ٩٥ .

Alquié : La nostalgie de l'être

(٤) برادين : بحث فى علم النفس العــام ــ جــزء أول ــ ص ٣٥ وما بعدها .

Pradines : Traité de Psychologie générale.

(٥) ميرلوبونتى (موريس) ظاهرية الادراك ص ٣٠ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢٤ .

(٧) المرجع نفسه ص ٣٠ .

وبصرف النظر عن كل هذه الاشكالات التى تقيمها الفلسفات الحديثة فى وجه النزعة التجريبية بمعناها الوضعى نجد مل يحيل فلسفته عن التجربة الى فلسفة نسقية ؛ فهو يستند اليها فى أكثر من ميـــدان ، ولا يتنازل برغم ذلك عن الاستدلال والبرهان وعن دورهما فى بناء المعرفة ، وهو شديد الكلف والعناية بالبرهان الاستدلالى ، كما هو شديد الكلف والعناية بمعارضة العقلانية النظرية ٠

ومن ثم فهو لا يقبل الاستدلال الفارغ (١)،أى أنه يرفض أن يجعل من الاستدلال مجرد استدلال صورى ، ويفرق مل بين الاستدلال الحقيقى والاستدلال الصورى ٠ والاستدلال الصورى هو الذى يحتوى على تحولات لفظية ، ومثل ذلك :

اذا كان أ
اذن ب

تكون استدلالا صوريا فى حالة ما تكون

أما لا أ
أو ب

مجرد تحصيل حاصل ٠

ونجد عند مل خلال الفصل الأول اشارة الى أن الاستدلال المبـاشر استدلال صورى ، أما الاستدلال الحقيقى فهو القياس ؛ فهو يفرق بين الاستدلال الذى يؤدى التقدم فيه من حقيقـــة الى أخرى وهو الاستدلال الصورى وبين الاستدلال الذى يبدأ بحقائق معروفة لينتهى الى حقائق أخرى متميزة منها فعلا ٠

وليس المنطق فى نظر مل سوى تنسيق العملية التى نحصل بها عن طريق غير مباشر على مبرر للاعتقادات التى لا نتوصل الى امتلاكها بطريق مباشر (٢) ، ومن هنا يصبح النوع الحقيقى من الاستدلال فى رأيه هو ذلك الذى يؤدى الى حقائق متباينة متميزة ٠ ويمكن أن نقول عن واقعة أو عن قضية انها مثبتة اذا اعتقدنا صدقها بناء على واقعة أخرى أو قضية أخرى يقال انها تستلزمها. واثبات قضية بناء على قضية أو قضايا سابقة والوثوق بها كنتيجة لشىء آخر انما هو استدلال بأوسع معانى الكلمة ٠

---

(١) جاكسون : المنطق الاستدلالى عند جون استيوارت مل ص ٦٤ ٠
(٢) مل : المنطق ص ١٧٥ (أ) ٠

ولا نعتقد عادة قضية لمجرد ما فيها من وضوح واقناع ، ولكن بناء على شيء متفق عليه من قبل (١) .

والقياس نوع ضيق من أنواع الاستدلال ، وهو ليس استدلالا صوريا ، لأن الاستدلال الصورى يتحقق فى حالة اثبات قضية من أخرى يتبين من تحليلها أنها مجرد تكرار أو جزء من نفس التقرير المحتوى فى الأولى .

وعلى ذلك فاذا قلنا :

ـ كل انسان عاقل

ما من انسان لا يقوى على التعقل

أو ـ لا ينجو انسان من الموت

كل انسان فان

كان معنى ذلك أننا لا نسعى لاثبات العبارة ، وانما نكشف عن طريقة أخرى فى التعبير لأدائها ، وليس فيها أدنى ظل للبرهان (٢) .

وفى الفصل الثالث من الكتاب الثانى يستعيد مل استفساره عن احتمال أن القياس نفسه استدلال « حقيقى » ، أما الذى لا شك فيه فهو أن الاستقراء عملية استدلال وبرهان حقيقية ، ولكنه يعود فيؤكد حقيقة القياس كاستدلال ؛ ذلك لأنه يوافق ويتلى Whately فى ملاحظته أن كل استقراء قياس مع حذف المقدمة الكبرى . ويؤدى مل هذه الملاحظة بتعبيراته التى يفضلها فيقول : يمكن أن يصدر كل استقراء فى صورة أو صيغة قياس اذا أمددناه بمقدمة « كبرى » (٣) .

وكان مل قد واجه فى الفصل الثانى أربعة أنواع من نماذج القياس (٤) ، وهو يقسم صيغة واحدة ليغطى بها الأقيسة السالبة والموجبة التى تتوافر لمقدمتها الصغرى صفة القضية الجزئية ، وصيغة واحدة أخرى ليغطى بها الأقيسة السالبة والموجبة التى تتوافر لمقدمتها الصغرى صفة القضية الكلية .

ولا نريد أن ندخل فى تفصيلات غير مفيدة فيما يتعلق بمشكلة

---

(١) مل : المنطق ص ١٠٤ (أ) .
(٢) المرجع نفسه ص ١٠٤ (ب) .
(٣) مل : المنطق ص ١٠١ (ب) ـ ١٠٢ (أ) .
(٤) المرجع نفسه ص ١٠٦ .

القياس ؛ اذ اعتاد مل أن يضع المقدمة الصغرى قبل الكبرى ، وترتب على ذلك فيما بعد خطؤه فى تقدير الشبه بين صور القيـــــاس عنده وبين البديهية القديمة الخاصة بالهوية بين الشيئين المجتمعين على هويتهمـــــا لثالث •

ويمكن تحديد الصيغة الأولى على النحو التالى :

« اذا حلت (س) محل (ص)

وكانت (ع) تملك (ص)

∴ (ع) تملك (ص)

وتتحدد الصيغة الثانية هكذا :

« اذا حلت (س) محل (ص)

وحلت (ع) محل (س)

حلت (ع) محل (ص)

وقبل أن ينتهى الفصل الثانى من الكتاب الثانى كان مل قد جعل من هاتين الصيغتين ما يعبر عن البديهية التقليدية الخاصة بالقياس :

الصفتان المشابهتان لصفة ثالثة متشابهتان Nota notae est nota rei ipsus

ولما كان مل قد غير دائما من وضع المقدمة الصغرى فقد اختلطت صورة العبارة كما وجب أن تتحدد معالمها فى ذهنه ؛ ومن هنا تكلم عن Nota كما لو كانت المقدمة الصغرى ، والنتيجة res ipsa كما لو كانت المقدمة الكبرى (١) •

على أية حال ينظر مل الى القياس نظرة سيئة اذا لم يؤكد حقيقـــة جديدة • ويحدث الاستدلال الأصيل فى القياس عندما يؤدى التعميم الى صياغة مبدأ كلى ، وينتهى الاستدلال بصياغة هذا المبدأ • وليس هـــذا الاستدلال استنباطا ولكنه اســـتقراء ؛ فالاستقراء وحـــده هو المنهج الاستدلالى الوحيد الذى يؤدى الى حقيقة جديدة •

---

(١) جاكسون : المنطق الاستدلالى عند جون استيوارت مل ص ٧٤ وكذلك مدخل الى المنطق لجوزيف ص ٣٠٨ وراجع منطق مل ص ١١٩ (هامش) • ويمكن الاستنارة بموقف المنطق العربى من هذه المسألة بكتاب القطب على الشمسية ص ١٠٤ وكذلك بموقف المنطق الحديث ص ١٠٩ من كتاب ميللون Mellone عن أوليات المنطق الحـــديث •

ولهذا استطاع مل أن يتوسع فى تقرير أهمية القياس ، وقال : انه يمكن التعبير عن أى استدلال صحيح فى صورة قياسية (١) ٠ ولا شك أن مثل هذا الكلام لم يكن يصدق على القياس بوضعه التقليدى ؛ فالتعديل الذى أدخله مل أو الخطأ الذى ارتكبه فى الموازنة بين صورة المبدأ القديم الخاص بالقياس وصورته فى الصيغتين اللتين أجمل صوره الأربع فيهما قد ذلل له اجتياز الآفاق المنطقية نحو حقيقة الاستنباط الحديث كوسيلة لفهم صور الترابط الضرورية .٠

وينظر مل الى المنهج الصحيح بوصفه مزيجا من الاستقراء والاستنباط ، ويسمى مل ذلك بالمنهج الطبيعى (الفيزيكالى) أو منهج الاستنباط العينى ، ويشير فى الكتاب الثالث من منطقه الى أن منهج الاستدلال ، يشتمل على ثلاث خطوات :

١ ـ الاستقراء المباشر .
٢ ـ البرهان الاستدلالى .
٣ ـ التحقيق (٢) ٠

ويعرف مل الاستقراء بأنه العملية التى تستخدم فى اكتشاف وتكوين القضايا العاملة (٣)، ويقوم مل بدراسة معنى الاستقراء الى أن يجعله قادرا على أن يفى بكل احتياجات المعرفة ابتداء من الربط الغريزى بين واقعتين حتى منطوق القضايا التحليلية أو البديهيات ، بل ان الاستدلال من واقعة جزئية على واقعة جزئية أخرى حالة من حالات الاستدلال ، ويقدر على هذا الاستدلال حتى البلهاء والبدائيون من الناس (٤) .

ومنذ البداية رأينا كيف رفض مل صورة القياس التقليدية بوصفه مجرد دليل لاثبات النتيجة ، وكى يجعل من ثم من المعرفة وسيلة ايجابية للتقدم أقام فلسفته المعرفية على قانون التداعى (٥) .

ويشرح مل هذا القانون فيقول : « سنرى أولا أن أشد وقائع الفكر غموضا تتكون من وقائع أكثر بساطة وأكثر أولية ، وهي تتكون وفقا

---

(١) بريتون : جون استيوارت مل ص ١٢٢ س ١١ ـ ١٢ ٠
(٢) استريت : مذهب الفرد والفردية عند مل ص ٨٥ وكتاب مل عن المنطق ص ٣٠٤ (ب) ٠
(٣) مل : المنطق ص ١٨٦ (أ) ٠
(٤) مل : المنطق جزء ثان ص ٢٣٢ (طبعة فرنسية) ٠
(٥) مل : أوجست كونت والوضعية ص ٥٣ ٠

لقانون عقلي هو قانون التداعى ، ولم يكن لوك أول من اكتشف هـذا القانون ، ولكنه استخدمه أروع استخدام فى نظريته عن الأفكار المركبة ، أى الأفكار التى نستطيع أن نعثر على العناصر البسيطة التى تتألف منها بغير مجهود كبير • وكان هارتلي هو الذى بين قدرة الظاهرات الموحدة بالتداعى على الامتزاج بطريقة باطنية تشبه الامتزاجات الكيماوية وعلى الاختفاء فى ناتج واحد لا تتميز عناصره • وهذا بحيث تبدو التوليفـة العقلية واقعة فريدة ، وتشبه العناصر التى دخلت في تكوينها من حيث بساطتها وتظهر خصائص جديدة مختلفة عن خصائص عناصرها • ويفتح اكتشاف هارتلي مجالا أوسع لبحث أصول الظاهرات الفكرية •

« ويعد علم النفس الحديث فى أوفى صوره وأكثرها علمية قانون التداعى كمبدأ منظم تتكون الظاهرات العقلية الشديدة الغموض والتعقيد من تلقاء نفسها أو بالاشتراك مع عناصر أبسط منها وفقا له » (١) •

ويضيف مل الى ذلك أن هذا القانون يمتد فيشمل كل شيء ؛ أفكار الحس وأفكار الفكر والانفعالات والرغبـــات والارادات وحالات أخرى متنوعة • وعنده أن قوانين التداعى هى :

١ ــ تجنح أفكار الظواهر المتشابهة الى الحضور فى الفكر معا •

٢ ــ تنزع الأفكار الخاصة بالظاهرات المجربة أو المتصـــورة فى اقتران باطنى معا الى الحضور معا ، ويوجد نوعان من الاقتران : المعية والتتالى • واذا كانت الوقائع قد جربت معا أو تصورت معا فان احداها تستدعى الأخرى ، واذا خضعت الوقائع للتجربة أو للفكر فى تتـــال مباشر فان السابقة أو فكرتها تستدعى فكرة اللاحقة •

٣ ــ تصير التداعيات بالاقتران أكثر تأكيدا وأشد سرعة تحت تأثير التكرار وعندما تلتقى ظاهرتان غالبا ولا تحدثان أبدا منفصلتين سواء فى التجربة أو فى الفكر ينشأ بينهما ما نسميه بالتداعى الثابت الذى لا يقبل الفكاك ، ولا نقصد من ذلك أن التداعى يجب بالضرورة أن يدوم الى آخر العمر ، ولكن نقصد فقط أنه طالما لم نشهد تداعيا مناقضا له يظل التداعى لا يقاوم •

٤ ــ وعندما يصل تداع الى هذه المرحلة تصبح الفكرة التى يوحى بها التداعى فى الشعور غير قابلة للانفصال عن الفكرة التى توحى به ،

---

(١) مل : أبحاث ومساجلات ــ جزء ثالث ص ١٠٥ (طبعة فرنسية) •

بل وتصبح الوقائع والظواهر التي تستجيب لهذه الأفكار في النهاية كما لو كانت لا تقبل الانفصال في الحقيقة (١) .

وعلى هذا تؤدي حقيقة تشييد امكانية وقيمة الامتزاج العقلي على قانون التداعي وحده الى حذف كل اختلاف جواني بين الاتحاد النفسي الأول بين الظاهرتين وبين العلاقة الكلية الضرورية التي تستطيع أن تحصل عليها البقايا المجموعة لعدد كبير من التجارب في أعلى درجات بساطتها .

فليس بين الادراك المؤلف وبين الحكم التحليلي سوى اختلاف في الدرجة .

وتتكون جميع القضايا العامة وخاصة البديهيات القائمة في أساس كل علم عن طريق الاستقراء ، فالاستقراء هو أساس كل العلوم بما في ذلك من علوم الاستنباط والبرهان (٢) ، بل تعد كل برهنة هندسية نوعا من الاستقراء ؛ فليست الرياضة بمأمن من البرهان بالملاحظة والتجربة (٣) .

والاستقراء جسر نعبر عليه من الوقائع الى القوانين .. فهو عملية منطقية نثبت بها أن ما يصدق على بعض أفراد فئة ما يصدق على الفئة بأكملها ، أو أن ما يصدق على بعض أجزاء الصنف يصدق على الصنف كله بوساطة تحقيق ظروف مماثلة .

والقوانين الوحيدة التي ينظر اليها مل بعين الاعتبار والتقدير هي قوانين السببية ؛ اذ أننا نعرف بالتجربة كما يقول مل ان المادة التي يتكون منها الكون تحتفظ بكمية دائمة ثابتة لا تبدأ ولا تنتهي ، ولكن تتغير صورتها وحسب . وتخضع الأحداث أو التغيرات لقانون العلية لا للعناصر الجوهرية (٤) .

---

(١) مل : فحص فلسفة السير وليام هاملتون الفصل الحادي عشر ص ٢١٢ (طبعة فرنسية) .

(٢) يقول بياجيه : « في حدود الامكان اليوم أن يتحقق الشك عن جدارة فيما يتعلق بجدوى الحديث عن الاستقراء لأن أولى مشاكل الاستقراء هي معرفة ما اذا كان الاستقراء موجودا بالفعل » . مقدمة الى نظرية المعرفة الناسلية — الجزء الثاني — ص ١٩١ .

(٣) مل : المرجع السابق — المقدمة ص ٨ .

(٤) مل : المرجع نفسه — الفصل السادس عشر ص ٢٤٥ .

ويوجد نظام ثابت للاحساسات وهو نظام التتابع الذى تكشفه التجربة ويسمح هو نفسه بظهور أفكار السبب والمسبب ، أى أنه ثبات فى أسبقية السابق وتبعية اللاحق (١) . وبعض الوقائع تتتابع وسوف تتبع وقائع أخرى معينة على الدوام ، ويسمى السابق الثابت سببا واللاحق الثابت مسببا ، أو الأول علة والآخر معلولا . وتعتمد صحة كل مناهج الاستقراء على تأكيد وجود سبب ومسبب لكل حدث ولبدء كل ظاهرة من الظواهر (٢) .

وباختصار يعد السبب من وجهة النظر الفلسفية جملة الشروط الوضعية والسلبية المأخوذة معا ، أو مجموعة الظروف من كل نوع التى اذا تحققت يصبح وقوع التالى ثابتا .

وهذه الحقائق ضرورية لمؤدياتها فى مناهج الاستقراء .

ومناهج الاستقراء على خمسة أنواع :

١ ـ مناهج الاتفاق أو التلازم فى الوقوع .

٢ ـ مناهج الاختلاف أو التلازم فى التخلف .

٣ ـ مناهج التلازم فى الوقوع وفى التخلف .

٤ ـ مناهج البواقى .

٥ ـ مناهج التغير النسبى أو التلازم فى التغير (٣) .

---

(١) مل : المرجع نفسه ـ الفصل الحادى عشر ص ٢١٦ .

(٢) مل : المنطق ص ٣٦٩ (أ) .

(٣) د . أبو العلا عفيفى : المنطق التوجيهى ص ٩٧ وكذلك ص ١٤٥ من كتاب جون استيوارت مل للدكتور توفيق الطويل ، وكذلك كتاب مل عن المنطق ص ٢٥٥ (ا) وما بعدها .

الفصل الخامس

النفسانية المنطقية

ليست النفسانية المنطقية سوى أحد أوجه النزعة النفسانية عامة ، والنزعة النفسانية أو ما يسمى بالألمانية Psychologismus هي ايثار وجهة نظر علم النفس على غيرها من وجهات نظر العلوم الأخرى ، بل هي محاولة اقحام التفسير النفسي للظواهر في جميع مجالات المعرفة مثل الطبيعة والعلوم والاجتماع والجمال والأخلاق • ولما كان علم المنطق هو أشد مجالات العلوم اقترابا من الوعي الانساني فقد احتلت النفسانية المنطقية ـ أي محاولة تفسير العقل ووظائفه ومظاهره عن طريق علم النفس ـ أهم مكانة من بين أنواع النفسانيات الاجتماعية والأخلاقية والعلمية والرياضية والتاريخية والجمالية •

وليست النفسانية المنطقية علم النفس ذاته كما هو واضح ، انها علم النفس وقد أخذ شكل الاتجاه التفسيري واستخدم في غير ما أريد له ، أو هي علم النفس وقد أقحم في نطاق أبعد مما تقتضيه طبيعته وحدود اختصاصاته ، وهي في الواقع صدى لرغبة الكثيرين من علماء النفس الذين يجدون في علومهم تفسيرا لجميع الظواهر الأخلاقية والعقلية والجمالية • ويعتقد هذا النوع من العلماء أنه يكفي فرض علم النفس على المشاكل الاجتماعية وعلى أنظمتها من أجل حل كل معضلة جماعية أو فردية • ويعتقدون أيضا أنه يكفي اخضاع الفلسفة لبناء نفسي صالح أو لنظرية نفسية سليمة كي تفض الفلسفة يدها من جميع الصعوبات ، بل يستطيع علم النفس أن يعبر بالفلسفة جميع الصعوبات وأن يجتاز بها كل المشكلات في نظرهم •

ولذلك قيل عن النفسانية : انها الاتجاه الذي اقترب به هيوم وجون استيوارت مل ووليام جيمس من مشاكل الفلسفة سواء كانت ميتافيزيقية أم أخلاقية أم منطقية أم جمالية مع الاحتفاظ بوجهة النظر النفسية (١) •

(١) ريونز : قاموس الفلسفة ص ٢٥٨ سنة ١٩٤٥ •
Dagobert D. Runes : Dictionary of Philosophy.

وقد استخدم هذا المصطلح هوسرل وأضرابه من الفلاسفة كنوع من اللوم والتأنيب بحيث يوحى بالمبالغة فى اهمال طبيعة العلم ذاته وقوانينه وفى تجاهل الاعتبارات المنطقية والمعرفية ٠

اذ كانت النفسانية معروفة قبـــل ذلك فى ألمانيا ، وتفرعت هنالك فروعا شتى ذات أهمية بالغة ٠ ولا أدرى : هل كان قد حدث احتكاك فعلى بين هذه النفسانية وبين النفسانية المنطقية الانجليزية أم لا ؟ اذ لا نكاد نجد لدى الفلاسفة الانجليز فى ذلك الوقت على التحديد أية اشارة الى كتب برنارد بولتسانو Bolzano (١٧٨١ ــ ١٨٤٨) أو الى مؤلفات فرانتس برنتانو Brentano (١٨٣٨ ــ ١٩٠٧) التى أدت أخطر دور فى تكوين اتجاه النفسانية وفى تنميته وصقله ٠

وكان هوسرل Husserl (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨) متخصصا فى الرياضيات أول أمره ، ثم انحاز الى جانب الفلسفة تحت تأثير شخصية أســـتاذه برنتانو ، واستهوى برنتانو هوسرل بمحاضراته وأوحى اليه أن المثـــل الأعلى فى الفلسفة هو أن تكون علما صارما دقيقا ، وشجعه على أن يشتغل بالفلسفة ٠ وعرف برنتانو هوسرل أيضا بمؤلفات بولتسانو وأضعف من مكانة كانط فى نفسه ٠ وأثرت نظريات برنتانو تأثيرا عميقا على شخصية هوسرل وعلى آرائه كما أنه استعان بنظريات برنتانو فى النهاية لاستكمال نظريته عن الاحالة المتبادلة Intentionalität ، وبذلك تسرب هذا التعبير الاسكولائى عن طريق برنتانو الى كل مجـــالات الظاهرية الحديثـــة Phänomenologie (١) ٠

وتركزت نقط الابتداء فى منطق برنتـــانو كما لاحظ اشـــتومف Karl Stumpf (١٨٤٨ ــ ١٩٣٦) حول بحث طبيعة الفـــكر وتعبيره اللغوى ، ووصف هوسرل دراسة برنتانو بأنها عناصر نسقية مترابطة لعلم النفس الوصفى (٢) ٠ وتأثر هوسرل ببرنتانو من جملة نواح : أولها أنه أحس بالحاجة القوية الى اصلاح المنطق والاهتمام بأولياته ، وثانيها أنه أدرك ضرورة ابتداء المنطق بدراسة المعنى والتعبير ، وثالثها أنه فطن الى عيوب النفسانية المنطقية وجعل الأفكار أساسا للأحكام ٠

وأصدر هوسرل كتابه عن الأبحاث المنطقية Logische Untersuchungen فى جزأين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ على التوالى ٠ وسمى أولهما مقدمة

---

(١) اندرو أوزبون : فلسفة ادموند هوسرل ص ١٥ ٠
Andrew D. Osborn : The Philosophy of Edmund Husserl (N.Y., 1934).

(٢) المرجع نفسه ص ١٧ ــ ٢١ ٠

الى المنطق الخالص Prolegomena zur Reinen logik وتعمد أن يكون هذا الكتاب هجوما عنيفا على كل من اعتبر علم النفس أساسا للمنطق ، وخص المنطق الخالص بثلاث مهام أساسية :

١ ــ تحديد طبيعة المعنى .

٢ ــ اقامة القوانين المبنية على المعنى .

٣ ــ انماء نظرية العلم .

وأراد هوسرل من هجومه على علم النفس مجرد تفنيد الآراء للوصول الى طبيعة المنطق الحقيقية (١) . وتوصل الى أن المنطق يعنى بالقوانين المثالية ، واتضح من ذلك كله أن أنصار النفسانية أيدوا القوانين النفسية على حين تمسك أعداء النفسانية بالقوانين المعيارية .

وكان برنتانو قد استخدم كما سبق القول كلمة القصد Intention اللاتينية للاشارة الى العلاقة بين الذات والموضوع عند الادراك ، وعند ادراك شيء يقال : ان الذات « تقصد » ذلك الشيء . ولا يوجد أى ادراك بغير هذه الاحالة المتبادلة . وتتضمن الاحالة المتبادلة الطابع الأصلى للحياة الشعورية وهو أن الوعى وعى بشيء . أو كما شاء وليام جيمس William James (١٨٤٢ ــ ١٩١٠) أن يقول : ان الاحالة المتبادلة علم بشيء ؛ فلا توجد معرفة بغير أن يوجد معروف ، أو حب بغير أن يوجد محبوب (٢) .

ويمكن أن نرى من هذا التاريخ الوجيز لحركة النفسانية المنطقية أن هذه النزعة لا تسير بالضرورة فى نفس اتجاه علوم النفس ولا تسعى لتحقيق نفس الأهداف والأغراض التى تخصها . والسبب فى ذلك هو أن النفسانية المنطقية تعمل بطبيعتها فى مجال غير مجال علم النفس . ويشير المعنى الذى يحمله اسم النفسانية المنطقية الى غير قليل من عدم الثقة بأعمال الباحثين النفسانيين فى نطاق الدراسات المنطقية (٣) .

---

(١) أشار بعضهم الى أن هوسرل سبقنا الى التعرض للنفسانية المنطقية .. ونحن لم نقل اننا أول من تعرض للنفسانية المنطقية بدليل ما نذكره هنا . ولكننا أول من درسها دراسة تحليلية تفصيلية منهجية شاملة عند مل .

(٢) وليام جيمس : معنى الصدق ص ٤٣ ــ ٤٤ .

William James : The Meaning of Truth (1911)

(٣) أشار بياجيه الى عدم الثقة المتبادلة بين علماء المنطق وعلماء النفس مما لا يسمح بأى تعاون . راجع جان بياجيه : المنطق وعلم النفس المقدمة ص ١٩ مطبعة جامعة مانشستر سنة ١٩٥٣ .

Jean Piaget : Logic and Psychology.

ولا شك فى أن علماء النفس المتفضلين بالشرح والتفسير على أصحاب النظريات المنطقية يخوضون في غير مجال بحثهم الأصلى ، وهم لهذا السبب عينه لا يشاركون أصحاب العلم الأصلى فى مخاوفهم واهتماماتهم ، كما أنهم لا يصدرون عن البواعث نفسها ، وتكون الصعوبة أخف فيما يتعلق بالأخلاق أو بالاجتماع أو بالتاريخ أو بعلم الجمال ، أما فى المنطق فلا يؤدى ذلك التعاون المغرض الا الى الخلاف المستمر طالما كان صاحب الدعوى النفسانية يحمل الى علوم المنطق عكس ما يرجوه علماء المنطق ، انه يتصور سير العمل بصورة مناقضة للصورة التى يحتفظ بها علماء المنطق لعملهم ٠

ولذلك تجد عالما كبيرا مثل جان بياجيه Jean Piaget (١٨٩٦ ـ ٠٠) يقول فى بساطة : انه توصل فى كتابه عن « الفئات والعلاقات والاعداد » (١) الى وجهة نظر مؤداها أن المنطق هو مرآة الفكر وليس العكس (٢) ٠ ويرى بياجيه أن علاقات المنطق الصورى بعلم نفس الذهن ستصل الى حد شبيه بالحل الذى انتهى اليه النزاع بين الهندسة الاستنباطية وبين الهندسة الحقيقية أو الفزيائية بعد قرون من المساجلات ؛ اذ بدأ المنطق وعلم نفس الفكر بأن خضعا للخلط أو لعدم المبالاة تماما كما حدث للهندسة الاستنباطية والهندسة الحقيقية أو الفزيائية ٠ وظن أرسطو بلا شك أنه كان يكتب تاريخا طبيعيا للفكر (كما لو كان فضلا عن ذلك يكتب عن الحقيقة الطبيعية ذاتها) وهو يحدد قواعد القياس ٠

ولم تكد علوم النفس تستقل حتى أدرك علماء النفس (بعد أن استغرق ذلك منهم وقتا غير قليل) أن آراء كتب المنطق التى تتعلق بالتصور وبالحكم وبالاستدلال لا تعفيهم من السعى الى الكشف عن الآلية العلية الخاصة بالذكاء أو بالعقل ٠ وظل علماء النفس يعتبرون المنطق علم الحقيقة الموضوع على قدم المساواة مع علم النفس برغم طابعه المعيارى بسبب وجود آثار باقية من العهود السابقة ، ولكنهم خصوا موضوعه بالتفكير الصحيح فى مقابل التفكير العادى العام متجاهلين كل نظرة معيارية فيه ؛ ومن هنا ظهر المنظور الخادع فى علم نفس الفكر Denkpsychologie الذى يرى الفكر كأنه انعكاس للقوانين المنطقية . بحكم كونه واقعة نفسية (٢)٠

---

(1) Jean Piaget : Classes, Relations et Nombres. Essai sur les Groupements de la logistique et la réversibilité de la Pensée 19412.

(٢) جان بياجيه : علم نفس الذهن ص ٣٧ ٠

La Psychologie de L'Intelligence (1952)

(٣) المرجع نفسه ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

ولما كانت مشكلة المنهج منطقية ونفسية فى آن معا فقد ظلت فواصل الاختلاف بين أنصار النفسانية المنطقية وبين علماء المنطق كبيرة . غير أن علم النفس يشغل نفسه بطابع الاشكال فى مناهج المنطق بناء على تشابه مصطنع فى موضوع الدراسة . وينشأ ذلك الاصطناع فى موضوع الدراسة بسبب اختلاف علم النفس القائم بذاته عن علم النفس الموجه.

أعنى أن علم النفس لا يكاد يخضع للتوجيه كى يتلاءم مع العمل فى غير أرضه حتى تصبح طبيعته أقرب الى طبيعة فن التمثيل المسرحى ، ولا يكاد يسعى من ثم لتحديد خطوات الفكر فيما يتعلق بمشاغله التى لا تهم علم النفس فى شىء حتى يصبح علما موجها بالضرورة ، اى يصبح مدفوعا من الخلف . ولما كان من المستحيل أن تصير الحلول التى يقترحها علم النفس فى غير أرضه نهائية أو ذات صفة قانونية فان انتقال العلم على ذلك النحو لا يؤدى الا الى فقدانه أصالته ، أى أن علم النفس الموجه فى حقل النفسانية المنطقية يعتمد على الاصطناع ولا يستوفى عنصر الأصالة بحال ، ولهذا استحق ما تحمله كلمة النفسـانية من دلالات المؤاخذة والعتاب .

ولو كان الأمر مجرد رغبة فى اسداء النصح وتقديم آراء علم النفس للاستشارة المفيدة لكان الخلاف ضئيلا . غير أن النفسانية المنطقية اعتادت أن تفرض آراءها فرضا ، وأن تستخف النظريات المغايرة ، وتنقد الآراء التى لا تقيم وزنا للتفسير النفسى ولا تلتفت اليه ، بل اعتادت النفسانية أن تقدم حلولا وتفسيرات فى مجالات الأخلاق والاجتماع والمنطق من وجهة النظر التى تخص علم النفس وتهمه أيضا .

ومن ثم أرغمت النفسانية كل العلوم على أن تقوم بدور دفاعى وألزمت المنطق خاصة اتقاءها وتجنبها ، وصارت النفسانية المنطقية تؤدى معنى المبالغة فى معالجة المشاكل بوجهات نظر متطرفة بل وبوسائل غير ملائمة لطبيعة العمل فى غير مجالها .

ولعل الأمر هنا كما يقول لوى كوتيرا Couturat (١٨٦٨ ــ ١٩١٥) : أن منهج علوم النفس بسيط وهو هو دائما . وسواء كان الأمر متعلقا بتصور أو بمدرك عقلى أو بمبدأ أو بصورة استدلال فلا يعدو المنهج النفسى أن يعتبره واقعة شعورية ، ويأخذ فى البحث عن أسـبابها وجذورها [(١)] .

---

(١) كوتيرا : المنطق والفلسفة المعاصرة ص ٣٢٠ ــ مجلة الميتافيزيقا سنة ١٩٠٦ .
Couturat : Revue de Métaphysique, 1906.

وأكثر من ذلك أن جوهر النظرة المنطقية يتعارض مع طبيعة البحث المنهجي النفسي ، ويود علم النفس أن يقحم في نظرية المنطق منهجا معارضا لنظرة علم المنطق الأصلية . ولو كان الأمر على نحو ما وصفه بياجيه (في كتابه عن المنطق وعلم النفس (بالانجليزية)) بصدد تعريفه للنفسانية المنطقية ـ ما صار الاشكال مستفحلا الى هذا الحد ، أعنى لو كانت أية استعانة بالحدس الحسى أو بالعوامل النفسية تؤدى الى اطلاق اسم النفسانية المنطقية على نزعة الباحث لهان الأمر ، أو لو كانت النفسانية المنطقية تطلق على النظريات المنطقية التى لم تقم بتصفية صوريتها تصفية كافية على نحو ما يسميها بياجيه لاختفى الاشكال ، اذ يعتقد بياجيه أن تسمية النفسانية المنطقية انما جاءت لتصف بعض الأبحاث المنطقية التى لم تصل نقاوة صوريتها الى الحد الذى تتطلبه الدراسات المنطقية . ويعتقد أيضا أن مجرد اللجوء الى الحدس الحسى أو الى أى عامل نفسى آخر يؤدى الى اطلاق هذه التسمية على صاحب البحث (١) .

غير أن الواقع بخلاف ذلك ، لأن النفسانية المنطقية تريد أن تزرع العشوية داخل منهج المنطق الذى يتمسك أول ما يتمسك بالضرورات ، ولايحاول أن يتابع بقدر ما يحاول أن يفرض (٢) . ومن اللازم أن تتكون فى المنطق تجمعات نظامية نسقية داخل خط سير العقل من أجل استمرار العمليات فى التقدم .

ولا يصل العقل الى تحقيق تلك العمليات حينما يعرف كيف يتوصل الى اتمامها ، وانما يحققها عندما يتبنى بعض الأنساق الخاصة بالدلالات على نطاق واسع . وباستخدام هذه الأنساق الخاصة بالدلالات على نطاق واسع تصبح العمليات الصغيرة ذوات أهمية لا تنكر .

بل ان التقطيع والتفتيت الذى تؤديه الذرية المنطقيـــــة Atomism لا يؤدى الا الى تعطيل تكوين المعانى ، وقد تكون هذه المعانى ذات قيمة لا تقبل التفسير طبقا للمناهج النفسية ، وتعمد النفسانية المنطقية عادة الى اعطاء الأولوية الى الوقائع النفسية على المفهومات المنطقية البحتة ، اذ لا تهم بعد ذلك مسائل المدركات العقلية أو التصورات والأجناس

---

(١) بياجيه : المنطق وعلم النفس ص ٢ .

Piaget : Logic and Psychology, 1953.

(هذا الكتاب مجموعة محاضرات القيت بالفرنسية فى هذا الموضــــوع بجامعة مانشستر وترجمه الى الانجليزية وقدم له و . ميز W. Mays فى طبعة مطبعة جامعة مانشستر سنة ١٩٥٣) .

(٢) كافاييس (جان) : حول المنطق ونظرية العلم ص ١ ، ٢ .

والأنواع ، فالمعطى الحسى كما لاحظ اميل بريبه Emile Bréhier ليس تصورا وانما هو مجرد غبار أو كومة من الانطباعات المعزولة (١) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أيضا اميل بريبه أنه لا يوجد فى الفلسفة تصور محايد ، ويعنى بريبه بالتصور المحايد ذلك التصور الذى يمكن استخدامه دون رجوع أو اشارة الى نسق كامل من الأفكار التى تهب له معناه (٢) .

وحينما يعمد المرء الى جعل المنطق فرعا من فروع علم النفس — لا يلم بلا شك بأى شىء عن الاختلافات الجوهرية بين قوانين المنطق وقوانين علم النفس ، ويتحول المنطق عادة تحت منظار النفسانية المنطقية الى علم وصفى تجريبى ، وتلك بالذات هى المحاولة الضخمة التى قام بها برنتانو منشىء النفسانية بالمانيا حين حول محتوى كل تجربة عقلية الى ظاهرة فزيائية حقيقية أو خيالية يرجع اليها (٣) . وحاول منطق جون استيوارت مل أيضا أن يترجم حاول المشاكل التقليدية الى لغة لا تفترض وجود التصورات ، وانما تفترض مجرد انطباعات معزولة أو مترابطة فيما بينها ، ولذلك أصاب نظريته فى الألفاظ والحدود وفى القضايا والاستدلالات تغير عام جوهرى (٤) .

وأسلم مل تفكيره لفرضين فيما يتعلق بطبيعة الاستقراء ذاته ، فأديا الى كل الانعكاسات النفسانية المنطقية فى تفكيره .

حاول مل كما أشرنا من قبل تفسير الادراك تفسيرا فرديا من جهة، وتفسيرا استدلاليا من جهة أخرى (٥) .

---

(١) اميل بريبه : تاريخ الفلسفة — الفلسفة الحديثة — المجلد الثانى — الجزء الثانى ص ٩١٤ :

Emile Bréhier : Histoire de la Philosophie Philosophie Moderne, Tome II, deuxième partie.

(٢) اميل بريبه : الفلسفة وماضيها ص ٢٣ — ٢٤ .

La Philosophie et son Passé, 1950.

(٣) برنتانو : علم النفس من وجهة النظر التجريبية — المقدمة .

Brentano : Psychologie vom empirischen Standpunkte. (einleitung).

(٤) بريبه : تاريخ الفلسفة الحديثة — الفلسفة الحديثة — المجلد الثانى — الجزء الثانى ص ٩١٤ .

(٥) راجع الفصل السابق عن علم النفس عند مل .

١ ـ فمن جهة ربط مل الأسماء بالأشياء ربطا شديدا بحيث تعذر عليه أن يستخلص الدلالات من مسسميياتها خلال العمليات العقلية والاستدلالية . لقد تعذر ذلك على مل للتعقيد الذى أضفاه على الاسم ، فالاسم عنده هو المسمى الفعلى للاسم وليس رمزا يرمز اليه وحسب ، يتضمن الاسم موضوع التسمية مباشرة ، ويتضمن صفات موضوع التسمية بطريق غير مباشر (١) .

٢ ـ أما الغرض الآخر فهو معارضته فى الاحتفاظ بمعنى الاستقراء للحالات التى يتم فيها الاستدلال وفقا للصور والاعتبارات الخاصة بالأسلوب العلمى ، اذ أن فكرة العلم ضرورية من حيث هى معرفة لظاهرة ومن حيث هى فهم متميز للقوانين العامة ، ولكن تسعة أعشار النتائج التى نصل اليها من التجربة خلال حياتنا العملية خالية من أية معرفة من هذا القبيل ، وهذه استدلالات مباشرة من حالات معروفة الى حالات يفترض فيها أن تكون شبيهة بتلك الحالات المعروفة (٢) .

ويؤدى الفرض الأول الى تحقيق المبدأ الذى استقر عليه مل (٣) ، وينص ذلك المبدأ على اعتبار الأسماء فى كتابه عن المنطق أسماء للأشياء نفسها لا مجرد أفكار عن الأشياء ، وهذا يؤدى الى استحالة أية عملية استدلالية تستخدم أسماء الذوات الا بحضور الجوهر العاقل أو الذات المتشخصة Hypostasis ، أعنى أن عمليات الاستدلال لا تتم على حسب هذا الشرط الا اذا كانت صادرة عن وعى بشرى حاضر ، وهذا بدوره يؤدى الى نتيجتين :

١ ـ النتيجة الأولى اعتبار استخدام القياس معادلا فى صدقه لاستخدام القضية العامة فى الاستدلال ، ونستطيع بناء على هذا التعادل اتمام عمليات الاستدلال بدون القياس أو القضية العامة ، ولكن برغم كونهما غير ضروريين للبرهان تعد القضايا العامة ضرورية من أجل التقدم فى البرهنة ، كما تعد قواعد القياس نظاما يضمن الصواب عند التطبيق (٤) .

---

(١) مل : المنطق ص ١٩ (ب) ، ص ٢٠ (أ) .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٨ (ب) ـ ملحوظة بأسفل الصفحة .

(٣) المرجع نفسه ص ١٥ (أ) .

(٤) المرجع نفسه ص ١٣١ (أ ـ ب) .

٢ ـ والنتيجة الأخرى هى احكام ربط الاستقراءات بقوانين علوم النفس على نحو ما كان جيمس مل قد ذهب اليه من قبل (١) .

أما الفرض الآخر فمعناه انه يريد الاستغناء عن القضايا العامة وفقا لمنطق التفكير الذى يحصل بالفعل ، وليس وفقا للمنهج العلمى ، كأنما أراد مل أن يتغاضى عن قوله الى أوجست كونت فى أحد خطاباته : « أما فى كتابى عن المنطق فاشتغالى مقصور على المنهج » (٢) وليس هذا صحيحا لأن مل هنا فى هذه المشكلة يعانى من وضع التفكير المنطقى حين يواجه الفراغ أو حين يتعرض لأزمة التوزع بين الفائدة العملية والقيمة العلمية ، اذ يتعرض الفيلسوف لمثل هذه الأزمة عادة كلما أعوزه الملاء أو كلما تبين له العمل فى غير جدوى ولم تسعفه معنويات العلم الذى يشتغل به ، لذلك ود مل لو تسعفه الحيلة كى يشترع منطقا للتفكير يتقصى حقائق التفكير القائم بالفعل بين الناس من أجل اسـتخلاص قواعد منطقية عملية أو قواعد منطقية من الواقع . وسـيكون ذلك بالاستغناء عن القضية العامة ، وبارجاع معظم الاستقراءات الى مواقف غريزية (٣) .

واذا أمكن ذلك تمت معظم الاستقراءات بلا قضايا عامة ، وعندئذ سيحل الاعتقاد محل الالزام العقلى الصحيح ، ولما كان أبسط اعتقاد يفترض ويرتبط بشيئين على الأقل كما يقول مل ففى الامكان من ثم اعتباره استقراء حقيقيا ، فأبسط اعتقاد استقراء حقيقى .

وهذا من شأنه أن يعود بنا الى ملاحظة اختفاء أية طبيعة مثالية فى منطق مل عند وصل المدركات بالمعقولات ، وتأتى أهمية هذه الطبيعة من أن المنطق لا يمكن أن يقف فى العادة عند حد وصف الوقائع المنطقية أو عند حد الظروف الاعتقادية أو عند حدود التعداد للأشياء العينية ، ويعنى هذا الفرض الآخر ابقاء كل تعميم فى دائرة فردية مغلقة .

ولقد فطن مل نفسه الى هذه الحقيقة حين اقترح ما سماه بالكيمياء النفسية أو العقلية (٤) الى جانب نظريته عن التداعى الآلى . وظن مل

---

(١) جارنيار : جون استيوارت مل وفلسفة التوسط ص ٤٧ .

Garnier Horatio K. : J.S. Mill and the Philosophy of mediation (1919) New York.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٥ .

(٣) مل : المنطق ص ١٢ (ب) .

(٤) مل : المنطق ص ٥٥٦ (أ) .

أنه يتخلص بذلك من أمثال هذه الضرورات المنطقية بطريقة الاعتماد على تفسير نفسى آخر ، وبهذا التفسير الجديد تمتد وظيفة العقل الى حد القدرة على الادماج والاذابة ولا تقف عند حد التسجيل لكل ما يرد على الخاطر من مدركات .

ويعين هذا الموقف الجديد على تمكين العقل من التعامل على مستويات مختلفة ، فيتأتى التفكير فيما اعتدنا أن نسميه باللانهائى أو فيما نصفه بالمطلق بفضل قوانين علم النفس الخاصة بالتداعى ، واستخدامنا الوصفى لكلمة الكلى والكلية له أساس واضح من تشابه الظروف .

ولم يعد يخيف مل ألا تظهر ملامح الضرورة فى العمليات التى يقوم بها الفكر ، فالضرورة نفسها ليست سوى عدم قابلية ترابطات الأفكار للانفصال . وتتحقق حقيقة الأشياء كذلك خلال تكرار صفاتها ، أما المفهومات العقلية فترتبط بالصفات وتكشف اما عن تفاصيلها أو عن ما صدقاتها ، وهى وليدة التجريد من الأشياء الفردية ، أو هى — أصلا كما يقول مل — نتيجة لمقارناتنا (١) .

وطالما كان المفهوم يلتقى بطريقة الاتفاق والاختلاف الحقيقية بين الظاهرات .. وطالما كانت الموازنة بين الأشياء تسمح لنا بتصنيفها وفقا للتشابه أو للاختلاف الحقيقيين .. فلا مندوحة عن تناسب المفهوم واتفاقه مع هدف محدد وغرض واضح . ويتوقف كل شىء على الشىء الواقع تحت بصرنا أو الماثل أمامنا ، وبمجرد تعرفنا على اتفاق واختلاف ما عن طريق الموازنة وعلى صفة مشتركة بين أشياء عدة — يتوافر لنا أساس للاستقراء (٢) .

وعلى هذا النحو تتكون المفهومات من عدد من الوقائع المتنوعة التى نحصل على بعضها من الملاحظة الخارجية ، وندرك بعضها الآخر عن طريق الاستدلال .

أو يمكن أن نعبر عن ذلك بطريقة أخرى حين نقول عن منطق مل : انه يقوم على فكرة التعميم التجريبى ، وهى تفسير لما يقصد مل أن يقدمه عن فكرة الاستقراء عند فرض ضرورة العلية الخارجية كما يتصورها على وقائع الذهن المباشرة ، ولكن ذلك لا يعنى أكثر من أن منطقه محصور

---

(١) مل : المنطق — الطبعة الفرنسية جزء ثان ص ١٩٤ .

(٢) المرجع نفسه — جزء ثان ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

فى نطاق الفردية ، اذ أنه لا يود أن يبنى منطقه على أى تجريد ، ومن ثم يمكنه بهذه الطريقة أن يتكيف مع الحالات الجزئية والحالات الفردية . وكان أمل جيمس مل والد جون مل أن يوفر لعلم النفس وللعلوم الانسانية الأخرى مبدأ عاما تقوم عليه من حيث هى علوم موضوعية (١) ، ولكن مل الابن لم يجد سوى هذه الوسيلة ليحقق بها أمل الوالد ، وأعنى بها ما سميناه بالتعميم التجريبى ، وهى الطريقة التى تضمن الفردية فى النطاق العام ، أى تضمن واقعية التجربة .

ومن ثم فقد تملكت مل رغبة حادة فى أن يجعل العلوم الاستنباطية قابلة للتطبيق على علوم الملاحظة . أراد جون استيوارت مل أن يعثر على العام فى الجزئى وعلى الجماعى فى الفردى ، أو بعبارة أخرى أراد مل أن ينشىء مما هو جزئى حالات تكون لها قوة العام وحقيقته . ويكون أصدق المناهج وأصحها اذن منهج المزج بين الوقائع وبين الاستدلالات ، وكذلك بين الاستقراء وبين الاستنباط ، ويسمى مل هذا المنهج باسم المنهج الاستنباطى العينى أو الفزيائى (٢) . (concrete or physical)

وقد كان هذا المنهج نفسه سببا فى وقوع مل فى جملة اشكالات ، وأهم هذه الاشكالات كما أوضحها أنشوتس (٣) أن نظرية الاستقراء قد أقيمت عند مل على نظرية واقعية فى الكليات (بمعنى الواقعية فى العصور الوسطى) ، كما أقيمت نظريته فى الاستدلال على نظرية اسمية .

وهكذا نرى بوضوح الأثر السيىء ، الذى تركه جيمس مل على ابنه جون من ناحية الطموح الفكرى ومن ناحية الاتجاه الفلسفى ، ونرى بوضوح أكبر آثار تمسك جون مل باخضاع كل مقومات تفكيره المنطقى العلمى لنظرية نفسية ضيقة خلال كتابه عن المنطق (٤) .

---

(١) استريت : الفردية والمذهب الفردى ص ٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٥ .

(٣) أنشوتس : فلسفة جون استوارت مل ص ١٣٠ .

R.P. Anschutz : The Philosophy of J.S. Mill p. 130-1953.

(٤) هوفدنج : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ المجلد الثانى ص ٤٠٤ (سنة ١٩٢٠) .

Höffding : A History of Modern Philosophy vol. II — 1920.

الفصل السادس

مظاهر النفسانية المنطقية عند مل

أوقف علم النفس جزءا كبيرا من أبحاثه على دراسة تطور التفكير ووظائفه ، وكان اشتغال علم النفس فى عصر مل كبيرا بهذه المسائل ، وانحاز بعض الفلاسفة أيضا الى التفسير النفسى لمشاكل التفكير وتطور وظائف العقل ؛ فقد بدت هذه التفسيرات أقرب الى طابع العلم فى نظرهم، وكان الاهتمام الفلسفى ذاته أساسا لتفضيل وجهات النظر النفسية بوصفها أصولا منهجية للنظر الفلسفى المشايع لنظريات العلوم الوضعية (١) .

ولم يتردد الوضعيون فى مساندة هذا الموقف ، أعنى أن الوضعيين الذين أبدوا دائما اهتماما خاصا بصحة الفكر العلمى لم يترددوا فى تبنى علم النفس والرجوع اليه والاحتماء بنظرياته خلال مساجلاتهم ومهاجماتهم ضد المنطق (٢) .

وحاول الوضعيون من ثم أن يضموا الى أسلحتهم علما نفسيا ذا طابع واقعى بخاصة حتى يكون أساسا لموقفهم التجريبى ، ولهذا يصعب بل يستحيل فصل هذه الوضعية عن تجريبية جون استيوارت مل ؛ ويؤيد ذلك قول مل عن المنطق : انه لا يكاد يكون علما ، ويعد جزءا أو فرعا من فروع علم النفس مع وجود اختلاف يعادل اختلاف الجزء عن الكل واختلاف الفن عن العلم (٣) .

---

(١) توملين : المدخل الى الميتافيزيقا ص ١٥ :

E.V.F. Tomlin : The Appreach to Metaphysics (1947)

(٢) كولينجوود بحث فى الميتافيزيقا ص ١٤٣ .

R.G. Collingwood : Essey on Metaphysics (1940).

(٣) مل : فلسفة هاملتون ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .

فمن جهة يمكن أن نقول عن النفسانية المنطقية انها وليدة تهجم علماء النفس على ميدان المنطق ، ولكن يمكن أيضا من جهة أخرى أن نلاحظ ظهور النفسانية المنطقية بناء على تزاحم التيارات الفلسفية ذاتها، فالاتجاه الى الوضعية في الفلسفة هو الذى تطلب استئثارها بالنزعة النفسية المنطقية لمناهضة الفرق الفلسفية الأخرى . ولما كانت الوضعية قد أعملت فكرها طويلا فى مشاكل المعرفة فقد اتجهت من ثم الى علم النفس كحيلة مستحدثة من أجل تذليل صعوباتها وتغطية بعض تناقضاتها .

وأظهرت التجريبية بالذات جنوحها الى علم النفس من أجل استخدامه استخداما يفي بحاجاتها فى حقل التحليل . وبحكم رغبة الفلاسفة التجريبيين فى اقامة نظرية صحيحة سديدة ذات قيمة معرفية سعوا الى محو الفروق وتوثيق عرى الروابط بين علم النفس والمنطق ، بل يمكن أن نقول مع كولينجوود Collingwood (١٨٨٩ — ١٩٤٣) : ان هؤلاء الفلاسفة التجريبيين قد ناصروا علم النفس فى هجومه على المنطق (١) .

ومن المعترف به فى المنطق أنه توجد بعض الجوانب التى تلامس ميادين علم النفس ، ونجد دائما فى كل كتب المنطق وعلم النفس المتداولة بين الطلاب ركنا يختص بالفكر المنطقى دون أى احساس بالمزاحمة من أحد الجانبين . وهذا طبيعى ولا موجب لافتراض علاقة بين هذا التلامس فى المجال النفسى المنطقى المشترك وبين النزعة النفسانية المنطقية .

اذ لا ترجع النفسانية المنطقية فى نشأتها الى تداول بعض الموضوعات المشتركة بين علم النفس وبين المنطق ، والأصح أن يقال عن النفسانية المنطقية انها تنتمى الى علم المنطق أو الى اختصاص المناطقة أكثر مما تقع فى دائرة علم النفس . غير أن مصادرها وينابيعها الفكرية وأسسها تتهيأ لدى علماء النفس ، ولذلك يصح القول بأن النفسانية المنطقية تنشأ عن توجيه من علماء النفس لتصبح اتجاها قائما بذاته فى دائرة المنطق .

ولا شك أن مل كان قد بالغ فى اقحام التفسيرات النفسية على مواضع منطقية بحتة كما أوضحنا من قبل (٢) فى محاولته اقحام

---

(١) كولينجوود : بحث فى الميتافيزيقا ص ١٤٣ .

(٢) انظر الفصل الخامس « النفسانية المنطقية » .

الاستنباط على الملاحظة والعكس ، ولكن مبالغته لا تفسر الا بوصفها رد فعل شديدا للاغراق فى اهمال علوم النفس فى منطق كانط (١) .

ولكى نكون منصفين نقول ان نفسانية مل تبدو فى الواقع ذات أهمية وذات قيمة كبيرة اذا وازنا بينها وبين المنطقية البحتة عند كانط ؛ لأن البناء العقلى الشامخ الذى لا يهادن علم النفس ولا يشعر اطلاقا بأنه فى احتياج الى شروحه وتلميحاته يفقد زهوه وطلاه ورونقه . وكأنما أحكم كانط تصميم ذلك البنيان حتى لا ينفذ اليه أى شعاع من الأضواء التى تلقيها علوم النفس عادة على عمليات الذهن ؛ ولا شك أن استبعاد علم النفس استبعادا كليا من منطق كانط قد أسبغ عليه عيبا لا يغتفر (٢) ، ولعل هذا السبب نفسه كان من أكبر الدوافع الى اندفاع مل فى الاعتماد على النفسانية المنطقية .

وقد أبدى مل دائما اهتمامه بهذا الجانب ، كما أظهر فى أكثر من موضع عنايته بتأييد النفسانية المنطقية لكل ما يفترضه من مقدمات ، غير أن علم النفس الذى استخدمه التجريبيون وورثه مل عن أبيه لم يكن على درجة من الدقة تؤهله لأن يفيد علم المنطق بأى شىء .

أو بعبارة أخرى كان علم النفس الذى ورثه مل غير صالح لتلبية أية حاجة من حاجات علم المنطق أو لاستيفاء مطالبه وتفرعاته . حتى مذهب التداعى الذى لقنه أبوه اياه كان خاليا من أية حيوية أو نضج فلسفيين . وكما قال هوفدنج بحق : اهتمت المدرسة الانجليزية ممثلة فى هيوم وفى جيمس مل بالجانب السلبى أو بجانب التلقى كما اهتمت بكثرة العناصر (٣) .

واذا كان مل قد اعتمد على النفسانية المنطقية بسبب الاهمال والتشكك حيال علم النفس كما ظهرا فى الكانطية فقد آثر مل أيضا التمسك بالسلبية والتلقى تخوفا من الوقوع فى القبلية Apriorisme ، اذ قال كانط بوجود تصورات خالصة للفهم وراء التصورات التجريبية أو خلف

---

(١) مانسيل : مقدمة منطقية ص ٦ من المقدمة :

Mansel : Prololegomena Logica

(٢) فريز : نسق المنطق ص ٢٢ .

Fries : System der Logik s. 22.

(٣) هوفدنج : مجمل علم النفس المبنى على التجربة ص ٦٧ .

Höffding : Esquisse d'une psychologie fondée sur l'expérience Paris (1906)

صور الحساسية . ولكي يضمن كانط تتويج الأشياء المحسوسة بالطابع التركيبي أكد وجود مبادىء فطرية خالصة وهي المبادىء الأولية أو القبلية ، وتلك هي مقولات الفهم التي تسمح بتوحيد الاختلاف الحسي توحيدا تركيبيا وفقا للعلاقات الضرورية المؤداة على صورة أحكام كلية .

أما مل فقد رفض كل قبلية أو أولية لهذه المبادىء (١) . ولكي يحافظ على جوهر فكره الواقعي تعمد الابقاء على سلبية العقل من أجل عدم السماح لأي تسلل للمبادىء الفطرية الى مذهبه . وتخوف من اسناد أية فاعلية الى العقل حتى لا يؤدي ذلك الى الوقوع في القبلية ، اذ أن كتابه في المنطق لم يكتب الا لسد فراغ واضح وهو خلو المكتبة من كتاب يقدم وجهة النظر المعارضة للفكرة القبلية السائدة. ويعني مل بما يسميه وجهة النظر المعارضة منطقه القائم على استقاء كل معرفة من التجربة واستخلاص كل الصفات الأخلاقية والذهنية أساسا من اسناد القيادةالى التداعيات (٢) .

ولكن من المؤكد أن ثمة حقيقة أخرى بهذا الشأن تلزمنا بحساب الموقف المؤيد لعدم سلبية الفكر وتقديره على النحو المناسب . ومهما كانت وجهات النظر التي يأخذ بها عالم النفس في اشارته الى الوعي وفي تفسيره لطبيعة الوعي البشري فهو لا يستغني اطلاقا عن اثبات قدر ما من الايجابية في حقيقة وضعه ووظيفته .

ومن المستحيل بعبارة أخرى أن يكون الفكر آليا سلبيا حين يشرع المرء في التفكير . لابد أن يتخلص الفكر من التلقي الآلي للانطباعات الخارجية كي يصبح Intentional قصديا من وجهة نظر المنطق (٣) ، ولاينبغي أن يقف الفكر مقيدا بمعطيات علم وظائف الأعضاء أو الفسيولوجيا وحدها ، ويمكن أن تعيننا في هذا المجال مصادر التحليل النفسي .
L'Analyse Psychologique

وهكذا كان موقف مل . فقد ذهب الى حد تعضيد علم نفس التداعي. وهو لا يتخلى اطلاقا عن أهمية وضع التداعي في المحل الأول في الفلسفة،

---

(١) د . توفيق الطويل : جون استيوارت مل ص ١٤١ .

(٢) مل : سيرتي الذاتية ص ١٩٠ .

(٣) هوسرل : الابحاث المنطقية ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ج ٢ الفصل الخامس .
Husserl : Logische Untersuchungen

غير انه اضطر الى تخطى معنى الاسترجاع البسيط للحالات الشعورية فى استعماله لمدلول كلمة التداعى ، اذ أدى التحليل الى اكتشاف التداعى فى أصل كل الأفكار وفى منبت كل قوالب الفكر وصوره ، فحيثما كانت احداث الحكم فى ذاتها تعتمد على الظروف التى تخضع لقانون السببية (١) كان أساس الأحكام نفسه محتوما بذلك القانون ، فالتداعى اذن هو الفلسفة .

ومما لا شك فيه أن مل اكتشف طريقه معتمدا على التجريبية العلمية، ولكن التجريبية العلمية كانت هى نفسها فى ذلك الحين محتاجة الى يقين غير مبنى على مقياس من عالم التجريد ، واعتمد مل فى توفير ذلك المقياس على قانون العلية بحيث صار يرى فى امكانية العملية الواقعة بالفعل دلالة لعملية أخرى فى حكم الممكن أو المستطاع . ويقوم التحقيق من الاستنباط عادة على مقارنة نتائجه بالقوانين التجريبية المقررة سلفا (٢) .

ولا تعطى الطبيعة أى لا تنتقل عن طريق المعطيات بأكملها بوساطة الحواس ، انما تحصل الحواس على جزء منها فقط بالتداعى ، وهذا الجزء أساس الاستدلال لأى اعتقاد أو مفهوم ، ويمكن بطبيعة الحال أن نقوم بتوجيه التجارب وبالتحكم فى الوقائع العلمية ، وتستطيع المناهج العلمية أن تحصل على أكبر قسط من التجارب والوقائع العلمية .

غير أن النفسانية تريد أن تستدل على امكان قيام دلالة غير سلبية للعبارات والقضايا العلمية ، ولا يتم التجديد للوقائع النظرية فى العلم من جراء تشغيل المنهج وحده ، بل يتم كذلك من امكانية الرجوع الى العمليات التى تحمل دلالات ما ، وبذلك لا يوصف العلم بأن يسعى الى مجرد تجميع انطباعات الحس ، اذ يتخطى العقل نطاق معطيات الحواس ويستدل منها على وجود عالم خارجى برغم أن هذا العالم الخارجى لا يتقدم الينا الا على صورة توافق خام ، ولا يكون موضوعا للاعتقاد عادة فى أية قضية سوى : اما التآنى بالنسبة الى أية ظاهرتين ، واما التتابع بالنسبة الى أية ظاهرتين أخريين ، أى أن الموضوع الذى تتضمنه القضية كاعتقاد لا يعدو أن يكون : أما التآنى أو التتابع ، فهناك مضمون خاص للاعتقاد داخل سياق القضية .

---

(١) ديلبوس : الفلسفة الالمانية ص ٣٣ .
V. Delbos : La Philosophie Allemande (1912)

(٢) مل : المنطق جزء ثان ص ٣٧ ترجمة فرنسية .

وإذا لم تكن القضية مجرد قضية لفظية (١) كان من الضرورى أن تؤكد أو أن تنفى الوجود أو التآنى أو التتالى أو العلية أو التشابه .. ويضم هذا التقسيم الخماسى كل صنوف الحقائق المادية .. على كل ما هو موضوع اعتقاد أو مايصلح لأن يكون موضوعا للاعتقاد ، أى أننا اذا استثنينا القضايا التى لا تعنى الا بمجرد الترديد اللفظى للكلمات كان موضوع الاعتقاد فى أية قضية اما التآنى أو التتابع أو العلية أو الوجود أو التشابه (٢) .

والاسم المجرد أو اسم المعنى اسم لصفة أو لخليط من الصفات . والاسم العينى (أى اسم الذات) المقابل يطلق على أشياء بسبب ومن أجل التعبير عن امتلاك تلك الصفة أو ذلك الخليط من الصفات ، وعندما نضيف محمولا من اسم عينى أو اسم ذات الى أى شيء تكون الصفة بالفعل هى ما نضيفه كمحمول الى ذلك الشيء ، ولكن الواقع كما رأينا من قبل أن كل القضايا التى يكون محمولها اسما عينيا أى اسم ذات انما يكون محمولها فى الحقيقة أحد هذه : اما الوجود أو التآنى أو العلية أو التتابع أو التشابه .

ولا يعدو المحمول بالضرورة أن يكون : اما وجودا أو تآنيا أو علية أو تتابعا أو تشابها . اذا احتوت القضية على موضوع وعلى محمول من لفظين مجردين كان هذان اسمين لصفتين أو لخليط من الصفات ، ووجب أن يكون لهما اسمان عينيان أو اسما ذات مقابلان ، فاذا احتوت القضية على موضوع ومحمول من لفظين مجردين كانت تشمل ألفاظا تشير بالضرورة الى احدى هذه الدلالات الخمس (٣) .

ولنضرب المثل التالى : « عدم التفكير مؤذ » ، فعدم التفكير صفة تنبنى على وقائع نطلق عليها اسم أعمال بغير تفكير ، وتعادل هذه القضية قضية أخرى هى : « الأعمال الخالية التفكير مؤذية » .

خذ أيضا هذا المثل حيث الموضوع والمحمول اسمان مجردان : « البياض لون » أو « لون الجليد بياض » فلما كانت هذه الصفات قائمة على الحواس كانت معادلاتها من القضايا التى تقوم بالتعبير بوساطة اسم الذات : « الاحساس بالأبيض أحد الاحساسات المسماة

---

(١) قضية لفظية مثل « كل انسان فان » ــ مل : المنطق ص ٩٢ (أ) .

(٢) مل : المنطق ، ص ٦٧ (ب) .

(٣) مل : المنطق ، ص ٦٨ (ب) .

احساسات اللون » وكذلك : « الاحســـاس البصرى الناشىء عن رؤية الجليد أحد الاحساسات المسماة احساسات بالأبيض » ، ففى هـذه الأمثلة تكون الحقائق المادية المثبتة حقائق تشابه كما رأينا من قبل (١) .

كذلك يمكن تقرير التشابه بين الظواهر فى قضية مثل هذه : « تعادل حرارة اليوم حرارة الأمس » ولا يدعى المنطق انه يقوم بتحليل الوقائع الذهنية الى أقصى آماد عناصرها ، اذ أن التشابه بين ظاهرتين فى ذاته أيسر ادراكا من أى تفسير يسعى لتقريبه الى الذهن ، ويجب أن يظل التشابه فى ذاته متميزا من أية حالة من الحالات الخمس السالفة .

وبرغم ذلك لا ينبغى أن ننسى أن التشابه نفسه لا يقوم الا بين حدين متتابعين ، اذ أن أخص ما يميز العالم الخارجى هو نظام التتابع بين الأشياء ، فمن بين التفسيرين النفسيين المأثورين فى التراث العلمى البريطانى وأعنى بهما التفسير بالملكات والتفسير بالترابطية أو بالتداعى ـ كان الأخير أكثر قبولا لدى مفكرى الانجليز (٢) .

ومن هنا كان احتضان مل لمذهب الترابطية ولفكرة التداعى سبيلا الى اجادته أكثر ما أجاد فى حقل القياس ، اذ أدت عقيدته فى تفضيل البرهان على الاكتشاف (٣) الى اجادته فى كل ما يتصل بالقياس فى منطقه، ولا شك أن هذه الصفة فى التفرد والامتياز سيصيبها كثير من الشك اذا وضعنا نصب أعيننا تطورات المنطق الرياضى وحساب البديهيات . غير أنها تظل ثابتة بالنسبة الى مل فى نطاق المراحل المنطقية الخاصة به وبالفصول الدراسية .

وكان البرهان منهج مل منذ أول صفحات كتابه حين أحكم تحديد مهمة المنطق بقوله : « لا يقوم المنطق بالملاحظة ولا بالاختراع ولا بالاكتشاف، حسبه أن يحكم وهذا هو كل شىء » (٤) .

ولكن هذا الموقف العام حيال المنطق لم يكن ثابتا عند مل ، ويمكن استخراج مفهومين لوظيفة المنطق على أقل تقدير اذا تغاضينا عن مفهومين

(١) مل : المنطق ٦٩ (أ) .

(٢) فلوجل : علم النفس فى مائة سنة ص ١٣ :

Flugel (J.C.): A Hundred Years of Psychology 1948.

(٣) بين : جون استوارت مل ص ٦٨ . Bain (A.) : J.S. Mill.

(٤) مل : المنطق ص ٥ (ب) .

آخرين لا يتعلقان بموضوع هذا البحث (١) . وكما تأرجح هيوم فى نزعته الشكية بين التواصل والتقطع ولم تسعفه نظريته النفسية بحل .. تأرجح مل هو الآخر خلال صفحات كتابه عن المنطق بين الوظيفة المعيارية وبين المظهر الوصفى للعمليات المنطقية (٢) . ولم تستطع النفسانية أن تخلصه من إشكال الضرورة والسرد الوصفى .

وقبل الأسطر الأخيرة من مقدمة كتابه « نسق المنطق » قال مل : « سيكون هدفنا من ثم محاولة تحليل سير الذهن فيما نسميه بالبرهان أو بالاستدلال تحليلا صحيحا وكذلك العمليات العقلية الأخرى المشابهة التى يراد بها تيسير ذلك ، ثم بالمثل انشاء وتأسيس جملة قواعد وأصول على هذا التحليل من أجل ضمان صحة كل برهان خاص بأية قضية معطاة » (٣) .

ومن ذلك يتضح أن مل أراد أن يحتفظ بالطابع المعيارى بعد أن يمهد له بأرضية ثابتة من النفسانية ، فعلم النفس هو علم الاستدلال على حين تنشأ القواعد الأساسية بوساطة الاستقراء والاستنباط ، وبذلك يمتلك المنطق قواعد عملية تنبع من الاعتبارات النظرية التى يقول بها علم نفس المذهب الترابطى ، فالتحليل الذى يشير اليه مل ضرورة من ضرورات التقدم المنطقى فى عمليات الاستقراء والاستنباط ، ومشكلة الاستقراء هى نفسها مشكلة التحليل كما يقول دوجلاس ، لأن التحليل يحطم تعقد الوقائع الفردية العينية ويحولها الى وقائع أكثر بساطة ثم الى وقائع أكثر بساطة وأكثر عمومية (٤) .

وهذا يعنى أن مل ينظر الى المنطق بوصفه أداة معيارية ، ويؤكد خاصة فكرة الضرورة ، ولكنه يتبنى فى الوقت نفسه موقفا وصفيا للعمليات النفسية فى علاقتها بالاستدلال .

ويعلق مل بهذه المناسبة على نظرية هاملتون قائلا : « الواقع أن تعريف هاملتون يرد المنطق الى فكرة الفن الأشد ضيقا ، أى الى النسق

---

(١) انظر كلامنا فى نهاية الفصل القادم عن صلة منطق مل بنظرية البحث عند ديوى وصلته بحياة الناس فى شئونهم العادية .

(٢) كوبتس (اوسكار ألفريد) تطور جون استيوارت مل ص ٤٨ .

Kubitz (Oskar Alfred) : The development of John Stuart Mill. (1932)

(٣) مل : المنطق ص ٧ (أ) .

(٤) دوجلاس : جون استيوارت مل ص ٧٢ .

البسيط للقواعد ، أى أن تعريفه يضع العلم فى كنف علم النفس ، ويمثل المنطق كما لو كان مجرد مجموعة من الارشادات التى يستعملها المفكرون ويلزم أن يراعوها لا من أجل مجرد التفكير ، ولكن من أجل التفكير الصحيح الصادق ، وبرغم ذلك يبدو لى أن المؤلف هنا يناقض نفسه ويقرب من الحقيقة فى هذه الطريقة الأخيرة للنظر الى المنطق أكثر منه فى الطريقة الثابتة ، واعتقادى أن المنطق هو نظرية الفكر الصادق وليس نظرية الفكر من حيث هو فكر ، وليس المنطق علما متميزا من علم النفس وانما هو من الرتبة نفسها ، بل ان المنطق أبعد ما يكون عن أن يعد علما وليس سوى جزء أو فرع من علم النفس يختلف عنه من ناحية ، كما يختلف الجزء عن الكل ، ويختلف عنه من ناحية أخرى كما يختلف الفن عن العلم . ويستمد المنطق كل أسسه النظرية من علم النفس ، ويحتوى على كل ما هو ضرورى من أجل تبرير قواعد الفن . ولا يحتاج المنطق الى معرفة علم الفكر الا من أجل التماس شىء واحد منه ، وهو معرفة الاختلاف بين التفكير الصحيح والتفكير الخاطىء . وينتج عن ذلك أن قوانين الفكر الضرورية تصبح ــ بغير أدنى علاقة بالنسبة الى علم المنطق وتنتمى الى علم النفس دون غيره » (١) .

ولا يسعنا هنا الا أن نكتشف قصد مل من الربط الدائم بين التجريب وبين التحليل . والتحليل فى الغالب استعاضة عن عملية ادخال المرئيات فى نطاق المنظور العقلى لدى الفلاسفة الذين لا يتقيدون بالفلسفة المادية . التحليل عند مل تضمين الأشياء استدلاليا ، وهو يشير دائما خلال منطقه الى هذا التحليل بوصفه وسيلة التقدم المعرفى ، وليس التحليل مجرد تأمل وتصنيف للظواهر ، بل هو أيضا وسيلة لفصل الوقائع داخل الفكر وفى الطبيعة (٢) .

اذ أن جيمس مل قد استمسك بانطباعات علم نفس الترابط بالمعنى الخام . لم يفترض علم نفس الترابط أو التداعى عند جيمس مل عملية التنقية اللازمة خلال التتبع الوصفى . ومن شأن ذلك أن يعطل التقدم فى معرفة تفاصيل العمليات . « اذ انه فى الأشياء البعيدة بعدا شديدا عن الحس الخارجى ــ لا يقوى أحد على حل التداعى المتين المتماسك بغير

---

(١) مل : فلسفة هاملتون ص ٤٣٧ ــ ٤٣٨ .

(٢) مل : المنطق ــ جزء أول ص ٤١٥ (ط . ف .) ذلك أن مبدأ التداعى يوجد فى النشاط الداخلى على الأقل بنفس درجة وجوده فى الاحساسات وفى دواعيها وأسبابها الخارجيــة .

تجربة كبيرة في مجال التحليل . واذا لم تتوافر عادات التحليل بالدرجة المطلوبة فسيصعب التوصل الى أحد الأحكام العادية للناس على موضوعات شديدة التجريد » (١) .

فالتحليل اذن هو الوسيلة التى يتخلص بها العقل من الانطباعات الظهرية الأولى ، اذ تخلق انطباعات الحواس في فكر الانسان عادات معينة تؤدى الى انعكاسات غير صحيحة بالضرورة .

ويقوم التحليل ثانيا بوظيفة أخرى هى ربط الاستدلال بالأشياء لا بالمصطنعات الظاهرة ، فليس المهم بالنسبة الينا الامتداد واللون المدركين بالعين ، بل المهم هو الشيء الذى تشهد هذه المظاهر المرئية على وجوده. وعندما يكون الاحساس مطبوعا على عدم المبالاة كما هى حاله عادة ــ لا يكون عندنا أى دافع للانتباه الى الشيء موضوع الاحساس ، ونحصل من ثم على العادة التى تعبر بنا دون وعى متميز وتذهب بنا الى الاستدلال توا .

يتقاسم التجربة عند مل اذن عاملان :

١ ــ تنظيم ناتج عن شهود الوقائع (يشهد ويصنف) .

٢ ــ فعل عقلى للتضمين (يضمن الأشياء الحقيقية فى وحدات) .

ففيما يتعلق بالعامل الأول تبين بوضوح فى نظر مل منذ نشر كتاب والده جيمس مل عن تحليل العقل البشرى أن الاقناع أو البرهان ينقسم قسمين :

الأول معيارى ، والآخر يتعلق بما ينتج عن الاقناع أو البرهان . ومادام الأمر متعلقا بتحديد اثر الاقناع أو البرهان كان ذلك دليلا على وجود عامل نفسى أساسى (٢) .

فمن وجهة النظر هذه يقوم التحليل بتعديل المسبب من أجل اكتشاف السبب الحقيقى وتصنيف الوحدات وفقا لاستدلال صحيح ، ويتم التعميم من ثم وفقا لعلاقات نكتشفها عند تطبيق الصيغة المشهورة عن مل : « كل ما يحمل علامة يحمل أيضا مصدر علامته » (٣) .

---

(١) مل : المنطق جزء ثان ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦ (طبعة فرنسية) .

(٢) جيمس مل : تحليل العقل البشرى ص ٤٣٥ بصدد الكلام عن التوقع النفسى ازاء تناسق الطبيعة .

(٣) مل : المنطق جزء أول ص ٢٠٣ (طبعة فرنسية) .

يعمد التحليل الى الوقائع فيؤلف بينها ويبحث فيها الاقناع والبرهان، وبعبارة أخرى يعين التحليل نفسه على مقاومة الأخطاء المتبقية من التداعى . وبرغم ذلك يقوم التحليل أيضا باستبدال الاحساسات بالأشياء الموجودة فعلا .

ولاحظ أوسكار كوبيتس مؤلف كتاب تطورجون استيوارت مل ازدواج دلالة التجربة لدى مل ، فقال كوبيتس عن مل : ان منطقه مبنى بكل تأكيد على التجربة . هذا صحيح . ويمكن الوثوق من بعض التجارب وبلوغ درجة الاطمئنان الثابت بوساطة هذه التجارب ، ولكن بعض هذه التجارب الآخر يحتاج الى فحص ونظر ودراسة عن طريق معايير معينة (١) ، فبعض التجارب يكفى وبعضها الآخر يحتاج الى الارتباط بمعايير معينة لاتمام صلاحيتها لتحصيل اليقين والاطمئنان الثابت .

وكى نفطن الى الدور الذى أداه التحليل النفسى عند مل وخاصة عند ارتباطه بمدلول التجربة يحسن أن ننظر أولا فى الاستخدامات الفلسفية والنفسية للمصطلح الذى نشير اليه بذلك الاسم ، ونعنى به التحليل النفسى ، اذ يختلف التحليل بمعناه فى علم النفس البحت الذى تشير اليه كلمة Psychanalyse عن التحليل النفسى فى الاطار الفلسفى والنفسى والمعرفى .

ويقوم هذا التحليل النفسى الأخير Die Psychologische Analyse بتحليل النشاط الخاص بانطباعات الادراك الذاتى أو الاستشعار Apperzeption هكذا عرفه فيلهلم فونت (٢) W. Wundt (١٨٣٢ — ١٩٢٠) . وكان أول من استخدم لفظة الاستشعار ليبنتس Leibniz (١٦٤٦ — ١٧١٦) فى كتابه عن مبادىء الطبيعة والانعام الربانى (الفصل الرابع) (٣) حين فرق بين ادراك الأشياء الخارجية sufmerksamkeit وبين الاستشعار فى أثناء حالات

---

(١) كوبيتس : تطور جون استيوارت مل ص ٥٤ .

(٢) فيلهلم فونت : المجمل فى علم النفس ص ٣٠٣ (ظهر سنة ١٨٩٦) .

Wilhelm Wundt : Grundriss der Psychologie, 1922.

ويقال أشعره الأمر أى أخبره به ، فالاستشعار يعنى الشعور بالشعور بأمر ما ، وهو أقرب ما يكون الى الآنا أفكر عند ديكارت بوصفه تعبيرا عن الاستشعار — وانظر ميتافيزيقا كانط تأليف دافال ص ٣٠٠ .

(٣) انظر ريونز : قاموس الفلسفة : مادة . Apperception

الشعور المختلفة Apperzeption ، وأدخل هربارت Herbart تعبير التحليل النفسي بهذا المعنى فى علم النفس ذاته (١) .

وقد فضلنا هاهنا ترجمة Apperzeption بالاستشعار للاشارة الى العملية الايجابية التى يقوم بها الذهن عند استشعار حالاته . وتوافق كلمة استشعار المعنى الايجابى الذى أشار اليه مين دى بيران Maine de Biran ١٧٦٦ ــ ١٨٢٤) حين قال : « سأطلق لفظه aperception على كل انطباع تستطيع (الانا) أن تتعرف فيه على نفسها كسبب منتج حتى يتميز من الأثر الحسى الذى يتحدد بفعله » (٢) . ويفضل البعض اسم الادراك الذاتى .

ويبدو أن مل قام بتعريف مهمة التحليل النفسى بالمعنى الذى حددناه خلال عرضه لنظرية هاملتون ، فقال ان منهج علم النفس التحليلى يهدف الى اكتشاف عناصر الشعور الأولية (٣) ، وحاول مل استغلال التحليل استغلالا منهجيا بحيث يصل عن طريقه الى مكونات الوعى أو الشعور الداخلية فى حالاتها البدائية ، وبذلك يعارض موقف كانط Kant (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) الشائع حين ذاك (٤) ، فقد كان كانط يجعل من الاستشعار Apperzeption مصطلحا يشير الى وحدة الوعى بالذات التى تنتمى اما الى (الأنا) التجريبية (فى الاستشعار التجريبى empirische Apperzeption) أو الى (الأنا) الخالصة (فى الاستشعار الترنسندنتالى transzendentale Apperzeption) ويحدد كانط للاستشعار الايجابى دورا من حيث هو استشعار أولى ، ثم دورا آخر بوصفه استشعارا ترنسندنتاليا لا يتم الا قبليا .

أما مل فيتابع منهج علم النفس التحليلى من حيث هو تكوين مجموعات عناصر الشعور البدائية حتى يقف على تأثير قانون هذا التكوين الذى يشبه فى دوره قانون الترابط الكيميائى كما شرحه هارتلى (٥) David Hartley

---

(١) هربارت : علم النفس كعلم
Psychologie als Wissenschaft, von Herbart (Johann Friedrich) 1776-1841.

ليس هذا ادراكا ذاتيا بل المعرفة الانعكاسية للباطن .

(٢) راجع ايسلر : قاموس التصورات الفلسفية جزء أول ص ٧٨
Eisler (Rudolf): Wörterbuch der Philosophischen Begriffe, 1927.

(٣) مل : فلسفة هاملتون ص ١٦٨ (طبعة فرنسية) .

(٤) كانط : نقد العقل الخالص ص ١٠٦ .
Kant : Kritik der reinen Vernunft (1781)

(٥) هارتلى : ملاحظات عن الانسان
Hartley : Observations on Man, 1749.

(١٧٠٤ — ١٧٥٧) أو قانون نيوتن Newton (١٦٤٢ — ١٧٢٧) في الفلك . ويمتد هذا القانون ، فيشمل كل حالات الشعور أو الوعى التى تقبل الاتحاد عن طريق التداعى بالاقتران أو التداعى بالتشابه (١) .

وكما لاحظ بروشار (٢) بحق لم يكن يحل لأحد أن يضع التداعى بالتشابه جنبا الى جنب مع التداعى بالاقتران كقانونين أصليين الا بعد افتراض شيء آخر سوى العادة والتجربة ، أى أنه من الضرورى افتراض ملكة تمييز للتشابه وإعطاء الفكر ملكة الحكم قبل اقرار التشابه كقانون أصلى من قوانين التداعى . ولكن لا يعدو نقل المدركات من مرحلة الانطباع الأولى الى مرحلة التمييز أن يكون من صميم الدور الذى يقوم به التحليل ؛ فالتحليل هو الملكة التى كانت تنقص تفسيرات أصحاب نظرية التداعى النفسى من أجل وضع التشابه كقانون ثالث من قوانين التداعى الأصلية الى جانب قانونى العلية والاقتران .

لقد كانت نظرية التداعى عند جيمس مل محصورة فى نطاق ضيق : كانت نظريته ترد كل صور التداعى الى الاقتران وحده ، فأيد مل الابن أصالة التداعى بالتشابه ضد موقف أبيه ، بل كما يقول هوفدنج : يمكن أن تكون هذه الخطوة رد فعل قويا ضد روح الصرامة التى تمسكت بها نظرية علم نفس التداعى عامة أو مذهب الترابطية (٣) .

وقد حاول كل من لوريه وفيزنييفسكى دراسة العلاقة بين هذه الأفكار وبين آراء دى كوندياك بهذا الشأن ، فقال لوريه أن نظرية الانتباه لدى مل ليست سوى نظرية دى كوندياك معدلة على النحو الذى يجعلها تتكيف وتتلاءم مع فلسفة الترابطية (٤) . على حين صرح فيزنييفسكى بأن ديفول (٥) يبالغ فى اكتشاف العلاقات كما بدت له بين تفكير مل وبين

---

(١) فيزنييفسكى : الادراك الخارجى لدى مل وتين ص ٢٥ .

Joseph Wisniewski : Etude historique et critique de la perception exterieure chez Mill et Taine, 1925.

(٢) بروشار : قانون التماثل فى تداعى الأفكار ص ٤٤٦ وما يليها .

Brochard : de la loi de la similarité dans les associations d'idées.

(٣) هوفدنج : تاريخ الفلسفة الحديثة . جزء ثان ص ٤٣٤ — ٤٣٥ .

(٤) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ٦٥

Lauret (Henri Jacques) : La Philosophie de J.S. Mill., 1885.

(٥) ديفول : كوندياك وعلم النفس الانجليزى المعاصر .

Dewaule : Condillac et la psychologie anglaise Contemporaine 1891.

تفكير دى كوندياك ؛ ذلك أن التحليل عند دى كوندياك يحمل أساسا معنى منطقيا . وبينما يظل التداعى عند مل ظاهرة آلية بحتة تحدث فى فكر سلبى برغم كونه أصل الحياة العقلية بأكملهـــا .. يبقى ترابط الأفكار خاضعا لدى دى كوندياك لتداع ارادى متعقل مبنى على فكر ايجابى مزود بملكة الحكم (١) .

عند مل وعند دى كوندياك Etienne de Condillac (١٧١٤ — ١٧٨٠) ليست الحياة النفسية سوى نظام آلى يمكن حله وتفكيكه قطعة قطعة حتى تتيسر اعادة تركيبه فيما بعد ، ولكن التحليل عند دى كوندياك صعود الى أصول الأفكار ومتابعة توالدها ومقارنتها بكل علاقاتها الممكنة ، ويكمن سر التحليل فى تواصل الأفكار سواء عن طريق الرموز أو فيما بينها وبين نفسها ، ويكون الخليط الذى يتضح فيه الوصل متفقا مع توالد الأشياء نفسها ، ولهذا يقال : ان تفكير دى كوندياك يشمل التداعى والاتصال الحقيقى بين الأفكار معا فى هذه النقطة (٢) .

أما مل فيؤدى منطق مذهبه الى الوصف الحدثى للعقل أى الى وصف وقائع الذهن أكثر مما يؤدى الى بناء التفسير المنطقى (٣) . وأيا يكن أمر التحليل عند مل فسيظل العالم المرئى دائما نقطة البدء بالنســـبة الى التجريبية العلمية عنده . ويقودنا التحليل من ثم الى تناول معنى الوعى ذاته ، فجون مل يستخدم الوعى أو الشعور consciousness بنفس المعنى الخاص بكلمة الحدس الحسى Intuition ، ويضع مل هاتين الكلمتين عادة : الوعى والحدس الحسى موضع الترادف ، ويعنى بهما نفس الشىء (٤) . وحين يتكلم مل عن العمل العقلى أو نشاط الفكر أو عن تركيز الذكاء فانما يقصد دائما نفس المعنى الذى يقصد به احساسا أو فكرة رئيسية بمثابة مركز للتجمع فى الوعى (٥) .

وتتكون المعرفة لا من أفكار فى ذاتها ، وانما من أفكار مركبة ومنظمة داخل الذات ، ففى هذه الذات فقط يتوافر للمعرفة الوجود والدوام ، وليست الذات النفس أو الفكر مجردين بل هى النفس أو الفكر كما يوجدان بالفعل فى التركيب المعرفى بحيث يمكن أن تصبحا موضوع تفسير . واذا

---

(١) فيزنييفسكى : دراسة تاريخية ونقدية لنظرية الادراك الخارجى لدى مل وتين ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) فيزنييفسكى : نفس المرجع ص ٣١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٨ .

(٤) مل : سيرتى الذاتية ص ١٩١ . ونرجو ملاحظة معنى الحدس هنا .

(٥) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ٦٥ .

تكلمنا عن الأفكار أو عن حالات الوعى كنا كمن يجرد النفس من تركيبة المعرفة ، وهذا هو أخص ما يهم وجهة النظر النفسية (١) .

فالمعرفة والسلوك من آثار الحقائق الواقعية خارج النفس البشرية ، بل أن الفكر والعمل ينشآن بالفعل عن العالم الخارجى وانعكاساته وآثاره على النفس ، ويجعلنا تداعى الأفكار نحكم بأن الأشياء التى لا نستطيع أن نتصورها منفصلة غير قابلة للانفصال ، ويبدو لنا اعتقادنا فى آنية هذه الأشياء كما لو كان حدسيا على حين انه فى الحقيقة ثمرة من ثمار التجربة (٢) .

وتصطبغ التجريبية العلمية عند مل بالحتمية ، بل ان الارتباط بين الفكر وبين التجربة اقوى فى مذهبه الى حد يجعل منطقه منطق التجربة ذاتها ، ولهذا اذا بدت منه فى بعض الأحيان نظرات خالية من تصورات المنطق ــ فذلك لأنها تتبع عرف الأشياء السائدة ، ويتضمن منطق التجربة وصفا لوقائع الطبيعة طالما كان هذا الوصف ذا انعكاسات ظاهرة فى ايحاءات علاقات الفكر وعملياته (٣) .

وأول خطوة من خطوات ظهور المعطيات فى الشعور أو فى الوعى خطوة النظام أو الربط Connexion الذى تظهر الأشياء فيه مربوطة فعلا ، ويمثل هذا الترابط الواقعة الوحيدة التى يمكن اثباتها بما يتداعى فى التجربة ، بل ان الأشياء نفسها لا تخضع للمعرفة بطريقة موضوعية على نحو ما تخضع أواصر الترابط نفسه .

وقد اعترف هارتلى وجيمس مل بأن علم النفس يجب أن يضاف الى الجزء الخاص بالبرهان أو بالاستنباط الذى ينبنى عادة على مصادر طبيعية ، ذلك أن نظام الحواس هو هو نظام الأشياء ، ويؤيد مل ذلك ويؤكده معتقدا أن العلاقات نفسها ليست سوى صور للتداعيات ، فعلم نفس التداعى متمثلا فى مذهب الترابطية هو العلم الطبيعى الخاص بالنفس كشىء قائم بذاته .

والواقعة الأولى فى لغة مل هى أيضا واقعة ، والعلم علم بالجزئى ، فالجزئى وحده ينشىء الحقيقة . ولما كان البرهان أهم جانب فى المنطق

(١) دوجلاس : مل ص ٣١ .

(٢) مل : فلسفة هاملتون ص ٢١٣ . والآنية هى التعاصر الحدثى او الوقوع فى وقت واحد .

(٣) كنيدى : التجريبية النفسية عند جون استيوارت مل ص ٩ .
Gail Kennedy : The psychological empiricism of J.S. Mill., 1928.

كان من الضرورى من ثم النظر فى الوقائع من حيث يثبت بعضها بعضا . وليست النفس هى التى تؤسس العلم بمساعدة الوقائع ، بل تؤسس الوقائع نفسها العلم داخل النفس ، وتنظم نفسها بنفسها وفقا لطبيعتها الخاصة فتصير علما وبرهانا (١) .

ولا ينبغى أن نفهم حقيقة الوقائع هنا فى التجريبية العلمية بنفس معنى حقيقة الأشياء فى ذاتها . هذا أقل ما يجب من أجل انقاذ منطقية المنطق عند مل ، والأفضل الا يقال عن منطق مل أنه منطق واقعى — كما يلاحظ ذلك بروشار — وانما هو منطق حقيقى يتعامل بالأشياء لا بالأفكار . وليس لدينا سوى الاحساسات أو الصور الناتجة فينا مباشرة نتيجة ملامسة الأشياء ، أو ليس لدينا سوى متعادلات أو تقريبات كأصح ما يمكن أن يكون للأشياء نفسها (٢) .

ولما كانت الحالات الشعورية ذات صفات معينة تقربها قربا شديدا من طبيعة الحقائق والأشياء المرئية تيسر أحيانا على الكثيرين وضع هذه الحالات الشعورية فى مصاف الأشياء نفسها .

فحالات الشعور مباشرة وأولى بل وعينية ومعطاة .. وهذا أدعى أحيانا الى النظر اليها بوصفها نفس الأشـــياء أو بالذات ما يجيب عن تساؤلنا بحيث تتميز من ابتكارات وأخلاط تقوم النفس بتكوينها مؤخرا عن طريق التوحيد فيما بينها . أى أن هذا الوضع يميزها من الحالات التى تقوم النفس فيها بتركيب المشاعر ابتداء من تلقائيتها البحتة .

أو باختصار يمكن أن نقول عن التجريبية العملية أنها تكتشف نشاط النفس خلال التجربة ، فتؤكد هذه التجريبية العلمية أن التصور أو المدرك العقلى ليس مبدئيا سوى مجموعة امتثالات جزئية أو جملة احساسات متقابلة ، وتؤكد أيضا أنه لا يوجد فى العقل أكثر مما يوجد فى الحواس ، بل تتجه التجريبية العلمية بكليتها نحو تدريج التصورات شيئا فشيئا الى أن تقترب أكثر ما يمكن من الامتثال الحسى (٣) .

وهكذا نرى أن النفسانية المنطقية قد تحالفت مع التجريبية العلمية

---

(١) بروشار : دراسات فى الفلسفة القديمة والحديثة ص ٣٧٨ .
Brochard: Etudes de Philosophie ancienne et de philosophie moderne, 1954.

(٢) بروشار : المرجع نفسه ص ٣٦٨ .

(٣) داربون : التفسير الميكانيكى والاسمية ص ١٥٠ .
Darbon : L'explication mécanique et le nominalisme, (1910)

من أجل تقديم أبسط تفسير ممكن لحركات النفس البشرية وطرق استجابتها وتعاملها مع الظواهر الخارجية . وأيا يكن هذا التفسير فقد أمكنه الافادة من نظريات بركلى وهيوم مع تجاوز لكل مواقف جيمس مل وهارتلى ازاء مشكلات النفس البشرية وهى تواجه الأحداث الجارية فى العالم .

وأدى التحليل لدى جون استيوارت مل أقوى دور يمكن أن يعوض عن تفسيرات الكثير من النظريات السائدة فى عصره ، ولكنه لم يستطع أن يوفى أى مطلب من مطالب الميتافيزيقا على حد تعبير دوجلاس (١) . ولعل هذا نفسه غرض مل .

---

(١) دوجلاس : جون استيوارت مل ص ٣١ .

الفصل السابع

التجربة والجبرية

لا تتضح فى هذا الفصل الجديد معالم النفسانية المنطقية بحذافيرها ، ولكن تتضح معالم النفسانية عموما ، وكنا قد فصلنا فى الفصلين الرابع والسادس من هذه الدراسة بين النفسانية وبين النفسانية المنطقية على أساس أن الأولى قد تظهر فى كل أبواب المعرفة وفى كل فروع العلم على حين لا تظهر آثار النفسانية المنطقية الا فيما يتعلق بالنظريات المنطقية وبالتفسيرات العقلية للعمليات الذهنية فقط .

فهناك نفسانية اجتماعية ، وهنـــاك نفسانية أخلاقية ، ونفسانية علمية ، ونفسانية تاريخية ؛ وتتمثل النفسانية بمعناها الواسع فى كل هذه الفروع المعرفية ، أما اذا تدخلت النفسانية فى مفاهيم المنطق فقد تسمت اذن باسم النفسانية المنطقية ، واذا تسمت النفسانية باسم المنطقية كان معنى ذلك أنها تؤكد موقفا خاصا داخل قضية المنطق وعلم النفس .

وبعد أن مررنا بفكرتى الموضوعية والآخر فى الفصل السابق وجدنا أنفسنا ازاء مشـــاكل ليست من صميم المنطق وان كانت تتفرع عن موضوعاته الأصلية ، وهى لذلك تمس النفسانية بمعناها الأوسع الذى يشمل المعارف كافة ، ولا يقف عند حد المفهومات المنطقية .

اذ صار من الضرورى الآن وقد بلغنا هذه المرحلة أن ندلى بدلونا فيما يتعلق بعلاقة قوانين الطبيعة بالكائنات الانسانية ــ أو على وجه التحديد ــ بعقول هذه الكائنات البشرية ، وآن لنا أن نتساءل مع مل : « هل تخضع افعال الناس ككل الأحداث الطبيعية لقوانين ثابتة » .

فاذا كان جسدى حركة نحو العالم كما يقول موريس ميرلوبونتى فى كتابه عن ظاهرية الادراك فمن الضرورى من ثم أن أعرف الى أى حد يكمن العقل فى هذا الجسد (الذى هو جسدى) والى أى حد يمكنه أن يتصرف فى ظل التوافق الخارجى .

ومن هذه الناحية ينغمس علم النفس فى دائرة الواقع ، فبدلا من أن تظل أعمال علم النفس محصورة فى نطاق المنطق مع التصورات والأحكام تنطلق هذه الأعمال لتمس الأنظمة الاجتماعية وهياكلها وأوضاعها من ناحية أخرى ؛ ذلك أن النفسانية هنا تتدخل فى طبيعة العلوم الأخلاقية للأسباب التى اعتادت أن تتدخل النفسانية المنطقية من أجلهـا فى فروع النظر المنهجى والأساس المنطقى لعمليات الفكر ، أو بعبارة أخرى بدلا من أن تستنفد النفسانية طاقاتها فى مجال العلاقات العقلية ومجال التصورات تمتد آثارها الى مستوى التعقيدات الاجتماعية . وتسعى من ثم فى كل حالاتها الى التخلص من فكرة الضرورة التى توحى بها القواعد الاعتقادية الى عقول الناس . وهى — أى النفسانية — تضرب عادة عرض الحائط بالتعميم القاطع وتقحم بدلا منه الوضع الفردى .

وكان كانط — فى رأى سرس — فيلسوفا نفسانيا بكل معانى الكلمة (١) . وأبدى هردر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) أسفه الشديد على ان علم النفس التجريبى لم يستهو كانط ولم يجذبه الى ميدانه ، ولكن من المؤكد أن مفهومه عن علم النفس كان سلبيا وأن علم النفس بقى معزولا داخل نسقه الفلسفى بالنسبة الى الميتافيزيقا والمنطق والأخلاق وعلم الجمال . بل وأكثر من ذلك أنه يصعب عادة ادخال علم النفس بالذات فى ميادين العلم بالمعنى العام ، أى أن علم النفس يتخذ لنفسه مجالا بين العلوم بمعناها الأخص (٢) . ولما كان كانط بخاصة من هواة تحديد الشروط والتعريفات واقامة المفهومات فقد صعب عليه من ثم تطبيق هذه الهواية على علم النفس كما كان شائعا حين ذاك على الأقل ؛ ولهذا السبب أيضا استنتج كانط أن علم النفس ليس علما دقيقا .

ولكى يصبح علم النفس علما دقيقا يجب أن نفرض على الوعى سببية صارمة شبيهة بتلك التى نطبقها على العلوم الطبيعية بينما علم النفس جزء من الميتافيزيقا (٣) . غير أن الأصل الذى تنبع منه معطيات علم النفس ومعطيات الميتافيزيقا يباعد بين كل منهما فعلا .

---

(١) نظر مل الى التصورات المنطقية بوصفها مجملات ناتجة عن تطبيق ملكة الحكم على الواقع . راجع

Serrus : L'Esthétique Transcendantale et la Science Moderne, p. 180.

وراجع ص ٨٧ من هذا البحث كذلك .

(٢) كانط : نقد العقل الخالص ص ٣٣٤ (ترجمة باكوه الفرنسية) .

(٣) بوتروه : فلسفة كانط ص ١٦٩ .

Emile Boutroux : La philosophie de Kant.

ولكن هل من الممكن أن نفرض ضرورة سببية على العقل البشرى كما هى مفروضة فرضا على الطبيعة . ؟

اذا لم يكن هذا التساؤل ضربا من ضروب النفسانية فهو يتضمن على الأقل هجوما مباشرا على الايقانية التقليدية ، وعلى الرغم من أن كانط لم يستسلم أمام استهواء علم النفس فقد أثار أول شك حيال اشتغال الذهن اشتغالا آليا ، أى أنه صاحب أول لفتة الى نقد ميكانيكية العقل (١) . بل لقد أدت ملاحظة كانط من هذه الناحية الى تشجيع النفسانية بخاصة على التقدم فى دفاعها عن مبدأ حرية العقل عند مل بالذات .

الواقع أن أمل العقل فى الخلاص من اضطراب الامتثالات لا يتحقق الا فى مناسبة واحدة له وهى مناسبة تواؤمه مع الفهم ، ذلك أنه اذا كان العقل هو الصورة الكلية فالفهم ينتج من ايجاد علاقة بين هذه الصورة الكلية وبين المكان والزمان والحدس الحسى ؛ ولذلك فالفهم لا يستطيع أن يصبح متكافئا مع العقل لأنه – أى الفهم – يشارك من ناحية فى لانهائية العقل ، ومن ناحية أخرى فى محدودية الحدس (٢) .

واذا كان الأمر كذلك فكيف يمكننا أن نوائم بين معطيات علم النفس وبين قواعده ؟

اذا كانت « الأنا » بوصفها كائنا عاقلا تحدد موضوع علم النفس (٣) فلابد من تحويل هذا الموضوع الى موضوع حاضر فى كل فكر ومستقل عن كل تجربة ، ويصبح هذا جائزا وميسرا اذا فصلنا الاستشعار عن الحس الذاتى (٤) .

والاستشعار فى ذاته مبدأ امكانية المقولات التى لا تمثل سوى تركيب أشتات الحدس (الحسى) طالما كانت الأشتات لا تعثر على وحدتها ولا تكتمل لها وحدتها الا عن طريق الاستشعار ؛ وبذلك يحق لنا أن نقول – أعنى لكانط أن يقول – ان الشعور بالنفس اذن عموما – هو امتثال ما هو شرط لكل وحدة مع كون هذا الشعور بالنفس ذاته غير مشروط (٥) .

---

(١) سرس : الحساسية الترنسندنتالية والعلم الحديث ص ٦٠ – ٦٢ .
Ch. Serrus: L'Esthétique Transcendantale et la science moderne, Paris 1930.

(٢) لالاند : معجم الفلسفة ص ٨٦٢ هامش بقلم بيكوه .

(٣) الكوجيتو أو الأنا افكر الديكارتى مجرد واقعة لا تحتوى فى ذاتها على أى وجود ترنسندنتالى فى نظر كانط . (راجع : بوتروه : فلسفة كانط ص ١٧٨) .

(٤) سميث : دراسات كانطية ص ١٢٢ .

(٥) كانط : نقد العقل الخالص ص ٣٢٤ (ترجمة باكوه الفرنسية) .

يوجد اذن « ذات » محددة (بكسر الدال الأولى) وهى الفكر المتميز من « الذات » المحددة (بفتح الدال الأولى) أى الذات المفكرة . ونبلغ درجة الفكر عن طريق التجربة الذاتية . والواقع أن الادراك الذاتى والاستشعار كليهما معارف التجريب عامة ، وهذا أدخل فى باب البحث عن امكانية كل تجربة وهو بحث ترنسندنتالى تماما (١) .

ويدخل المبدأ النفسى (أنا أفكر) فى دائرة هذه الطبيعة الترنسندنتالية للذات المفكرة (الفكر) التى تعرف كل الأشياء فى وحدتها المطلقة الخاصة بالاستشعار . ولا يمكن أن يضم الفكر اذن سوى صفات ترنسندنتالية للأشياء ، ويصير بذلك الصيغة أو العبارة الوحيدة فى علم النفس العقلى ، ذلك أن أى صفة تجريبية لفكرى كفيلة باستبعاد كل أثر للعقلية البحتة أو الخالصة . واذا اختلط أقل عنصر تجريبى لفكرى بمبادىء علم النفس العقلى المعرفية فلن يبقى علم النفس العقلى كما هو ، وانما سيصبح علم النفس التجريبى ، ويكفى هذا الموقف اظهار اكتمال علم النفس الذى ينجم عن مفهوم منطقى خاص بالضرورة .

يمكن فى نظر كانط أن نواجه علم المنطق من ناحيتين الأولى بوصفه منطقا للاستعمال الخاص بالفهم . ويحتوى المنطق الأول على القواعد الضرورية ضرورة مطلقة للفكر ، وهى التى بدونها لا يمكن استخدام الفهم ، وعلى ذلك فهو يتعلق بالفهم بغض النظر عن تنوع الموضوعات التى يمكنه أن يطبق عليها .

أما المنطق بوصفه منطقا للاستعمال الخاص بالفهم فيحتوى على القواعد التى يجب اتباعها للتفكير تفكيرا مضبوطا بشأن نوع معين من الموضوعات ، ولهذا يحق لنا — أو يحق لكانط — أن نسمى المنطق الأول منطقا أوليا وأن نسمى الثانى منهجا أو آلة (Organon) لهذا العلم أو ذاك (٢) .

ولا يستعير المنطق الثانى شيئا من علم النفس ؛ وبينما يحرص كانط على ابعاد كل عنصر نفسى من المنطق الترنسندنتالى نجده مدركا العلاقة متقاربة ومحددة بين المنطق العام وبين علم النفس (٣) . ولكن مع

---

(١) كانط : نقد العقل الخالص ص ٢٧٩ (ترجمة باكوه الفرنسية) .

(٢) كانط : نقد العقل الخالص ص ٧٧ (ترجمة باكوه الفرنسية) .

(٣) بوخنر : دراسة لعلم النفس عند كانط بمجلة علم النفس — ص ٢٦ — ٢٧ من عدد رقم ٤ فى يناير سنة ١٨٩٧

Buchner (E.F.) : A study of Kant's psychology, The psycholoical Feview, (January, 1897).

الأسف كان علم النفس فى عصر كانط مثبطا لذكاء كانط الدقيق الطموح ، وعلى العكس من ذلك كان علم المنطق يبدو أكثر العلوم اكتمالا ومتانة فى عصره (١) . ولعلنا نلاحظ أيضا أن علم المنطق كان يمثل فى تلك الفترة علم القواعد الصارمة المجردة التى تؤدى الى اكتشاف الحقيقة ، وفى هذا كله يصبح مجال علم النفس ضئيلا ان لم ينحصر فى نطاق مفهوم ضيق خاص بالآلية الذاتية وبالحقائق ذات العلاقات الدقيقة .

غير أنه من الملاحظ برغم ذلك أن علم النفس صار ذا أهمية كبيرة فى ميدان المنطق عندما تخلص هذا العلم الأخير من كيانه القديم ، ذلك أن تعريف المنطق الكلاسيكى قد بلى مع الزمن ، وأبدى علم النفس استعداده لانقاذ الموقف ، وأعلن قدرته على تقديم مساعدة جادة فى هذا المضمار ، وأدرك كانط أن الضرورة العقلية فى التفكير على هذا النحو أو ذاك يجب أن تكون ضرورة مفروضة من قبل الوعى على الفكر كما لو كان موضوعا من الموضوعات (٢) .

وعلى ذلك تصبح الضرورة الاستنباطية جزءا من الذهن لا جزءا من الموضوعات التى يتناولها الذهن ، وبالتالى تكون ملكة الحكم ملكة خاصة بالقواعد لأنه يمكنها بهذه الصفة وحدها أن تنتج النتائج التى تنتجها فعلا، وهى العبارات القادرة بالضرورة على التكامل داخل وحدة نسقية (٣) . وهذا معناه أن المنطق ملزم بأن يتضمن شيئا من القبلية اذا أراد أن يظل فى هذا المستوى الضرورى ، وهذا لا مفر منه من أجل تمييز المنطق الجدير بهذه الكلمة من الدراسات الخاصة بالعمليات الفعلية للفكر ومن أجل اعطاء هذا المنطق شرعية معينة . وفضلا عن ذلك فان كانط يعتقد أن معرفتنا العامية مختلطة بعناصر قبلية ، ومعنى ذلك كما يقول مايرسون (٤) : انه يوجد عموما تقدير كبير لدى كانط لدور الاستنباط .

وعلى النفسانية المنطقية أن تأتى بالوسائل الكفيلة بالقضاء على هذه الضرورة العقلية وعلى الضرورة الطبيعية أيضا اذا أرادت لنفسها أن تظهر بمظهر النزعة التحررية . واذا كان كانط قد افترض وجود قصور

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧ .

(٢) سميث : دراسات كانطية ص ١٣٩ .

(٣) موريس : المنطق المثالى ص ١٣٣ .

Morris (C.R.) : Idealistic Logic, 1933.

(٤) مايرسون : الذاتية والواقع ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

Emile Meyerson : Identité et Réalité.

ذاتى فى تصور المادة وفى تصور الحركة (١) واعتقد فى امكان اثبات هذا القصور الذاتى قبليا فان جون استيوارت مل قد اكتشف فى مبدأ القصور الذاتى غموضا كبيرا ، وفطن الى صعوبة موقف السابقين عليه حيال هذا المبدأ (٢) . ذلك أنه يجب ألا يطبق مبدأ القصور الذاتى سواء فى مجال الموضوعية أو فى مجال الفكر . ويجب ألا تمتلك الأشياء فى ذاتها وسيلتها الخاصة للفاعلية وألا تتوفر لها المبادرة .

وقد أوضح مل فى كتابه عن الحكومة النيابية أن الأنظمة الشعبية لا تنمو من نفسها كما قالت بذلك النظرية الطبيعية، فهذه الأنظمة من صنع الانسان ومظهر للاختيار ، ويجب الا نسقط على العناصر والمبادىء سواء فى مجال الوجود وفى مجال الفكر — أفكارنا بشأن قوة مستقلة شبيهة بالقوى ذات القدرة على التقرير المستقل أو بقوة الاستحياء العقلى ، فالسببية كانت فى صورها البدائية سحرا وتفترض حيوية المادة ، اى أنها كانت مرتبطة بمستويات التجمع اللاشعورى La coalescence de l'inconscient حيث يختلط كل شىء فى صورة سديم نفسى (٣) . ويعترف مل بهذا حين يقول بوجود نزوع تلقائى فى العقل نحو تفسير كل حالات السببية عن طريق ادماجها فى الأفعال القصدية للعناصر الايجابية مثل الأفعال الخاصة بالانسان ، وتلك هى الفلسفة الغريزية للفكر البشرى فى أول مراحله (٤).

وينتظر النفسانية المنطقية هنا دور أساسى يجب أن تؤديه وهو اقتلاع المبادىء من الأشياء ومن الأشخاص على نحو من الأنحاء ، فكلما تكونت فكرة وجود قوانين ثابتة للتتابع بين الظواهر الخارجية — قل عزو نشاط ارادى أو حيوية ذاتية الى هذه الظواهر (٥) ، فكل شىء يتغير عندما تحل فكرة الوظيفة أو الفكرة العلمية الوظيفية محل فكرة السببية باسقاطاتها البشرية وعندما ننشىء عن طريق عمليات السببية مبادىء للتسلسل (٦) .

ولا شك أن الأمل معقود على علم نفس الفكر من اجل الوصول الى مثل هذه النتائج ، اذ يستطيع علم النفس أن ينتزع من الشعور كل

(١) المرجع نفسه والصفحة نفسها .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٣ .
(٣) باشلار : الحيوية العقلانية ص ٢٢١

Bachelard : L'activité rationaliste de la physique contemporaine, 1951.

(٤) مل : المنطق : جزء أول ص ٣٩٨ (الطبعة الفرنسية) .
(٥) المرجع نفسه — نفس الصفحة .
(٦) باشلار : الحيوية العقلانية فى الفيزياء المعاصرة ص ٢٢٠ .

ايقانيته التصورية حتى يعطى الفكر وظيفة موحدة تدفع الى استخلاص كل المواقف الذهنية الممكنة من التصورات بطريقة آلية · ويمكن أن تضعف وظيفة منطق الفكر حين تصبح التكوينات والأنظمة الذهنية أقل استقلالا. وتسيطر الحتمية كما يقول « موتييه » طالما لم تنجح « الأنا » فى استخراج العناصر النفسية التى تتعلق بسلوكنا من حيويتها الخاصة (١) .

وكان على جون استيوارت مل أن يحطم هذه التصورية كيما يسمح بالاحتكاك الحقيقى بين الفكر وبين العالم التجريبى . ولن نبلغ هذه الغاية اذا جعلنا من الأفكار والمبادىء ضرورات غير قابلة للتحويل داخل نطاق الفكر والعالم الخارجى .

بل كان على مذهب جون استيوارت مل أن يوفر لمفهومه الاستقرائى الوقائع المتكافئة معه والمعطيات الأولية الملائمة له ·

يقول مل : « يجب أن تخضع الوقائع الخارجية ووقائع الفكر لنسق معين يفرض عليها القوانين الاستقرائية . ويهم المنهج الاستقرائى أن يصير القانون المتعلق بالعلية المحددة وفقا للقوانين التى تسيطر على الرغبات المنوعة . والمنهج الاستقرائى نتاج مشترك لهذه القوانين الأخيرة . ومن ثم فأول شرط يجب استيفاؤه هو معرفة قوانين هذه الرغبات وقانون كل سبب من الأسباب الحديثة · وهذا من شأنه افتراض ملاحظة أو تجربة سابقة لكل سبب على حدة ، أو افتراض استنباط أولى تؤخذ مقدماته الكبرى بالضرورة من الملاحظة أو التجربة .

« فاذا كان الموضوع متعلقا بظواهر اجتماعية أو تاريخية يجب أن تكون المقدمات قوانين للأسباب التى ترجع اليها تلك الظواهر ، أى قوانين لأفعال الناس والظروف الخارجية التى ينشأ عنها وضع الانسان فى الأرض ، ويأخذ تحت تأثيرها النوع الانسانى مكانه .

« فيجب اذن أن يبدأ المنهج الاستنباطى مطبقا على الوقائع الاجتماعية بالبحث أو بافتراض أنه قد تم سلفا البحث عن قوانين النشاط الحيوى الانسانى وعن خصائص الأشياء الخارجية التى تتحدد عن طريقها أفعال الناس فى المجتمع . وسيتم الحصول على بعض هذه الحقائق العامة طبعا بوساطة الملاحظة والتجربة كما سيتم الحصول على بعضها الآخر بالاستنباط : فيمكن مثلا استخلاص القوانين المعقدة الخاصة بالأفعال

---

(١) موتييه : الجبرية والحرية ص ١٢ ·
Georges Mottier : Déterminisme et Liberté, 1948.

الانسانية من قوانين أكثر بساطة ، ويمكن تحديد القوانين البسيطة أو الأولية دائما وبالضرورة بوساطة الاستقراء المباشر » (١) .

فلابد اذن من السماح بضرورة تجريبية . ويجب أن تلتقى هذه الضرورة التى يتصورها الفكر فى اعتقاده عن العالم الخارجى ببعض الحقيقة الموضوعية . يجب أن تحتوى الطبيعة على ضرورة التكرار والتماثل ، ويؤكد برايس Price فى كتابه عن التجربة والفكر أن التكرار واقعة لا غنى عنها لوجود المعرفة ذاتها ، فاذا لم تتكرر الوقائع استحالت المعرفة (٢) .

فالتكرار اذن ضرورة وجودية تنبنى عليها الأفكار المعرفية . وعند مل كذلك لا يصبح الاستقراء ممكنا الا اذا أقيم على تماثلات طبيعية موجودة . وقد جعل دوجلاس من هذه الحقيقة أساسا لبحثه عن فلسفة مل ، ويقول دوجلاس ان مذهب مل جبرى ونموذج للجبرية فى أعلى صورها ، بل ان صح جعل الانسان موضوعا رئيسيا للعلوم الأخلاقية فقد جعل مل من هذا الانسان موضوعا ممكنا من موضوعات الاستقراء (٣) .

وقد لاحظ دوجلاس — وهو على حق فى هذه الملاحظة — أن أهمية الجبرية عند مل ناشئة عن نزعته المنطقية بخاصة ؛ اذ لم يلبث مل أن استنتج (وفقا لهذا المفهوم الخاص بدوجلاس) أن الانسان بحكم كونه خاضعا لجبرية ظروف الحياة يمكنه من ثم أن يخضع لعمليات المنطق ، فتستحيل الحقائق التى نقوم بتجميعها من أجل تأسيس مجموعة الأفكار التجريبية الى حقائق منطقية بوساطة المناهج الاستنباطية .

وسيلزم عن ذلك أن ينقاد مل لطبيعة مذهبه ويقبل الأفكار الأولية الخاصة بتناول الانسان تناولا موضوعيا كى يخلق علما حقيقيا للعلاقات الاجتماعية . وخطر ذلك كما قال دوجلاس ناشىء عن تأسيس اعتقاد مل على احتياجات منطقية لا على احتياجات أخلاقية أو انسانية ؛ اذ يعالج مل مشاكل الأخلاق والاجتماع كمتخصص فى المنطق ، وبغير ذلك يستحيل الافلات من جبرية العالم وجبرية الظروف الخارجية ؛ اذ أن مل لا يكف عن الالحاح فى موضوع حرية الاختيار وحرية الارادة ، ولكن مل لم يستطع أن ينجو بالمنطق من وطأة الحتمية الشاملة ، بل ان دوجلاس

(١) مل : المنطق — جزء أول — ص ٥١٠ (الطبعة الفرنسية) .

(٢) برايس : التفكير والتجربة — الفصل الأول عن الكليات والتشابه
Prise : Thinking and experience, 1953.

(٣) دوجلاس : جون استيوارت مل — دراسة فلسفته ص ١٣١ .

لم يعتبر ذلك العنصر المنطقى ذا أهمية ما فى هذا الأشكال طالما كانت الحتمية مسيطرة على العالم الاجتماعى والطبيعى بأكمله لدى مل .

ويبدو أن كل الحتميات تسعى الى اخضاع الانسان للعلاقات السببية نفسها (١) . ويمكن استخلاص كل ما يمكن من وسائل التصرف الخاصة بأحد الناس بمجرد معرفة استعداده الفردى والدوافع الفكرية عنده ، فاذا عرفنا الشخص معرفة جيدة وعرفنا كل المؤثرات التى يخضع لها ـ أمكننا معرفة سلوكه سلفا بكل يقين شأن أى حدث فيزيائى (٢) .

ولكن بول سيزارى Césari يعترض على ذلك ويقول ان معرفة السبب الذى يصدر عنه المرء فى سلوكه لا يمكن أن تحدد ذلك السلوك . ولا يخلو أى فعل حر من سبب يصدر عنه ، ولكن لا يمكن برغم ذلك استنباطه (٣) . ولعل سببا شبيها بهذا هو الذى دفع مل الى التعاطف برغم كل ما فى مذهبه من حتمية طبيعية مع الحرية الانسانية .

وكان ديكارت قد حرر الانسان من الجبرية المسيطرة على الطبيعة كما حرر الفكر من آليات العالم الموضوعى ، ولم يجد مل أى تعارض بين استقراء العلوم وبين الشعور بالحرية (٤) ؛ اذ لا شك فى عدم وجود هذا القسر العجيب (التتابع الذى لا يتغير بطريقة لا شرطية مؤكدة) فى ارادتنا ، ونحن نعلم أننا لسنا مضطرين لاطاعة أى دافع خاص كما لو كنا ننقاد بدافع الجاذبية الساحرة (٥) .

واذا شئنا أن تتضمن لفظة الضرورة مثل هذه الرابطة انتفت صحة المذهب فيما يتعلق بالأفعال الانسانية ، ولكنها لم تنتف فيما يتعلق بالأشياء التى لا حياة فيها (٦) . فلا يوجد أى تناقض لدى مل بين ارادتنا

---

(١) بول سيزارى : الجبريات والاحتمال ص ٤٥ .

Paul Césari : Les Determinismes et la contingence, 1958.

(٢) مل : المنطق ـ الجزء الثانى ـ ص ٤١٩ . راجع أيضا كتاب ميناد عن منطق مل ص ١٢ ..

(٣) بول سيزارى : الجبريات والاحتمال ص ٤٥ .

(٤) من أقوال مل المعبرة : « لقد أكد الميتافيزيقيون الدينيون الذين اثبتوا حرية الارادة أن هذه الحرية لا تتعارض مع علم الله السابق . ومن ثم فهى لا تتعارض مع أى علم سابق » . مل : المنطق ـ جزء ثان ـ ص ٤٢٠ . ط . (فرنسية) .

(٥) مل : المنطق ـ جزء ثان ـ ص ٤٢٠ .

(٦) مل : المنطق ـ جزء ثان ـ ص ٤٢١ .

فى أن نكون أحرارا وبين امكان أن يكون آخرون على يقين من الأسلوب الذى نفضله لحريتنا (١) .

وتتضمن لفظة الضرورة لدى كثيرين من الفلاسفة أكثر بكثير من مجرد التماثل فى التوالى . انها تحدد بخاصة فعل الأسباب التى نفترض أنها أقوى من أن تتوازن بغيرها ، وذلك برغم أن مل لا ينظر الى الأسباب التى تعتمد عليها الأفعال بوصفها لا تقبل المقاومة ، ولا يتصف المسبب بالضرورة الا بشرط أن يصدر عن أسباب لا تلقى أية عقبة .

ولدى الانسان القدرة على أن يغير من طباعه الى حد ما ، واذا كانت هذه الطباع قد تكونت من أجل الانسان فليس ثمة ما يمنع أن تتكون بوساطته كوسيط ، فتتكون طباعه عن طريق الظروف الخاصة بوجوده (بما فى ذلك تنظيمه الخاص به) غير أن رغبته فى صياغة طباعه بهذا الشكل أو ذاك هى أيضا احدى الظروف وليست بأقل العوامل تأثيرا (٢). وهذا الشعور بالملكة التى نملكها لتعديل طباعنا الخاصة اذا شئنا هو الشعور نفسه بالحرية الأخلاقية التى نشعر بها (٣) .

وترتسم هذه الحرية التى يتسرب بها الفكر وسط معطيات العلم وظروف الحياة تبعا للطريقة التى نختارها لتحقيق أهدافنا ، فتتأكد ارادة الفكر ذاتها فى اختيارنا للوسائل . وبينما يسهل افتراض السلوك وفقا للدوافع والظروف المحيطة يظل اختيار الوسائل غير قابل للتعريف بأية حال . بل حتى فى أى تكوين سلوكى ناشىء عن الظروف الحاضرة لا يمكننا أن نؤكد شيئا محددا صحيحا صحة كلية بشأن الطريقة التى سوف يفكر الناس ويشعرون ويفعلون على منوالها (٤) .

وفى هذه الحالة يسهل أن نلاحظ أنه لا توجد قوانين نفرضها على سلوك الفرد ؛ وبذلك تظهر تلقائيا بصورة آلية حاجة الى علم النفس فى كل نسق أخلاقى حتى تمكن متابعة الطبيعة الخاصة بالسلوك بدلا من افتراضه مقدما ، فيعتمد امكان قيام علم للأخلاق على اكتشاف عناصر الطباع البشرية التى تستطيع أن تتحول الى وسائل تحقق من الغرض الأخلاقى ، ويصبح الحكم الأخلاقى مشوها اذا استبعدنا مثل هذه

---

(١) مل : المنطق — جزء ثان — ص ٤٢٠ .

(٢) مل : المنطق — جزء ثان — ص ٤٢٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٢٥ .

المرجع نفسه — الجزء الثانى — ص ٤٣١ .

العناصر الخاصة بالطباع البشرية ، وبدون علم النفس لا تملك الأخلاق الا أن تسبح فى الهواء ، وبهذه الطريقة نحصل على الوجه المثالى والوجه الفعلى للسلوك المرتبط أكثر ما يرتبط بوجود التزام بين الطرفين المتناقضين ، وفى كل مرة نعزل أحد الطرفين نجد أنفسنا منطوين فى الآخر (١) .

ويعترف دوجلاس برغم تسليمه بأنه لا يوجد موضع للجبرية فى عالم الفكر بعدم انفصال الفعلى عن المثالى فى الفعل الأخلاقى لدى مل ، وكان ليبنتس هو صاحب فكرة الأسباب التى تجنح أو تميل دون ارغام ضرورى ، اذ ليست كل الأسباب قسرية فى تفسير ليبنتس Leibniz (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

والواقع أنه يصعب السعى للسماح بتطبيق الصيغ الرياضية على السلوك الانسانى ، اذ يوجد اختلاف كبير بين السببية بالمعنى الهندسى والسببية بالمعنى الفزيائى . ويوجد أيضا اختلاف أكبر بين السببية بالمعنى الهندسى والسببية الخاصة بالعلوم الانسانية ، وتتطاول شكوك جون استيوارت مل من هذه الناحية الى حد الاساءة الى أصحاب التراث الفلسفى الذى نشأ بين أحضانه ، فلم يعد مل يقبل المنهج الهندسى الخاص بالنزعة البنتامية ، ولا يقبل مل بأية حال أن يأذن بالصرامة الهندسية فى المستوى الأخلاقى والاجتماعى .

وكان مذهب البنتامية ومذهب جيمس مل يؤيدان الصرامة المطلقة فيما يتعلق بالقواعد الأخلاقية ، ويبدو أن بنتام وجيمس مل قد وصلا الى فكرة التطور وفكرة التقدم العاطفى متأخرا ، أى أنهما لم يبلغا فهم حقيقة التعديل النفسى أو التحول النفسى الموازى للتطور التاريخى الا فى وقت متأخر (٢) . أما جون استيوارت مل فأقل دوجماطيقية من والده ومن بنتام ، فقد كان مل أشبه بأبناء عصره الذين آمنوا بالتقدمية، ولم تطفىء صرامة المنطق فى عقله جذوة احترام ما هو بشرى فى أعماق قلبه ، فالتقدم لا يحدث الا عن طريق الفكر ، وتحدد الأفكار التقدم تحديدا نهائيا (٣) .

---

(١) دوجلاس : جون استيوارت مل — دراسة فلسفته ص ٢٥١ .

(٢) ريموند فيسبه — بوبيان : استيوارت مل وعلم الاجتماع الفرنسى المعاصر ص ٤٢ .
M. Raymonde Vaysset-Boutbien : Stuart Mill et la sociologie francaise contemporaine, 1941.

(٣) باول : السياسة والرأى فى القرن التاسع عشر ص ١٩٦ — ٢٠٠ .
Bowle (John) : Politics and Opinion in the 19th Century, 1954.

ويرفض مل التاريخية المنهجية عند كونت (١) . وعلى الرغم من اعجابه المتصل بمفهوماته فى علم الاجتماع فقد رفض مبادئه السياسية ، اذ لا يقبل مل ارجاع الأفعال الانسانية الى أصلها الفسيولوجى البحت، ويرى مل أن كونت Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧) وحده من بين المدارس الفكرية الحديثة استطاع أن يشعر بضرورة ربط التعميمات التاريخية بقوانين الطبيعة البشرية (٢) .

فالبنتامية اعتبرت الفرد من خلق المجتمع وخالقا للمجتمع . الانسان الفرد فى نظر البنتامية مسبب وسبب اجتماعى ، ولكن البنتامية حصرت دراساتها فى موضوع الانسان وبذلت جهدا ضئيلا للتعرف على العملية التى يتم بها خلق القوى الاجتماعية (٣) .

وعلى الرغم من أن مل كان قد ارتبط ارتباطا قويا بهذا التراث ، وعلى الرغم من أنه استبعد من ذهنه كل مفهوم تجريدى فى علم الاجتماع — فقد احتفظ بميل وارادة واضحين لاعطاء تفسيرات مبنية على معرفة الفرد. ولا يمكن أن يكون لتتابع حالات الفكر البشرى والمجتمع البشرى قانون خاص مستقل وفقا لمذهب مل . يجب أن يعتمد هذا التتابع على قوانين نفسية وطبيعية تتحكم فى فعل الظروف وتأثيرها على الناس ، وفى فعل الناس وتأثيرهم على الظروف . ويبدو أن تعبير مل عن العلم الاجتماعى يحمل مجموعة منوعة من العلوم الخاصة التى تأتى بأكملها من علم الانسان المفرد ، وعلى الرغم من أن الاقتصاد السياسى لا يعدو أن يكون فرعا من هذا العلم الكبير فمن الممكن بحثه على حدة ، اذ اعتقد مل أن أوليات الاقتصاد السياسى مجرد قوانين بسيطة خاصة بالطبيعة البشرية ، بل اعتقد مل أن علاقة الاقتصاد السياسى بالعلم الاجتماعى علاقة الجزء بالكل وأن الجزء تميز من الكل نتيجة اعتماده المباشر على عديد من الأسباب التى تؤثر على الكل (٤) .

وعلى الرغم من تسليم مل بعالم الاجتماع العام فقد تمسك بعلم

---

(١) لا يرفضها رفضا قاطعا — راجع كتاب ايريس ميولر عن جون استيوارت مل والفكر الفرنسى ص ٥٨ .

Mueller (Iris Wessel) : J.S. Mill and the French Thought.

(٢) مل : المنطق — جزء ثان — ص ٥١٤ .

(٣) بالميناتز : أنصار مذهب المنفعة الانجليز ص ١٥٢ .

(٤) مل : المنطق — الجزء الثانى . ص ٥١٣ .

اقتصاد سياسى منفصل . وبرغم ذلك فبدلا من اعتبار هـذا العلم كمجموعة من حالات الأمر الوجوبى أسبغ عليه طبيعة شرطية نسبية ، ولكى يعارض آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ — ١٧٩٠) الذى اعتقد أن علم الاقتصاد السياسى يدرس الطريقة التى تثرى بها الدول فخلط بين مفهومات العلم وبين مفهومات الفن — قدم لنا مل منذ كتابة بحثه عن « تعريف الاقتصاد السياسى ومنهجه » بين سنتى ١٨٢٩، ١٨٣٠ هذا العلم على ذلك النحو الشرطى النسبى .

ويرجع وصف الاقتصاد السياسى بذلك الى أنه يعتمد أساسا على الفـــرض النفسى المشهور عن « أوموا كونوميكوس L'homo economicus » الذى يؤدى بالضرورة الى أن الانسان يستطيع أن يحصل على أكبر قدر من الأشياء الضرورية والملائمة والمناسبة بأقل قدر ممكن من المجهود . ولا يرى مل فى هذا المبدأ كل الحقيقة ، ولكنه يلمس تخطيطا يعد من بين كل الافتراضات السهلة البسيطة التى يمكن تصورها كما لو كان أشدها قربا من الحقيقة . ولهذا تعد هذه القضية فى نظر مل صحيحة لا بصفة كلية ولكن على أكبر وجه من التعميم (١) .

ويدعونا ذلك الى ملاحظة ما قيـــل عن مل من أنه عالج موضـــوع الاقتصاد بنفس المشاعر التى أوحت اليه بمذاهبه المنطقية . واذا كان مل قد اســـتخدم النفسانية المنطقية استخداما بينا فى بحوثه المنطقية فلا شك أنه سيخضع الاقتصاد أيضا لهذه النفسانية . وستصبح الوقائع الاقتصادية أيضا فى نظره وقائع نفسية . وقال ريه Ray : ان دوجلاس قد استرعت ذهنه فى دراسته عن مل الأهمية الأوليـــة لعلم النفس فى موقفه الفلسفى العام ؛ فيعد دور دراسة الانسان المفرد فى شروح مل من وجهة نظر دوجلاس مفتاحا لمفهومه عن العلم الاجتماعى (٢) .

فمل يرى الأشياء بطريقة ذاتية على حسب تعبـــير ليتريه (٣) .

---

(١) أبشيه (آنسة) : المنابع الفرنسية لبعض أوجه الفكر الاقتصادى عند جون استيوارت مل ص ٤٧ .

Mille. M. Apchié : Les sources francaises de certains aspects de la pensée écono-mique de John Stuart Mill, 1931.

(٢) ريه : منهج الاقتصاد السياسى عند مل ص ٣٦ — ٤٤ .

Ray J. : La méthode de l'économie Politique d'après John Stuart Mill, 1914

(٣) ليتريه : فلسفة كونت ومل بمجلة العالمين فى ١٥ من أغسطس سنة ١٨٦٦ .
Les Deux Mondes.

وموضوع المعرفة بأكملها حقا هو الحياة الذهنية والأخلاقية للفرد .
ولا شيء يعارض فكر مل فعلا مثل المادية الجدلية في رأى ريه ؛ فطالما كانت الواقعة في الاجتماع وفي الاقتصاد وقائع نفسية كان من الواجب أن تحتفظ النظرات التي نعقدها عنها ذات صورة كيفية أو بطابع كيفي .
وبفضل كون مل عالما نفسيا أولا وقبل كل شيء ، وبفضل رؤيته الأشياء من داخل الشعور الانساني كمعطيات نفسية تتتابع دون أن تستسلم لضرورة صارمة استطاع أن يتبنى حتمية مرنة وبرغم ايمانه بالجبرية الاقتصادية لأغراض علمية لم يفقد قط ايمانه بفاعلية الفعل الانساني .
ولا ينسى مل اطلاقا أن يتناول الكائنات البشرية وسط كل أبحاثه ؛ مما جعل جان ريه يقول : لا تصبح الواقعة الفزيائية ذات أهمية اجتماعية أو جديرة بأن توضع موضع اعتبار المشتغلين بالاقتصاد الا اذا ترجمت الى واقعة انسانية (١) .

والواقع أن الاستنباط الاقتصادى لا يفهم بوصفه حسابا أو مجرد تحويل فى الصيغ ، بل يعد الاستنباط الاقتصادى نسقا ينطبق على ظروف الانسان وعلى الحياة الانسانية ، وعلى الانسان أن يقاوم بفضل التحليل آلية الاستنباط التجريدى الصورى تماما كما يقاوم بقوة التجربة آلية العالم الخارجي . ومن الممكن أن نفترض المؤثرات الخارجية بوصفها مصدر انتاج الأفعال داخل نطاق الحدود والألفاظ الفزيائية . غير أننا اذا استخدمنا هذه الطريقة للتعبير عن الأفعال الانسانية فاننا نغامر بوضع الأمور فى نطاق تأثير عناصر أقل مما نعرفه من العناصر المتعلقة بالموقف (٢) .

وسيتعرض التحليل في هذه الحالة لأن يصبح أقل فاعلية ، فلن يستطيع القيام بوظيفته بوصفه عاملا أساسيا فى الاستدلال على نحو ماسبق القول . وعلى التحليل هنا أن يسلم بوضعه الجديد فى هذا المجال ، فيجب على العقل أن يحسب حساب خداع الطبيعة وأن يبحث عن طريقة للدفاع عن نفسه بوساطة العناصر التى يزود بها التحليل عملياته .
وتتحقق الحرية بأن يضع العقل نظام العالم الخارجى وآلية الفكر الاستنباطية موضع التساؤل . ويفيد التحليل فى ضبط المجالين وتسويتهما معا اعتمادا على المعرفة التجريبية . وبذلك يضمن التحليل

---

(١) جان ريه : منهج الاقتصاد السياسى عند جون استيوارت مل ص ١٠٢ .

(٢) هايك : الثورة المضادة فى العلم ص ٢٦ .
Hayek (F.A.) : The counter-revolution of science (Studies on the abuse of reason), 1952.

دور الحرية فى أفعال الفكر ، واذا كان ثمة سببية نفسية حقيقية فمن الواجب أن تتميز من السببية الفزيائية كما يقول برانشفيك (١) .

ومن الصحيح أنه يلزم الارادة أن تتبع الأسباب الأخلاقية كما يقول مل ؛ فالتجربة تكشف عن واقعة التتابع الثابت بين كل حدث وبين خليط معين خاص من الظروف السابقة بحيث انه بمجرد وجود هـذه الوحدة السابقة لا يتخلف الحدث دائما وفى أى مكان عن الوقوع .

فهل يكون الحدث مضطرا قسرا الى الوقوع ؟

يجيب مل بأنه لا يعلم شيئا فى هذا الأمر ؛ اذ تمضى الأشياء دائما على هذا النحو ، وينكر مل انكارا شديدا استخدام لفظة الضرورة سواء فى الظاهرة الأخلاقية أو الفزيائية (٢) .

لا تحيطنا التجربة علما بغير واقعة التتابع الثابت ذاتها بين كل حدث وبين خليط معين من الظروف والشروط السابقة بحيث ان وجود وحدة السوابق يؤدى دائما وفى كل مكان الى وقوع الحدث بغـير تخلف ، ويدفعنا هـذا الى الاعتقاد بأن كل حدث فى العالم المظهرى باستثناء الارادات البشرية يلزم ظهـوره بسبب ، ولا يوجد أى برهان على أن الارادات تدفع السوابق الأخلاقية الى التماثل بنفس اليقين الذى تتبع فيه النتائج الفزيائية أسبابها . وشهادة الوعى ذاته على ذلك ليست قاطعة ، ويكفى ثبات التتابع بين الدوافع والاستعداد العقلى والأفعال كى يكون ذلك كله سببا قويا كافيا لعدم السماح باحالة الحرية الى واقعة.

ولم يرد مل أن يوافق هوبز فى مفهومه الفسيولوجى ، ولم يشأ فوق ذلك أن يؤيد الآلية المطلقة حيث يضيع كل اعتبار لوعى الانسان الحر . واذا لم نكن شاعرين بقوة ما ، واذا لم نشعر باستعدادنا وتأهيلنا المستقل عن كل مران حاضر أو سابق ــ فمعنى ذلك أن الشعور « واقعة فريدة لا مثيل لها فى بقية طبيعتنا بأكملها » وليس لدينا شـعور بقوة عضلية باطنة ثابتة فينا ؛ فليس الاستعداد العملى والقوة أشياء حقيقية يمكننا الاحساس بحضورها حتى ولو لم يتبعها أى أثر . انها أسماء (معنى) مجـردة تنطبق على ظهور الأثر عنـدما تتكشف الشروط الضرورية أو أسماء (معنى) مجردة نطلقها على انتظارنا لهذا الظهور (٣) .

ويؤكد المذهب الحقيقى للعلية فى مجال الأفعال البشرية أن طباعنا ،

---

(١) برانشفيك : فكرة الحرية الأخلاقية فى الكتابات الفلسفية ص ١٧٦ .
Brunschvicg: La notion de liberté morale dans des Ecrits Philosophiques, 1954.

(٢) مل : فلسفة هاملتون ــ ص ٥٤٩ (الترجمة الفرنسية) .

(٣) مل : فلسفة هاملتون ــ هامش ــ ص ٥٥٢ (الترجمة الفرنسية) .

لا سلوكنا وحده ـ تعتمد جزئيا على ارادتنا ، ولكن بانشاء هذه العلاقة بين الارادة والطباع لا ينبغى أن نذهب الى حد افتراض وجود مقولات فى الفكر الانسانى ، ويعطى الالزام بهوية النشاط الخاص بالكوجيتاتيو أى بالفكرة وبالكوجيتو أى بالأنا المفكر هنا بالمعنى الغائى الشامل ، ولهذا رفض مل مبدأ « علة ذاتها «Causa Sui» بالمعنى الاسبينوزى ؛ فالارادة أثر أخلاقى يتبع أسبابه الأخلاقية بتأكيد وثبات يشبهان تأكيد وثبات تبعية الأثر الفزيائى للأسباب الفزيائية .

وعلينا أيضا من الناحية الأخرى أن نرفض فى كل الأحوال فرض التلقائية (على صورة حدوث أو وقوع بغير مبرر) حتى لا نرى سوى حالات العلية فى كل مكان ؛ فالوعى ينبئنى بأننى أعمل أو أحس ، أما ما أقوى على عمله بالفعل فلا يقع تحت طائلة الوعى ، ولن ندرى اطلاقا أننا قادرون على عمل مالم نكن قد قمنا بفعل ما . ويعنى الشعور بحرية الاختيار أن نشعر قبل وقوع الاختيار ذاته بأنه كان يمكننا أن نختار (١) .

ولا مفر لدى مل من التفرقة بين السلوك الأخلاقى لدى الانسان والفعل الارادى . فليس كل فعل ارادى يقوم به الانسان بالضرورة سلوكا أخلاقيا . كذلك يوجد ضرب ثالث من الفعل هو ما يعبر عن كيان الشخصية الفردية وما تنفرد به كل ارادة انسانية بحكم التكوين النفسى الشخصى والطابع الذاتى للشخصية . وهذا كله قائم على أساس مفهوم علم النفس الفردى الذى اتسم به تفكير مل في ذلك العصر من أجل تقرير الحرية الشخصية وحرية الانسان بالنسبة الى أوضاع المجتمع من ناحية وقوانين الطبيعة السائدة فى العالم من ناحية أخرى .

فلا ينسى مل بعد ذلك أن يؤكد وجود حرية الانسان فى الواقعة التى يختارها بين الأفعال المنفصلة المميزة من الحقائق الأخلاقية ؛ وعلى ذلك تكون حقيقة التمييز الأخلاقى مختلفة بل ومستقلة عن حرية الارادة(٢). ونجد أنفسنا لدى مل قادرين على اجتياز الطابع الشخصى من أجل بلوغ بناء خاص بالسلوك حيث تتحقق ارادة الانسان . ويصاغ سلوك الانسان على نمط الطابع الشخصى من أجل التعبير عن ارادة حرة وعن معنى بعيد عن القيم الأخلاقية ، واذا لم تنشأ نماذج معينة من الطباع نتيجة للفاعلية الحرة فلن تكون بحال من الأحوال قادرة على اعطاء معنى ما الى اجتياز الطباع وتخطى الصفات الشخصية .

(١) مل : فلسفة هاملتون ص ٥٥١ (ترجمة فرنسية) .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٠ ويقول جورفيتش الشيء نفسه فى كتابه عن الجبريات الاجتماعية والحرية الانسانية ص ٧٧ .

الفصل الثامن

الموضوعية والعالم الخارجي

يعتقد مل أن المشتغلين بالميتافيزيقا قدموا تفسيرات كافية للجواهر بأن قسموها الى أجسام وعقول ، وأعطوا أيضا فى رأى مل كلا من صنفى الجواهر تعريفا غير معيب .

أستطيع خلال استخداماتى المتنوعة لما يتوافر لى من شعور باحساس لون أصفر وباحساسات عن الصلابة والوزن أن أضيف اليها صفات أخرى متميزة تميزا كاملا . وليس لدى سوى هذه الاحساسات ، ولا أشعر شعورا مباشرا بغيرها . وأعد هذه الاحساسات انتاجا لشىء موجود وجودا مستقلا عن ارادتى خارج أعضائى الجسمية وخارج عقلى ، وهذا الشىء الخارجى اسمه الجسم المادى .

ويتكون مفهوم المنضدة التى أكتب عليها الآن من شكلها ومن بعدها المحسوس ، وهذان عبارة عن جملة احساسات معقدة من التقاء كل من الابصار والشكل والبعد ، وهما أيضا عبارة عن احساسات معقدة الى حد ما خاصة اللمس وبعضلاتنا ، ويكون ظهورها نتيجة لوزن الشىء بما فيه من صلابة وبما له من تكوين . ويمكن تحديد آثار مثل هذه الخصائص والصفات على حواسنا المختلفة عن طريق تنوع الاحساس الذى نتلقاه فى الظروف المتباينة والذى ينشأ عادة من الخشب ومن جملة تفصيلات تركيبية أخرى للمنضدة ، وعلى التجربة أن تعلمنا اذن كيف تختبر باختيارنا نتائج هذه الاحساسات . وحينما أمر بتجربة جزء من هذه الاحساسات أمر أيضا بتجارب بقية الاحساسات ، أو أعرف أنه فى امكانى المرور بتجاربها ، ولا يساند هذه المنضدة التى أكتب عليها الآن أى شىء يختلف باطنيا عن الاحساسات التى تنشأ عنها فعلا لدى ، اذ لا ينبغى أن يكون ثمة أى عنصر جوهرى مساند لقانون الارتباط المتتالى أو المتآنى بين الاحساسات .

فالمنضدة أو الجسم الخارجى الذى أطلق عليه هذا الاسم تتكون من مجموعة احساسات متجمعة معا وفقا لقانون ثابت ، وليس ما نسميه

بالصـــفات الحسية للشيء نموذجا لشيء متحد بباطن المنضـــدة لزوما ، وليست هذه المنضدة المعرفة بوصفها العلة الخارجية المجهولة التى نرجع اليها احساساتنا سوى مجرد حضور أو مثول لاحدى أو لجملة الظواهر مجتمعة ، وعلى ذلك فهى امكانية احساس بالنسبة الينا ، والواقع أن كل مشكلة تفسير العالم الخارجى عند مل تكمن فى صميم هذا المفهوم .

وكانت عبارة « امكانية احســـاس » هذه هـــدفا أيضـــا لعديد من التفسيرات وموضوعا لافتراضات فلسفية منوعة ، وليس من الغريب فى شيء أن نرى هذه العبارة نفسها مصدرا مستمرا لصعوبات كبيرة فى كتابات كل من قام بالتعليق على فلسفة جون استيوارت مل .

وقد عرض هانزن المشكلة وناقش المعنى الذى يمكن استخلاصه من فكرة « الامكانيات الدائمة للاحساس » (١) . وقدم هانزن بصدد هـــذه المشكلة تفرقة أساسية هامة ، فعبارة « امكانية احساس » عبارة غامضة بالفعل ، وهى تعنى عموما على سبيل التجريد أنه من الضرورى تسجيل احساس معين تحت تأثير ظروف معينة ، وتعنى هذه العبارة بطريقة خاصة على سبيل الحضور العينى الماثل أن شيئا معينا خارج العقل سيؤدى الى ظهور ذلك الاحساس . ويرى هانزن أن هاتين النظرتين تبقيان مختلطتين دائما فى كتاب جون استيوارت مل عن فلسفة هاملتون ، اذ يقتضى الجانب الذاتى من فلسفة مل الدلالة الأولى لهذه العبارة ، ولكنه يشير دائما الى هذه العبارة فى دلالتها الثانية (٢) . ويمكن أن نقول ان هذا الموقف نفسه يتكرر فى كتاب مل عن نسق المنطق .

وترجع هذه المشكلة فى نظرنا الى الآثار التى نشأت عند مل من جراء العصر الذى عاش فيه ، وتبين لنا هذه الآثار الى أى حد كانت طبيعة التفسير العلمى مختلطة بطبيعة القوانين العلمية . كان يصعب جدا التمييز بين الطبيعتين على ما بينهما من اختلاف كبير .

وقد صرح بلانشيه Blanché بملاحظته التالية بشأن اليقين العلمى فى مقدمة كتاب ويويل الذى قام بترجمته الى الفرنسية وهى : « لا يوجد

---

(١) هانزن : محاولة نقدية للذاتية عند مل ـ بالمجلة ربع الســـنوية للفلسفة العلمية بالعدد ١٣ ص ٣٧٥ .

S. Hansen : Versuch einer kritik des Mill schen Subjectivismus-in Virteljahrschrift fur Wissenschaftliche Philosophie, xiii, 375.

(٢) : فلسفة هاملتون ــ الفصل الخاص بنظرية الاعتقاد فى العالم الخارجى .

من ثم اذن سوى اختلاف من حيث الدرجة بين القوانين وبين النظريات التفسيرية الى حد أن يصبح البحث عن العلل الخفية أو عن الطبيعة الذاتية للظواهر بنفس شرعية البحث عن قوانينها » (١) ويحذرنا بلانشيه من أن كتاب ويويل معاصر لمحاضرات فى الفلسفة الوضعية لأوجست كونت ولكتاب نسق المنطق الاستدلالى والاستقرائى لجون استيوارت مل .

ولعله من المستحسن وقد استعار مل كل أسلوبه الوصفى فى النفسانية المنطقية من علوم الميكانيكا أن نعرج على هذه العلوم ، ذلك أن التفسيرات التى يقدمها خلال نفسانيته المنطقية تعبر تماما عن الحرص على عدم التخلى عن العالم الخارجى . ويجب أن تظهر هذه التفسيرات من ثم كقوانين فى ميدان العلم ، وأحسب — بل أعتقد أننى مصيب فى هذا الحسبان — أن مل يتابع ويويل فى ميله الى اظهار الاكتشاف الاستقرائى بأنه ليس ثمرة التسلسل المنهجى للفكر بل أثر من آثار التتابع الخارجى .

ذلك أن الأفكار تتجمع شيئا فشيئا الى أن تتباور حول مركز الاهتمام الخاص فى التطور الفكرى الانعكاسى ، وتزداد قيمة الوصف اذن بقدر ما نضيف اليه مما لا يكون عادة فى المحتوى العادى للادراك ، اذ يفترض مل أننا لا نستطيع أن نقوم بوصف واقعة بغير أن نلجأ الى أكثر مما تتضمنه وتقتضيه الواقعة فى ذاتها (٢) ، اذ يضيف الادراك الصفة الى شىء جزئى على حين يعد وصف هذا الشىء تأكيدا لارتباط يقوم ضرورة بعقد الأواصر بين هذا الشىء وبين أشياء أخرى يشار اليها أو تفهم عن طريق الحدود والكلمات المستخدمة . ويقول مل بوضوح : أن كل وصف انما هو بالضرورة بيان تشابه واحد أو عدة تشابهات (٣) .

ومن المستحيل أن نعبر لفظيا عن نتيجة أية ملاحظة دون القيام بعملية اعتبرها ويويل خاصية أساسية للاستقراء ، اذ أننا ندمج دائما الظاهرة الحالية ببعض الظواهر الأخرى التى سبقت ملاحظتها وتصنيفها ، وبرغم

---

(١) بلانشيه : مقدمة ترجمة كتاب وليام ويويل عن بناء العلم الى الفرنسية بقلم بلانشيه ص ٨ .

Whewell: de la Consctruction de la science—Novum organon renovatum (livreil) texte traduit et préssnté par: R. Blanché, p. viii, Paris 1938.

(٢) طالع ما سوف نقوله فى الفصل القادم بشأن الفعل العقلى للتضمين عند مل . فالوصف يؤدى فعل العقل للتضمين كوظيفة .

(٣) مل : المنطق — الجزء الثانى — ص ١٨٧ (طبعة فرنسية) .

ذلك فلابد من مراعاة عدم الخلط بين هذا التقرير كأحد أوجه التحليل (١) الاستدلالى الخاص بهوية الشيء وبين الاستقراء ، فتلك عملية تسبق دائما كل الاستقراءات وتوفر لها المواد (٢) .

ويؤكد مل بعد أسطر قليلة من كلامه السابق (فى الصفحة نفسها) أن هذه العملية ليست حسية بحتة ، ولكنها رياضية أيضا ، وهذا من شأنه أن يتمم الخاصيتين اللتين سنحددهما بشأن دور التحليل فى ازالة التجريد الاستنباطى (٣) ، فمن الواضح أنه لا يتم بلوغ التشابهات مباشرة عن طريق مجرد مقارنة الشيء الملحوظ بشيء حاضر آخر أو بذكرى شيء غائب ، وتتحدد هذه التشابهات بوساطة علامات متوسطة أى بوساطة استنباطات .

وحينما أصف منضدتى التى لا أعرف مقاييس حجمها سأقول مثلا أن طولها يبلغ عشر أقدام ، ثم أحاول أن أعرف مقدار طولها بالدقة فأستخدم مسطرة طولها قدمان واكتشف أن طولها عشر أقدام بالفعل ، واستخلص من ثم أن الطول من الناحية الأخرى متعادل ، وتتضمن هذه العملية عبارتين هما :

١ — ٢ × ٥ = ١٠

٢ — المساويان للشيء نفسه متساويان

وهذا يعنى أن طول المنضدة البالغ عشر أقدام ليس ادراكا مباشرا اذن، اذ لا تعدو النتيجة المستخلصة من مثل هذه العملية أن تكون مجرد وصف طالما أنها لن يفاد منها الا فى الجمع والربط بين الملاحظات ، وبعد اتمام الوصف سنجد أنفسنا فى وضع مناسب يسمح لنا بالاستقراءات ، لأن الحقيقة الاستقرائية لا تكون أبدا مجرد مجموع الوقائع (٤) .

ويلاحظ مل كذلك أننا لا نستطيع أن نطلق اسم الاستقراءات على الأحكام والقضايا الوصفية بغير أن يكون فى ذلك تحريف للحقيقة ، فليست هذه قضايا عامة مستخلصة من وقائع جزئية، ولكنها وقائع جزئية مستنبطة من قضايا عامة ، واذن فلا يستطيع مجرد البيان اللفظى للقضايا الجزئية أبدا أن يعين حقيقة القضية العامة ، ولا مندوحة فى وجود فعل خاص للفكر من أجل تحديد مدى احتواء الاستقراء المفترض حقيقة على كل واحدة من هذه القضايا .

---

(١) راجع كلامنا عن معانى التحليل عند مل فى الفصل السادس .

(٢) مل : المنطق — جزء ثان — ص ١٨٨ (طبعة فرنسية) .

(٣) طالع ما سنقوله فى الفصل القادم عن الفعل العقلى للتضمين .

(٤) ويويل : بناء العلم — ترجمة بلانشيه الفرنسية ص ١٠٨ .

وعلى ذلك تختلف مثلا المنضدة موضوع الاستقراء عن كتاب الحساب العادى مثلا بحكم توفر الدقة فى كل حساب خاص بوساطة اجراء العمليات الجزئية فقط ، ولا ينبغى من ثم أن نعد هذه العبارات سوى مجرد ارشادات ، أما الارتباط الذى نبنيه بفضل المفهومات فى حالة المنضدة فهو واحد من عمليات مساعدة ، وتجميع الوقائع واحد من عمليات أولية ، وليست العلاقات التى نبنيها بوساطة المفهومات المتطابقة سوى اجراءات عادية من أجل اكتشاف مدى التشابه أو الاختلاف بوساطة المقارنة بين الظواهر .

وتفصل بين خط سير الفكر وهو يمارس تطوره نحو الاستقراء وبين الاستقراء نفسه واقعة من وقائع الفكر الأخيرة ، ولا نستحوذ على هذه الواقعة المتأخرة بتطبيق منهج ذى فطنة وصرامة . ولكن بالحرية وبسعة الخيال (١) . ولا تفد الصرامة عند مل الا فى النهاية فقط من أجل التنظيم التجريبى للفرض ، ويستخدم مل عن طيب خاطر هذه التعبيرات، ولكنه يمتنع عن كل نقاش مثالى بسبب افتراضه السابق لآلية الفكر المتميزة ، ويؤيد مل ويويل فى أغلب ملاحظاته عن الاجراء العقلى ويأخذ على عاتقه الدفاع عن صفحات ويويل عن هذا الموضوع فى كتابه (٢) .

ولكن مل يفترض أن ويويل أخطأ فيما يتعلق بالعملية النموذجية للاستقراء ، اذ يعتمد الاستقراء عند ويويل خاصة على تقديم مفهوم جديد ، وهذا خطأ فى رأى مل لأنه يخلط بين أمرين مختلفين هما : الاختراع والبرهان . وكما رأينا فيما سبق من فصول عارض مل بشدة فى كل ما يخص الاستقراء من حيث النظر اليه بوصفه وسيلة لاجتلاب مفهوم جديد .

ويقول مل فى ذلك ان المفهوم الجديد يمكن الاتيان به بشأن نتيجة وصفية كما يمكن الاتيان به بشأن نتيجة استقرائية ، وبذلك يتساوى كل من الوصف والاستقراء ، ولا تتم التفرقة بين الوصف وبين الاستقراء الا بسبب خاصة من أخص خصائص الاستقراء وهى البرهان . يقوم الاستقراء بالبرهان على شىء غير مرئى ابتداء من شىء خاضع للملاحظة (٣) .

---

(١) قارن هذا بالرسوم التخطيطية عند كانط . Le schématisme kantien

(٢) مل : المنطق — جزء أول — ص ٣٣١ (طبعة فرنسية) .

(٣) مل : المنطق — جزء أول — ص ٣٤٥ (طبعة فرنسية) .

خذ هذه القضية مثلا : « كل انسان فان » . انها بالتأكيد عبارة عن نتيجة استقرائية ، وبرغم ذلك فهى لا تقدم أى مفهوم جديد ، غير أنه من الملاحظ فى موضوع ويويل بهـذا الصدد أن هذا الأخير أراد أن يفصل بين العلم التجريبى وبين النزعة التجريبية . ويقول بلانشيه : « لقد علمت دراسة بناء العلم التجريبى ويويل فى الواقع أن العمليـة الاستقرائية لا تتكون من تعميم الوقائع الملاحظة ، وانما تتكون من وضع هذه الوقائع فى شعب (١) ، أى من ربط هذه الوقائع بوحدة ذهنية لمفهوم جديد .

ومن شأنه مثـــل هذا المفهوم أن يفصل النزعة التجريبية عن العـلم التجريبى . وتأخذ الوقائع من ثم معالم أخرى مختلفة فى ضوء هـذا المفهوم ، اذ تصبح الفكرة الاستقرائية صورة حقيقية لمدركاتنا ، وترفض التجريبية النفسية عند مل هذا الشكل التجريبى الذى ينشىء المفهومات الجديدة خلال الوقائع الخاضعة للملاحظة لا الوقائع المبرهنة ، فالعملية العقلية كما يقول مل (٢) التى تستخلص من عدد من الملاحظات المقتطعة بعض الخصائص العامة التى تتشابه أو تختلف بها الظاهرات عن الوقائع الأخرى الخاضـــعة للملاحظة هى ما عناه كل من بيـكون ولوك ومعظم الميتافيزيقيين المتأخرين من لفظة « التجريد » . أما التعبير العام الناشىء عن التجريد والذى يربط عن طريق الخصائص المشتركة وقائع معروفة دون أن يستخلص منها وقائع غير معروفة فهذا هو ما يمكن تسميته بالوصف (٣) . وعلى الرغم من بقاء هذا الوصف بعيدا عن العلم التجريبى فهو لا يفقد الطابع التجريبى .

وتنبنى هذه التجريبية على مفهوم نفسى شبيه بما يجرى فى العلم الحديث ، اذ يحملنا العلم التجريبى عند ويويل الى موضوعية شـــبه مطلقة ، وقد شاء جون استيوارت مل أن يتخلص من الثنائية التى يؤدى اليها الانفصال بين العلم التجريبى وبين المفهومات ، ويؤدى لفظ السبب فى العلم التجريبى عند ويويل معنى لا يقبل الاتفاق مع معناه المعترف به عند مل فيما يتعلق بالاحساس . ذلك أن مفهومات ويويل الذاتية تظل بعيدا عن نطاق العالم الوضعى ، وتنبنى هذه المفهومات بخاصـــة على

---

(١) ويويل : بناء العلم (بالفرنسية) مقدمة بلانشيه ص ٢٢ .

(٢) مل : المنطق ـــ جزء أول ـــ ص ٣٤٥ ـــ ٣٤٦ (طبعة فرنسية) .

(٣) راجع أيضا فى هذا الموضوع كتاب برايس : نظرية هيوم عن العالم الخارجى
Price : Hume's Theory of external World.

شروط غير مدركة مرتبطة بالفكر بوصفه خلاقا وبالتعليم الشخصى المباشر من وجهة النظر المنهجية ، ويتدخل ها هنا العامل النفسى ، ويصبح سيد الموقف فى كل عمليات الاختراع واكتشاف الوقائع .

ولكن ذلك لا يمنعنا من ملاحظة أن المفهومات لا تتخذ لنفسها وهى بصدد التحدد النهائى الا العبارات اللفظية الخاصة بهـذه الاجراءات ذاتها . واذا كان مل قد رفض أن يتشيع لموقف ويويل فيما يتعلق بالعالم التجريبى فهو يأخذ برغم ذلك خطوة هامة فى ضوء هذا الحوار بينه وبين ويويل عند تحديده لدلالة المفهومات بالأشياء التى تشير اليها .

ذلك أن العلم التجريبى لا يصبح ذا حقيقة مستقلة ، ويبث مل الشك فى وجهات نظر الوضعيين وأنصار فكرة الوجود فى ذاته ، ولا شك فى وجود العالم الخارجى مستقلا عن الفكر استقلالا تاما (١) . ويبقى هذا العالم الخارجى غير مدرك الا خلال التجربة بوصفه « امكانية دائمـة للاحساس » ، ولكن ليس من الضرورى أن يتبع ذلك تلاقى التجربة التى يدرك بها العالم الخارجى مع الذاتية المطلقة .

وطالما كانت المفهومات غير متصـورة الا خلال الأشـياء وخلال الاجراءات التى تؤدى الى تكوينها فهى تملك اذن دلالة فاعلية ، ومن الصحيح أن مثل هذه العمليات الوصفية البحتة تستلزم ازاءها مفهوما ذهنيا ، اذ يقوم المفهوم فى عقلنا لا فى الوقائع ، ولكن برغم ذلك لابد فى المفهوم من شىء متصور . واذا لزم أن يوافينا المفهوم ببعض المعرفة الخاصة بهذه الوقائع لزم أن يكون مفهوما « عن » شىء ما موجود حقيقة بين الوقائع أو « عن » خاصة بهذا الشىء يملكها فعلا ويبديها لحواسـنا اذا كان من طبيعة هذا الشىء أو هذه الخاصة أن يؤثرا على حواسنا (٢).

ولا يتجاهل مل دور مفهوماتنا فى دراسة الوقائع ، ولم يعارض أحد فى أن البرهنة على شىء تقتضى وجود مفهوم ذلك الشىء ، وعندما نشمل عددا من الأشياء فى تعبير عام يكون مفهوم شىء ما مشترك فى كل هذه الأشياء — متضمنا فى التعبير ، ولكن لا يلزم عن ذلك اطلاقا أن يكون المفهوم سابق الوجود ، ولا أن يكون المفهوم قد تكون فى الفكر بغير مواد خارجية .

---

(١) « من غير المسموح به اطلاقا أن نشك فى وجود الموضوعية الخارجية المستقلة عن وعينا والخاضعة لقوانين حقيقية » انظر كتاب لوريه عن مل ص ٤٥ .

(٢) مل : المنطق — جزء أول — ص ٣٣٣ (طبعة فرنسية) .

ويجب أن يكون مفهوم الاهليلج ellipsis قد خطر على فكر كبلر Kepler (١٥٧١ — ١٦٣٠) قبـــل أن يكون قد تعرف على مدار الكواكب السيارة بشكلها الاهليلجي · ويؤكد ويويل أن المفهوم يشبه شيئا مضافا الى الوقائع ، ويوحى كلامه من بعد بأن كبلر قد وضع شيئا فى الوقائع بطريقته فى تصورها ، غير أن كبلر لم يفعل شيئا من ذلك ، وكان الاهليلج قائما فى الوقائع قبل أن يتعرف عليه كبلر تماما ، كما أن الجزيرة جزيرة قبل أن ندور حولها ، ولم يسقط كبلر على الوقائع ما فكر فيه ، ولكنه أسقط عليها ما رآه فيها ، ولا شك أنه لا يوجد اختلاف من حيث طبيعة ماتراه وما نتصوره ، فالمفهوم شبيه بالادراك ، ولكن تعقيد التفصيلات التى يلزم وصفها فيما يتعلق بالمفهوم أكبر بكثير من التعقيد الذى يلزمنا استشعاره ازاء الادراك : فمثلا اذا تركت الكواكب خلفها أثرا مرئيا فى الفضاء وكان المراقب فى مكان يسمح له برؤية المدار بأكمله مرة واحدة فسيرى هذا المراقب أنه على شكل اهليلج ، بل أكثر من ذلك أنه لو كان المدار مرئيا وكان المراقب قادرا على رؤية أجزائه بأكملها على التوالى — لا دفعة واحدة — فسيكون قادرا بفضل المواءمة بين ملاحظاته المتقطعة على أن يكتشف أن المدار اهليلج وأن الكوكب يتحرك فى مدار اهليلجى فى وقت واحد ، ولا فرق بين هذا المراقب وبين الملاح الذى يكتشف أن قطعة أرض جزيرة فى الواقع بمجرد دورانه حولها .

ولن يعارض أحد — كما يقول مل (١) — فى أنه اذا كان الطريق الخاص بالكواكب مرئيا فى الفضاء فسيتم تقرير الهوية بينه وبين الاهليلج عن طريق تعمد وصفه ، وعلى ذلك فعلى الرغم من أن المدار لم يكن مادة حسية مباشرة فقد كانت كل نقطة من نقاطه قابلة للتحديد الدقيق كما لو كان ذلك المدار مادة حسية مباشرة ، وهذا من شأنه أن يذلل من ثم عملية العثور على تفصيلات ذات دلالة فيما يتعلق بالمفهوم فى اطار العمليات الخارجية التى تشير الى الوسائل التى يمكن عن طريقها تكوين المفهوم ذاته . ولا شك اذن فى أن مل كان يشير الى الأشياء المادية لا من حيث هى عناصر مؤثرة فى الاحساسات وحسب ، ولكن أيضا بوصفها شروطا لظهور الارتباطات الخارجية من جديد .

فالفكرة ذاتها تستدعى كل شروط ظهورها ، وفكرة المنضدة التى أسند اليها الصفحات التى أسطر فوقها هذه الكلمات ترتد الى خاطرى مصحوبة بكل شروط ظهورها ، ولو انتقلت الى غرفة أخرى من غرف

---

(١) مل : المنطق : جزء أول — ص ٣٣٤ (طبعة فرنسيه) .

بيتى وثار نقاش حول موضوع منضدتى التى أعمل عليها لتكلمت عنها كما لو كانت دائما موجودة . وليس الوجود الموضوعى الذى أشير اليه فى اللحظة التى ابتعدت فيها عن المنضدة الا اشارة الى امكان توافر الوسائل التى أحصل عن طريقها على تجربة الاحساس بالمنضدة .

وتشير دلالة لفظة « منضدتى » خلال كلامى الى العمليات التى تستطيع « منضدتى » أن تثيرها ، وعلى ذلك لا يلزم أن نتصور رمزا ما وليكن « منضدتى » بوصفه سببا فيما يتعلق بالانطباعات التى يحركها فى ، لأن الواقع ان وجود المنضدة الموضوعى استدلال لا يظهر وفقا لادراكى لها وبمجرد حصولى على كل الشروط وكل العناصر الضرورية كى أستشعر فكرة المنضدة فى فكرى – أفكر فى مثول المنضدة ، ولابد أن تخلق مجموعة الأشياء الحاضرة فى فكرى فكرة المنضدة التى سيتم استنتاج كونها شيئا خارجيا .

وليس ضروريا أن يشبه الارتباط فى هذه الحالة الارتباط العلى المظهرى البحت فى الخارج ، فالدلالة عملية تفصل الشىء الخارجى عن تحققه فى الفكر . ولابد من أجل تصور شىء (فى كل مرة يتعلق الأمر فيها بشىء) من تذكر كل العملية التى تربط هذا الشىء بالفكرة التى تقوى على تحريكه ، فمن منطق الأشياء بعد ذلك كله أن تكون الدلالة دائما فى الاجراءات التجريبية طالما كانت تلك الدلالة مبنية فى الفكر على مفهومات متصلة بهذه الاجراءات ذاتها .

وشاء ويويل أن يعزل عالم المنطق عن عالم التجربة العلمية ففرق تفرقة واضحة بين عالم التجربة والتجربة ذاتها ، ولذلك يعد موقفه أميل الى الوضعية منه الى التجريبية ، فى حين لم يشأ مل على العكس الا أن يربط العالم الخارجى بالفكر عندما كان يحيل الى العالم الخارجى ، فقد جعل مل من المفهومات بعض العالم الخارجى ووضع كلا من النظريات العلمية ومن الوصف جنبا الى جنب . فالمفهومات وهى تتتابع خارج الذات تبدو « خارجية » الى درجة أننا لا نتردد فى اعتبارها جزءا من العالم الموضوعى .

ولكن هذه الخارجية ستأخذ برغم ذلك طابعا أكثر وضوحا بمجرد اقحام الجانب الاستدلالى فى المفهوم ، اذ ينبنى مفهوم الديمومة الوجودية للأشياء المادية على قضايا استدلالية بل وشرطية نسبية بحيث ينسحب على البقية المختفية من الأشياء المتصورة ، وبذلك تكون درجة الحقيقة الممنوحة الى الأشياء متوقفة على الاجراءات التى تؤديها عادة من أجل التوصل الى هذه الأشياء .

أما اذا تعرضنا لمسألة تحريك المفهومات بطريقة نفسية وطبيعية معا فستبقى الصيغة المنطقية سائدة على كل الموضوعات ، ومنضدتي التى يجب على أن أعتبرها أحيانا مجرد دلالة لانطباعات معينة أتلقاها انما هي أيضا شيء حقيقي يمكننا الاشارة اليه باليد ، ولكن لما كانت بعض الأشياء المادية لا تتيسر الاشارة اليها على نحو ما أشير الى منضدتي فستبقى وحدات العالم الفزيائي الشيئية بغير حاجة ضرورية لأن تقع تحت طائلة فكرنا من حيث هي أشياء ذات حقيقة مادية .

وبدون أن يذهب مل الى حد افتراض جوهر تعزى اليه أو تحمل عليه كل ظاهرة أحالت فلسفته فكرة الشروط الخاصة بالاحساس الى دلالة عينية ماثلة . ولا يبدو ملائما لنا فهم الجوهر المادى على نحو مايتكلم عنه مل عند تناوله موضوع السبب فى الجزء الخاص بالاستقراء من كتابه عن المنطق (١) ، اذ كان لا ينبغى أن نخلط معنى السبب الاستقرائى بمعنى السبب كشيء مادى ، ويرجع ذلك الخلط عادة الى تقارب شديد بين مل وبين باركلى حول مفهوم السببية ، وينشأ عن هذا التقارب بين الفيلسوفين خلط كبير ما لم نفترض تشابها فى موقف كل منهما عند تفسير طبيعة الترابطات .

وقد تعرض هيوم لنقد باركلى بصدد هذا الخلط بين تناسق ارتباطات الأشياء الفزيائية وبين تناسق ارتباطات احساساتنا التى تحيلنا فيما بعد الى الأشياء الفزيائية (٢) ، وتقوم العلاقات الطبيعية التى هى مبادىء اتحاد وتماسك بتكوين عوامل الارتباط فى حالة الادراك ، ولكن لا يتبع ذلك أن ما يسمى « تشابها » يكون عاملا للارتباط فى هذه العلاقة الطبيعية ، اذ يجب أن تكون الادراكات التى تقوم بتكوين الفكر متميزة من العلاقات الطبيعية ، ولا تترابط الادراكات فقط بوساطة التشابه ، بل بوساطة العلاقة الطبيعية بين السبب والمسبب أيضا ، وتختلف هذه العلاقة الطبيعية عن علاقة التشابه والاقتران بما لهذه من طابع التوقع والانتقال من حيث المحتوى .

ويعود هيوم فيتعرض لعبارة باركلى : « ان الأنا نسق من الادراكات

---

(١) بريتون : جون استيوارت مل ص ١٩٢ .

(٢) دافيد هيوم : بحث من الطبيعة الانسانية ص ٣١١ وما بعدها من مجموعة « الفلاسفة التجريبيون البريطانيون » اشراف آير وفينش .

British empirical Philosophers, Ayer & Winch

المتحدة بوساطة السبب والمسبب » (۱) فالأنا اذن عبارة عن نسق من الادراكات المترابطة بوساطة علاقة السبب والمسبب ، والأنا من ثم نسق من عادات الاستدلال المبنى على السببية التى تختلف عن عادات الاعتقاد فى وجود مستقل بسبب طابع التوقيع والانتقال الذى تتميز به عادات الاعتقاد بالصورة التى تخصها دون سواها .

ويحتوى الاعتقاد فى وجود مستقل متواصل لشيء مدرك على تداع للتشابه فى المحتوى الدائم المتماسك ، غير أنه خال من النشاط القصدى للانتقال ، ولهذا يجب تمييز هذه الادراكات التى نعيها بوصفها حاضرة حضورا فعليا تاما ومحتواة بنفسها فى نفسها ونفرق بينها وبين تلك الادراكات التى هى مجرد توقعات فى قلب التجربة . والادراكات الأولى هى مظاهر الأشياء المدركة على حين أن الادراكات الثانية هى المكونات العادية للأنا ، وتتميز باعانة الذاكرة وبالتوقع معا ، واذ كان ثمة انقطاع أو تواصـــل بالنسبة الى العالم الخارجى (العالم المستقل عن الفكر) فالأمر متعلق بخصــــائص الانطباعات الحسية ، وسيتركز الاشــــكال خصوصا فى وصف هذه الانطباعات ولو بصعوبة دون اســــتخدام لغة الشيء المادى .

وعلينا من ثم أن نلاحظ الاختلاف بين السبب الخارجى وبين السبب من حيث تعلقه بحركات الفكر ، ولا ينبغى أن نستخلص الوجود الدائم لحقيقة موضــــوعية ومستقلة من سبب خارجى بالمعنى الفزيائى الذى يستخدمه مل بصدد كلامه عن الاستقراء ؛ فالسبب هنـــا مجرد امكان اصطناع منهج استنتاج عينى ماثل فى دلالة المفهومات . وتوجد المنضدة التى أكتب عليها الآن بطريقة تخالف الطريقة التى تقام بها فى مفهومى عنها ، غير أن السبب الذى يدفعنى الى التمسك بهذا المفهوم ليس سببا بالمعنى الفزيائى ، ولكن بمعنى الاجراء الممكن التحقق . ويوحى مظهـــر منضدتى العلوى مباشرة بامكانية قدرتى على رؤية قوائمهــــا اذا غيرت وضعى ، وتنتظر قوائم منضدتى مجرد تغييرى لوضعى كى تصــــير فى التو موضوعا لادراكى ، وليس التتابع المميز للحركة التى تلتقى بهــــا احساساتى للون والشكل مع ادراكات تتلمس الشيء نفسه من نظـــام التتابع السببى نفسه .

---

(۱) باركلى :

من مجموعة مؤلفات باركلى فى ٤ أجزاء سنة ۱۸۷۱ بلندن ..
Berkeley : The Common place Book (Frazer) i, p. 27.

وقد شرح بريتون هذه المشكلة شرحا طيبا ، وقال اننى أعزو اللون والشكل اللذين أراهما الآن الى شيء ذى ثلاثة أبعاد ، ومثل ذلك هـذه العبـارة :

(أ) « لقد انطمست معالم هذا الجانب من الكتاب » .

ولابد من تمييز هذا الارتباط من ارتباط على أو كلى آخر كما يتمثل فى قولى :

(ب) « هذا الجليد أبيض » .

ولا تستلزم القضية (ب) عدم امكان وجود جليد متسخ أو مترب ، ولكنها تستلزم هنا وجود ما اعتاد مل أن يسميه « المجموعة الثابتة » حيث يوجد البياض داخل التجربة جنبا الى جنب مع الرطوبة والبرد واللیونة الخ ... على هيئة نظام ما ، أو على الأصح على هيئة نظـام أملته طريقتى نفسها وحدها فى استخدام الحواس .

وتبين الصورة الحملية للعبارة (ب) ذلك الارتباط على حين لا يبين ذلك الارتباط قولى مثلا : « يوجد جليد وضوضاء » اذ لا تؤدى هـذه العبارة الأخيرة معنى أن الجليد يجلب الضوضاء .

« فلا تتعلق هـذه الارتباطات بحواسى وحدها وانما بحواس كل مراقب عادى ؛ ولما كان كل اثنين من البشر لا يتقاسمان الاحساس نفسه (كما يؤكد لنا مل) يبدو أن النـاس يؤسسون توقعاتهم ومحادثاتهم وسلوكهم على النماذج أو مجموعات الامكانيات نفسها . ويذهب مل اذن الى أننا نطلق اسم « الشيء المادى » على هذه النماذج الدائمة التى تتحكم فى احساسات كل انسان ، وهذا هو كل ما يعنيه الرجل العـادى من لفظة المادة مالم يقحم نفسه فى مناقشات فلسفية » (١) .

ويؤكد بريتون أن مل لا يزال حتى هذه المرحلة يوافق باركلى ، وكان باركلى يقول : انه لا وجود للجوهر الا بالمعنى الفلسفى الذى حدده ، غير أن مل آثر استخدام الجوهر بالمعنى المادى أى بمعنى الطابع المستقل الدائم فى شيء من الأشياء ، ولكن برغم ذلك كله وبرغم بعض الدقائق الجزئية الخاصة عند باركلى يمكننا أن نقول عن فلسفة مل وفلسفة باركلى : انهما كلتيهما لا يتناسبان مع فكرة الجوهر ولا مكان فى كل منهما للجوهر .

---

(١) بريتون : جون استيوارت مل ص ١٩٤ .

ولا يريد باكلى أن يسلم بالعلية فيما يتعلق بطبيعة العالم الخارجى ، أما مل فيأخذ على عاتقه مثل هذا الموقف دون أن يتحمل تبعة تفسير ذلك بالمعنى الفزيائى أو الاستقرائى ، ولكنه يتحمـــل متابعة فكرته فى مستوى الانطباعات العادى ، اذ تعد كل الشروط الوضعية للظاهرة فى المستوى العادى للانطباعات عناصر فعالة ، وليس الضـــوء وحده هو العنصر الفعال فى حالة الابصار ، ولكن العنصر الفعال هو الضوء مشتركا مع خصائص نشيطة فى العين ، وثانية فى الدماغ وثالثة فى الشىء المرئى .

وبرغم ذلك فلن تصير العلية التى تؤكد اعتقادنا our belief فى العالم الخارجى من نفس نوع هذه العلية التى أشرنا اليها فى الفقرة السابقة ، اذ يعطى مل معنى آخر لكلمة جوهر وهو يكشف عن كيفية تكونه ، وليس يوجد أى تعادل بين فكرة الشىء الخارجى وفكرة احساس ما ، فليست الامكانية الدائمة ـ هذه الوقائع أو تلك المعطيات التى تروح وتجىء . ان الامكانية الدائمة ـ كما أكد مل ـ عقدة تركيبية من الصفات الفزيائية . ولو أخذنا على عاتقنا مهمة التدقيق فى هذه النظرية لم نعثر على أشياء فيزيائية أخرى فى الحقيقة أو فى الوهم كما يقول رويس (١) . ويجب وفقا لهذا الموقف أن يرتبط أى شىء مظهرى بقضية كلية كيما يبرز فى العالم ، فكلما أردنا تعريف الأشـياء تعريفا دقيقـــا وجب أن تحتوى العبارات المتعلقة بهذه الأشياء على قضية كلية (٢) .

فالجرس المربوط بحبل يعد فى نظر مل مرتبطا بعقدة تركيبية من الصفات الفزيائية يتحدد وجودها جزئيا بوساطة صدق القضية ، واذا جررت الحبل دق الجرس . وكل قضية تبدأ (باذا) انما هى فى الواقع قضية كلية بالمعنى المنطقى للكلمة ؛ وعلى ذلك يكون تعريف وجود الشىء حقيقيا كان أو لم يكن عن طريق صدق القضايا وخاصة أن بعضهـــا قضايا كلية .

يسعى مفهوم مل الى اقتطاع القضايا من العالم الموضوعى ، ويود مل أن يظل بجوار الأشياء لا من حيث هى وحدات شيئية جوهرية ، ولكن بوصفها عقدا تركيبية فزيائية ، ومن السهل أن نرد هذا الموقف عند مل الى طبيعته المذهبية الاسمية ، ولا نرفض أن يكون الايحاء فى هـــذا الموقف من جانب الاسمية ، ولكننا قادرون على التماس النفسانية المنطقية

---

(١) رويس : الأبحاث المنطقية ص ٢٤٤ .
J. Royce's : Logical Essays editor : D.S. Robinson, 1951

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٥ .

لدى مل من الاستناد الى القضايا فى هذا الموقف بالذات ؛ ذلك أن القضية لا تعبر كما يقول رسل (١) عن وحدة شيئية واحدة ، والقضايا لا تنشىء اشياء مفردة ؛ اذ لا توجد فى القضية علاقة مفردة بين الفكر وبين شىء واحد ، ولكن توجد علاقات متعددة بين الفكر وبين أشياء عدة (٢) .

والسبب فى ذلك طبعا (اذا ناقشنا الأمر على مستوى فكر مل) هو أن المبدأ الذى ينشأ بناء على التجربة اكبر من مجرد مجموع الملاحظات الفردية بأى قدر ما ، هذا المبدأ تعميم مؤسس على حالات فردية ومعبر عن اعتقادنا بأن ما وجدناه حقيقيا فى هذه الحالات سيكون حقيقيا فى كل الحالات الأخرى ذات العدد اللانهائى التى لم تخضع لملاحظاتنا والتى لن نلاحظها أبدا (٣) .

ولا مندوحة اذن من أن نستنتج أن الموضوعية ليست كلها من عالم الشىء وأنهـــا تعتمد على حالة عقلية معينة تشبه ما يمكن أن نسميه بالقبول الذاتى للواقع الحقيقى (٤) .

وليس لهذا القبول طابع آلى ميكانيكى عند مل ، ويمكن ان نضع مل فى زمرة أولئك الذين أيدوا وحدة الفكر فى نظرياتهم عن العالم الخارجى . وتنطبق نظرية مل على الفكر اذا اعتبرنا الوعى خيطا من المشاعر الذى لا يعقل أن يكون واعيا بذاته ، ويقر مل بوجود رباط أو قانون بغـــير تفسير كحقيقة تربط المشاعر بعضها ببعض (٥) .

والواقع اننا لا نبالغ كثيرا اذا اقحمنا كل هذه التعبيرات على مفهوم الارتباطية والتداعى عند مل ؛ ذلك لأن مل وهيوم اعتادا اقحام الأفكار المعرفية فى مفهوم التداعى ، بل يمكن أن نقول مع لوريه : أنه وجدت مذاهب نفسية ارتباطية قبل مل تحولت بعده الى مذاهب فلسفية ارتباطية (٦).

---

(١) رسل وهوايتهد : أصول الرياضيات ص ٤٦ . وانظر أيضا ص ١٤٠ من من كتاب رسل عن التصوف والمنطق (الطبعة التاسعة سنة ١٩٥٠) .

(٢) هذه هى النظرية الأساسية عند أنصار الواقعية الجديدة .

(٣) مل : المنطق — جزء أول — ص ١٨٥ .

(٤) استخدم هذا التعبير كارفيث ريد فى كتابه ميتافيزيقا الطبيعة .
Carveth Read : Metaphysics of Nature

(٥) فالرتون : العارف فى علم النفس ص ١٣ — مجلة علم النفس — المجلد الرابع — عدد أول — يناير سنة ١٨٩٧
G.S. Fullerton : The knower in Psychology. The psychological review.

(٦) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ٤٢٤ .

ويوجه ستاوت عــدة انتقادات الى نظرية مـــل عن معرفة العالم الخارجي (١) • وأهم انتقاد وجهه ستاوت الى مل ـ أن نظريته عن الحكم تجعل الحكم يتعلق بالحقيقة الخارجية دون أن يقيد هذه الحقيقة بالتعريف المظهرى أو بتعريف الحس الساذج ؛ فبغير هذا التقييد يصعب قبول معنى الحكم على هذه الصورة .

واهم ما يبرز وجهة الخلاف بين ستاوت ومل أن الأول يضع نفسه في المستوى النفسي البحت وينسى التقدير المعرفى الذى انصب عليه تفكير مل الى جانب تفسيره النفسي . ويقول ستاوت ان جوهر نظرية مل هو أن الحقيقة الخارجية تتكون من الثبـــات والنظـــام الذى توجد فيه الاحساسات الحالية ، والذى تستطيع الاحساسات الممكنة أن تتحقق عن طريقه اذا حصلنا عليها في التجربة فعلا (٢) .

والواقع أن ستاوت يشير أيضا فى نقده الى المعنى التجريدى الخاص بامكانيات الاحساس ، وينشأ خطر هذا التفسير الذى قال به مل من بقاء الاحساسات فى المستوى المهوش للاحساسات المجتمعة وفقا لقانون دائم دون أن تحسب حساب هذا القانون ، فالتفسير النفسى يعتبر الأجسام كمجموعات احساسات أو مجرد امكانيات احساسات ، فاذا قلنا ان احساساتنا تتضمن أو تقتضى سببا خارجيا كان ما نعرفه عن العالم الخارجى مجملا فى الاحساسات التى يعطيها « لنا » وفى نظام المعطيات الخاصة بهذه الاحساسات ، غير أن هـــذه النظرة لا تحسب حساب اصول التكوين والنماء لاعتقادنا فى العالم الخارجى .

ومن الواضح أن الاعتقاد فى العالم الخارجى واقعة نفسية ، ولكن من الواضح أيضا أن الأثر الناجم عن هذا الاعتقاد أو كل ما ينشأ عنه من نتائج أدخل فى باب المنطق بخاصة . ونحن لهذا السبب نغفر لستاوت Stout نظرته النفسية البحتة الى نظرية مل عن العالم الخارجى برغم أن مل قد أجهد نفسه في تأسيس وجهة نظره المعرفية من هذه الناحية ، والسبب فى ذلك هو أن مل برغم ما قاله معرفيا بصـــدد نظرية العالم

---

(١) ستاوت : ناسلية المعرفة بالحقيقة الفزيائية ص ٢٣ مجلة مايند البريطانية عدد يناير ــ المجلد ١٥ سنة ١٨٩٠ .

Stout : The Genesis of the cognition of physical reality.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤ .

الخارجى كان يجتهد فى تفسير الحياة العقلية عن طريق التداعى أكثر مما كان يجتهد فى دراسة شروط التداعى نفسها (١) .

ويقول كلاباريد انه لا شك فى أن مل شابه كل الترابطيين فى القرن التاسع عشر فى اتخاذ هذا الموقف ، وكان كلاباريد على حق حين قال ان مل كان ذا نظرة ثاقبة حين تمسك بقضية أن الشيء الخارجى امكانية دائمة للاحساسات ، غير أنه تناسى أو نسى فعلا فى رأى كلاباريد تفسير وشرح طبيعة النمو الوجدانى الخاصة بهذه الامكانية (٢) .

ولا يمكن أن نكتفى كما قال آير Ayer فيلسوف الوضعية المنطقية المعاصرة بالاشارات الغامضة التى أعطاها مل فى موقفه ذاك الى قوانين تداعى الأفكار : فهناك طرق شتى لتكوين معطيات التجربة ، ولكن ليس هـذا عذرا كما يؤكد آير لاهمـال العنصر الرئيسى فى نظرية العالم الخارجى (٣) .

والمشكلة الحقيقية هنا هى أن فعل الاعتقاد بسيط جدا اذا وضع فى مكانه المناسب وفى دائرته الخاصة به ، ويبقى الوعى دائما وعيا بالأحداث العقلية (٤) . ويجب أن يظل الاعتقـاد فى دائرته الطبيعية كى تكتشف بساطته ، بل يجب أن ننظر الى علاقات الأفكار كوحدات فى اطار وحدة العلاقة ذاتها على حسب ما تشير اليه علوم النفس الحديثة بكلامها عن الاستشعار (٥) . أما عند مل فهو يسلم بوظيفة التحليل كما سبق أن شرحناه فى الفصل السادس ، ولكنه لا يتخلى أبدا عن اعتقـاده فى أن الفعل العقلى ينصب على الوقائع ذاتها وان كان قد فسر الوقائع ذاتها تفسيرا معينا لمواءمتها بهذا الوضع . أعنى أن مل أراد أن يجعل من الوقائع ذاتها وقد فهمها بشكل معين موضوعا مباشرا للفعل العقلى ، ويقول مل : ان اعتقـاده لا يتعلق بأفكار عن الأفكار ، ولكنـه يتعلق بالأشياء (٦) .

---

(١) كلاباريد : تداعى الأفكار ص ١٧ .
Claparède : L'association des idées

(٢) المرجع نفسه ــ ص ٣٢٤ .

(٣) آير : أسس المعرفة التجريبية ص ٢٤٥ .
Ayer (A.J.) : The foundations of Empirical Knowledge.

(٤) ستاوت : ناسلية المعرفة بالحقيقة الفزيائية ص ٢٤ .

(٥) بالدوين : الشعور والارادة ص ٧٩ وراجع ما سبق أن قلناه عن الاستشعار فى الفصل السادس .
Baldwin : Feeling and Will

(٦) مل : المنطق ــ جزء أول ــ ص ٩٦ .

ويعتقد ستاوت أن خطأ مل لم ينجم الا نتيجة افتراضه أن نظام الاحساسات (شرطية نسبية كانت أم فعلية) يمتلك فى ذاته كل خصائص العالم الطبيعى أو الحقيقة الفزيائية (١) : ذلك أن تجمع الامتثالات الحسية (فعلية كانت أم شرطية نسبية) هو تجمعات الوقائع العقلية لا الوقائع الطبيعية ، بل هو تجمعات الوقائع العقلية وقد حددها نظام تسلسل العمليات الفزيائية وفقا لظروفها الفسيولوجية الخاصة بالاحساس .

ويعترض بيكلر Pikler على ستاوت مؤيدا مل فى نظريته فيقول : الواقع انه يوجد نوعان من الأشياء الحالية الفعلية بالنسبة الى الفكر : توجد امتثالات حالية فعلية ، ويوجد وجود موضوعى حالى فعلى (الحدوث) . ولا تنتمى الامتثالات الممكنة الى الضرب الأول ، ولكن الى الضرب الثانى وهو ما كان مل يطلق عليه اسم المعانى البسيطة (أو موضوعات المعرفة) الممكنة . وعندما يتحدث مل فى نظريته عن تعايش أجزاء المنزل أو غرفه المختلفة مثلا — لا يعنى أنه توجد امكانية لادراكها جميعا معا ، بل معناه أنه يوجد عدد من الامكانيات المتآنية للمعانى البسيطة (أو لموضوعات المعرفة) يختار الفرد من بينها على حسب ارادته (٢) .

ويحتوى اعتقادنا فى وجود عالم خارجى على أشياء متآنية ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى وفقا لنظرية مل هذه أن اعتقادنا فى امكانية الاختيار من بين المعانى البسيطة (أو موضوعات المعرفة) المنوعة تبقى بقاء مستديما أمامنا فى كل لحظة .

ولا ينبغى أن يختلط الاعتقاد لدى مل كما سبق أن قلنا فى الفصل الخامس بالتداعى المحض ، ولا شك فى أن كل اعتقاد انما هو ثمرة تداع ، ولكن من التداعيات ما لا يولد اعتقادا ، ويوجد عند فونت نوعان من التداعى : أولهما ذلك الذى ينشأ عن التشابه وهو الجوانى الباطنى ، وثانيهما برانى وهو الذى ينشأ عن الاقتران ، والتداعيات القوية هى الجوانية لأن محتوياتها ترتبط بطبيعتها الأساسية الضرورية الخاصة بها . على حين ان التداعيات الأخرى عرضية ومظهرية (٣) .

(١) ستاوت : ناسلية المعرفة بالحقيقة الفزيائية ص ٢٥ .

(٢) بيكلر : ناسلية المعرفة بالحقيقة الخارجية . عدد يوليو من مجلة مايند السنة نفسها ١٨٩٠ . Julius Pikler

وقد رد ستاوت بعد ذلك على دفاع بيكلر عن مل فى عدد أكتوبر من السنة نفسها وأبدى تأييده واعجابه بهذا التعبير الأخير واعتبره تعبيرا موفقا تماما فى تفسير مل .

(٣) فونت : خصائص علم النفس الفسيولوجى ص ٤٥٥ .
Wundt : Grundzüge der Physiologischen Psychologie

على ان مل لم يضع التداعيات الثانية فى درجة أقل من الأولى ، ومن هنا كان مستوى كلام مل محددا بنظرية المعرفة أكثر من انسياقه الكامل مع علم النفس ؛ ذلك لأن هذا التداعى الأخير هو الأهم لدى مل فى تعيين فكرة الشيء وتكوينها . ولهذا ألح مل على أهمية التداعى الثانى ، فالاعتقاد يتعلق خصوصا بالأشياء . فاذا كان الاعتقاد عند مل مرتبطا بالأشـياء الخارجية على الخصوص نشأ عن ذلك ضرورة تخطى الاعتقـاد لمراحل الادراك أى ضرورة بلوغه مستوى أعلى من مستوى الادراك وشموله لكل من الادراك والامتثال . ولهـذا يجب أن يتجاوز الاعتقاد الادراك عند مل . فى الاعتقاد نتجاوز الامتثال ونصعد الى أكثر من شيء واحـد ، ولا يبلغ التداعى مُهما كانت أصالته فى الاعتقاد تركيبه المعقد المعروف (١) .

وعلى التداعى كى يكون أوليا بسيطا أن يكون تداعيا بين الأفكار ، فعندئذ يكون التداعى عملية بسيطة أو ابسط عملية ممكنة ولا تقبل مزيدا من التبسيط . ولكن تتابع التداعيات الكثيرة يؤدى الى نشوء فكرة الشيء ثم الى نشوء الاعتقاد من ثم ، وكان التداعى لدى هيوم أحـد العوامل الهامة للاعتقاد ، ونظر جيمس مل الى التداعى كعامل وحيد ، اذ يرتد التداعى عند جيمس مل الى آليته البحتة الخالية من الانتباه ذاته . وعبارتا « أحس » و « أعتقد أننى أحس » تعبران عن الحالة النفسية نفسها تماما (٢) .

أما عند جون استيوارت مل فلا يقف الأمر عند حدوده النفسية الخالصة لأنه كان قد راعى أساسا الجانب المنطقى من الموضوع ، فهو يضع المشكلة اذن على مستوى آخر ، فالتداعى تداع بين الأفكار ، ومن ثم فهو ناقص ، ينطبق التداعى على الاحساسات ، ولكنه برغم ذلك ليس أصلا للاعتقاد . من الجائز أن توجد اعتقادات فى حالات الشعور أو الوعى الأولية جدا ، ولكنها لن تكون فى هذه الحالة سوى وسائل عملية للأفعال المباشرة . وقد صيغت هذه الاعتقادات على قد عالم بغير علاقات عدة وبغير أشياء متميزة . وهذه الاعتقادات نوع خاص يسميه مل شـبه ـ الاعتقادات ؛ ولكى يصبح الاعتقاد فى العالم الخارجى فى المستوى الفكرى يتحول الى شيء آخر سوى الادراكات وسوى التداعيـات ، اذ يعطى

(١) لا بأس من مقارنة هذا الموقف بما يذكره بياجيه عن الطفـل عند ادراكه للعلاقات بين الأشياء فى كتابه عن بناء الواقع الحقيقى لدى الطفل ص ٣٦٩ ، وفى كتابه الحكم والاستدلال عند الطفل ص ١٧٦ .

(٢) جيمس مل : تحليل العقل البشرى ـ جزء أول ـ ص ٣٤٢ .

الوجود الخارجى الحالى للشىء عن طريق الاعتقاد لا عن طريق الوعى (الشعور) ويتوافر لنا الشعور بالعمليات دون شعور منا بموضوعها الشيىء . « ولكن — هكذا يقول مل — ليست الادراكات هى الوحيدة التى تظهر لنا الشىء الخارجى من بين جميع العمليات العقلية التى يتوافر لنا الشعور بها ؛ فنحن نشعر أيضا بالاعتقادات » (١) .

وعلى الاحساس أن يحتفظ باسم أو باسمين اضافيين : فيكون له اسم يشير اليه (أى الاحساس نفسه) كمقابل لموضوعه ، واسم آخر يشير اليه كمقابل للشىء الخاص به (٢) . ويعترف مل برغم ذلك باستقلال الآلية الميكانيكية الخارجية وضرورة بلوغ المستوى الذى نصبح فيه قادرين على تصور الحقيقة المادية ... أى الامكانية الدائمة للأشياء ، غير أن الانتقال الى أرض المنطق يكون أيسر اذا ضمنا التقابل بين الموضوع وبين الشىء فى مفهومات الأشياء لا فى الأشياء ذاتها ، اذ يمكن بهذا التضمين أن يحل التمييز بين الموضوع وبين الشىء فى قلب التجربة ذاتها ولا نحتاج من ثم الى أية ثنائيات .

ولا شك فى أن موقف مل هذا أقرب الى طبيعة منطق الفكر ؛ فهو لا يفترض توافر المفهوم المتكافىء (٣) لشىء حقيقى ، ولكنه يعتقد أننا نملك مفهوما حقيقيا لشىء ما اذا تصورناه عن طريق صفتين من صفاته ، اذ تكفى هاتان الصفتان لتمييزه من سواه (٤) ، ولذلك نحصل على مفهوم رقم كبير أو مكان لا نهائى دون أن نملك اطلاقا أى مفهومات متكافئة ودون أن نستنفد أجزاء مفهومات الرقم الكبير أو المكان اللانهائى . وبرغم ذلك تكون هذه المفهومات حقيقية وتامة التحديد . بل ويمكننا أن نتخيل كل الصفات المنوعة التى تحدد هذه المفهومات بالتخيل التام كما يقول مل ، وهكذا ينبنى اعتقادنا فى العالم الخارجى على أشياء حقيقية وان كانت غائبة وغير متكافئة فيما يتعلق بمفهوماتنا هذه (٥) .

ويؤكد مل أننا اذا فكرنا فى شىء غائب أو خيالى فاننا لا نتصور طبعا أننا نفكر فى شىء موضوعى نميزه من فعل التفكير (٦) . فأنا أرى الآن مثلا

---

(١) مل : فلسفة هاملتون ص ١٤٠ (طبعة فرنسية) .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٣ .

(٣) التكافؤ عند العرب هو التساوى بالانطباق وهى أصلح ترجمة للأفكار المتكافئة عند اسبينوزا أيضا .

(٤) مل : فلسفة هاملتون ص ٩٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ٩٩ . وقارن هذا بالرسوم التخطيطية عند كانط .

(٦) المرجع نفسه ص ٢١٠ .

هذه الورقة التى أكتب عليها ، ولكننى أكف عن رؤيتها بانتقالى الى غرفة أخرى من غرف بيتى ، وبرغم ذلك اظل مقتنعا ببقائها كما هى ، وذلك فى الواقع بفضل احتواء المفهوم على أكثر من حقيقته ، واذن يحتوى مفهومى عن العالم الذى اكونه لنفهى فى لحظة محددة على مجموعة منوعة لا نهائية من امكانيات الاحساس الى جانب احساساتى التى تمر بتجربتى ، ولا تمثل هذه الامكانيات احساسات معزولة بل تمثل مجموعات من الاحساسات التى تنشيء موضوعا دائما مختفيا وراء الوقائع الهاربة غير المحددة فى التجربة .

وبهذا نستطيع أن نفكر فى وجود كل احساساتنا أو واحدة منها فقط على علاقة بأشيائها أى على علاقة بمجموعات دائمة لامكانيات الاحساس التى نحملها اليها عقلا ، فننتقل من هذه الاحساسات الى الامكانيات الدائمة للاحساسات التى تقوم كرموز لها ، وعندئذ يتكون لدينا نسق نبلغ به الأشياء دون أن نملكها .

وهنا يصح لنا أن نعلق على ذلك بقولنا أن مل برغم اهتمامه بالمعرفة وبهذا الجانب التجريبى فى توفير الوقائع والملاحظات لم يشعر قط بحاجة الى أن يميز منطقيا الشيء المنطقى من الشيء « الحقيقى » ، وكان مل يكتفى برد الشيء « الحقيقى » الى قوة وجودية (أى الى درجة معينة من درجات الوجود) لا محدودة كى يتحاشى الوقوع فى مشكلات الكانطية من ناحية ومشكلات التجريبية المتعلقة بالنزعة الاسمية من ناحية أخرى .

وبهذا المعنى استطاع مل أن يتخطى الأنانة Solipsisme ، فهو يسوى تسوية كلية بين الحقيقة الطبيعية وبين محتوى التجربة الحسية أى الظاهرة (١) . وتعنى نظرية مل عن الموضوعية أنه كان يعتقد عدم امكان معرفة العالم الخارجى بغير التجربة أى بغير الفكر .

كذلك خاص مل نطاق مشكلة معرفة الآخر على نحو خاص به ، فبما أنه عرف الشيء المادى كمجموعات ثابتة لامكانيات الاحساسات لم يستطع من ثم أن يخرج عن حدود هذه الاحساسات الخاصة ، وبذلك لا يمكن معرفة عالم الآخر الا خلال الفكر الشخصى ، ولكن ينبغى تعديل شيءواحد فقط هنا وهو ابعاد أو حذف الطابع الشرطى النسبى فيما يتعلق بعالم الآخر ، وعندئذ فلا شك فى أن الوضوح الذى أجرب عواطفى به من نفس

---

(١) بلانشيه : العلم الفزيائى والحقيقة ، ص ٩١ .

R. Blanché : La Science physique et la réalité

طبيعة الوضوح الذى يصاحب حضور مشاعر الآخر فى فكره ، ولذلك لا يجوز وضع ميكانيكية الفكر لدى الآخر فى نفس مستوى وجود الاشياء غير المدركة (١) .

لا يحمل وجود الأشياء غير المدركة من بين شروطه تجربة تعادل فى مباشرتها تلك التجربة التى أمر بها فيما يتعلق باحساساتى (٢) ، ولا أستطيع أن أقيم تماثلا أو تناظرا مباشرة بين حالة الموجودات غير المرئية وبين حالة فكر الآخرين ، ولذلك ننتهى عادة الى أن فكر الآخرين يناظر فى اقتناعه ووضوحه ما يمر بالشخص ذاته فى شعوره ، واذا مددنا بحثنا الى أقصى آماد العالم الخارجي فسنعثر على آلية علية من التوافق العام ، أما فيما يتعلق بفكر الآخرين فسنعثر آخر الأمر على اقتناع أو وضوح مباشر كمباشرة اقتناعنا أو وضوحنا فى تجاربنا الحسية .

والحق أن فكر مل بهذا الصدد يصل وحسب الى منتصف الطريق الى السلوكية ، فهو قد انفصل عنها بمجرد اقحامه فكرة الوضوح (الاقتناع) النفسى والمنطقى فى اجراءات الاعتقاد فى تجارب الآخرين ، وتتحول عنده بعد ذلك أجسام الآخرين الى امتثالات أجسام ، فلم تكن الأجسام قط ظاهرات ما فى راى مل ، ولكنها كانت وقائع شعورية . على أية حال نستطيع أن نلاحظ اختفاء الأسس الفسيولوجية بالمعنى النفسى لدى مل ، ولن يتيسر اذن تقدير سلوك الآخر على أساس برانى بحت .

ويقول مل ان عليه أن يعتقد أن الآخرين كائنات حية أو شخوص آلية متحركة ، فاذا اعتقدت أنهم كائنات حية أى عندما أفترض الحد الأوسط ذا طبيعة من عين طبيعتى أثناء قيامى بالتجربة وأجد تشابها من كل الجوانب بين الطبيعتين — فاننى أعيد من ثم النظرية الحقيقية الخاصة بوجودى الى كل الكائنات البشرية باعتبارها ظاهرات خاضعة للقوانين التى تشكل تجربتى . ويذكرنى اجراء مل هنا فى هذا البرهان بطريقة

---

(١) بريتون : جون استيوارت مل ص ١٩٦ .

(٢) استيس : نظرية المعرفة والوجود ص ١٥ (تأكيدا لهذه الحقيقة) .

W.T. Stace : The Theory of knowledge and existence

نيوتن التى استخدمها لاثبات أن القوة التى تساند الكواكب فى مداراتها هى هى القوة التى تدفع بالتفاحة الى السقوط . ولم يسع نيوتن لاثبات أن هذه القوة الخاصة بالتفاحة لا يمكن أن تكون شيئا آخر سوى القوة المساندة للكواكب . وكذلك مل طبعا لم يجهد نفسه فى اثبات أن هـذه التجارب الخاصة بالآخرين ليست شيئا آخر سوى تجاربه هو نفسه .

فنحن نعرف وجود الآخرين فى رأى مل بتعميم ما نعرفه عن تجربتنا نحن (١) .

---

(١) مل : فلسفة هاملتون . ويمكن مراجعة نقد رسل للنفسانية كما ظهرت فى كتاب فلسفة هاملتون ص ٢٢٨ — ٢٣٢ (الطبعة الفرنسية) تحليل العقل ص ٣٠٣ حيث هاجم رسل فكرة التعميم هذه وقال : انها شىء آخر سوى القانون العلمى النفسى ..

الفصل التاسع

النفسانية فى عمليات الاستدلال

من كل ما تقدم نرى الى أى حد يمكن أن تتراكم أمامنا الصعوبات حين نود أن نقبل على دراسة الاستدلال فى منطق مل ، ولا ينشأ ذلك من طبيعة الاستدلال ذاته ، وانما من كل الملابسات التى تحيط به ، ففى القضايا نفسها اشارات الى الوجود والعلية والتآنى والتشابه والاقتران ، ولا تخلو قضية اطلاقا من الدلالة على واحد من هذه الأنواع الخمسة Species . واذا أخذنا مثلا من أمثلة مل المشهورة (١) : « الفطنة فضيلة » Prudence is a Virtue وأحللنا محل كلمة « فضيلة » تعبيرا أكثر تحديدا مثل : « صفة عقلية مفيدة للمجتمع » أو « صفة عقلية ترضى الله » أو اخترنا أى تعبير مرادف آخر يناسب المقام كان الأصل فى هذه القضية هو أن تشير الى التتابع المصحوب بالسببية ، أى أن الصفة العقلية المفيدة للمجتمع أو أى تعبير آخر نختاره كبديل لكلمة فضيلة لا يعدو أن يكون تتابعا مترتبا أو مبنيا على سبب هو الفطنة بمعنى التعقل والروية .

وهكذا ندرك معنى تبعية التابع ، ويبقى أن ننظر فى أمر المتبوع أو السابق ، فالفطنة بمعنى التعقل والروية صفة أو كيفية وينشأ عنها طرفان جانبيان :

الأول : الأشخاص أصحاب الفطنة (المتعقلون المترووون) الذين هم موضوع لهذه الصفة .

والآخر السلوك المتعقل المتروى الذى يمكن أن نسميه أساس هذه الصفة أو أصلها .

فليست الفضيلة مرتبطة ارتباطا عشويا بالفطنة ، انما الأشخاص الذين تنسب اليهم الفضيلة لا ينالونها الا بقدر ما يتاح لهم من الفطنة ومن

---

(١) مل : المنطق ص ٦٩ (أ) .

الفطنة بالذات ، فلا تغنى أية صفة عنها ولا يطلق أسمها على أحد الا بناء على انطباقها على سلوكهم ، ولذلك ليس الجوهر (الشخص) ولا الظاهرة (السلوك) هما المتبوع أو السابق الذى يليه التابع على نحو كلى ، بل حالات الشخص بالعقل والتروى هى السابق الحقيقى فى التوالى أو التتابع ، أو هى السبب الحقيقى لهذه العملية التى تؤكدها القضية . وهذه أيضا هى نفسها الأساس الحقيقى أو الأرضية الحقيقية لصفة التعقل والتروى . فحيثما كانت هذه الحالات العقلية موجودة يمكن أن نستخدم صفة « الفطنة » حتى ولو لم نعرف أى سلوك تابع .

وهكذا يمكن تحويل أى حكم متعلق بصفة أو بكيف الى حكم آخر متعادل تمام التعادل فيما يتعلق بالواقعة او بالظاهرة التى تكمن فى أساس القضية أو التى هى نفسها أساس للقضية ، ولا يمكن أن تفلت أية حالة من انتساب ما يحمل على الواقعة أو الظاهرة الأصلية فى القضية الى الأنواع الخمسة التى سبق تعدادها وهى الوجود والتتالى والتآنى والعلية والتشابه (١) .

ويوصف علم النفس الصحيح بأنه دراسة وقائع الشعور وبحث هذه الوقائع لاكتشاف القوانين التى تشبه بداخلها قوانين الطبيعة أو التى قد تكون مستقاة منها ، وتعبر أعمال ومؤلفات المذهب الترابطى عن هذا الموقف الذى يواصل تراث هيوم مع اعطاء تجريبيته منحى علميا جديدا يوائم القرن التاسع عشر باتجاهاته وظروفه .

وينصب موضوع علم النفس من وجهة النظر هذه كما يوضحها مل على توافقات التتابع والتوالى وعلى القوانين (سواء كانت ثابتة أو مستقاة) التى تتبع حالة عقلية حالة عقلية أخرى وفقا لها بحيث تكون الثانية متسببة عن الأولى .

وقد امكن عن طريق علم النفس تحديد قانونين اساسيين عامين . القانون الأول يربط كل امتثال باحساس حسى معين . والقانون الآخر يربط كل الامتثالات بعضها ببعض فيما بينها .

ويمكن تلخيص مهام علم النفس عند مل فيما يلى : (٢)

١ — البحث عن المعطيات البدائية للشعور .

---

(١) مل : المنطق ص ٦٩ (ب) ، ٧٠ (١) .

(٢) مينار : منطق جون استيوارت مل ص ١٨ — ٢١ .

Mesnard, Pierre : La Logique de J.S. Mill 1942.

٢ ــ البحث عن العلاقات بين الأفكار القوية والأفكار الضعيفة التى تثيرها بما بين كل منها من تشابه .

٣ ــ البحث عن العلاقات بين الأفكار البسيطة وبين الأفكار المركبة التى تنشأ عنها بالكيمياء العقلية .

٤ ــ البحث عن التداعيات بين الأفكار من الصنف نفسه أو من درجة تعقيد مغاير فى أى مستوى من المستويات طالما كانت القوانين العامة للتداعى تتحكم فى الحالات المعقدة والبسيطة فى الفكر سواء بسواء .

وكانت هذه الاشارة العابرة ضرورية بعد المثل الذى أعطيناه للقضايا عند مل كى نتذكر الأسس التى يتعامل على أساسها فيلسوفنا التجريبى. ويقول مل نفسه أنه لا غنى عن الاشارة الى هذه الموضوعات بهذا الصدد تمهيدا للدخول فى موضوع المنطق الرئيسى ، أى فى طريقة اثبات القضايا ، ذلك أن موضوع الاستدلال هو أصل كل الموضوعات الخاصة بالمنطق . ولا شىء يعين على امكانية التفسير النفسى للذهن مثل الطريقة التى ينبنى عليها تفسير عمليات المنطق على حد تعبير جان بياجيه (١) ، ومن ثم وجبت العناية بجملة العمليات المنطقية كأصول لهذا الموضوع الرئيسى .

ويتحدث مل عن الأصول المذهبية التى يناقضها أو التى يتفق معها فى منطقه. فيتكلم مثلا عن التصورية Conceptualisme وعن الاسمية Nominalisme وعن الواقعية Réalisme ، ويذكر مل أن النظرة التصورية والنظرة الاسمية خاطئتان فيما يتعلق بنظرتهما الى القضية (٢) .

ولا نود هنا أن نخوض فى مشكلة المفهومات التصورية والاسمية والواقعية فى علاقاتها بالقضايا ، فتلك مسألة لا تزال تمثل حتى اليوم أساس النزاع فى قضايا الفكر المعاصر ، كما أنها تصب فى تيارات فلسفية حديثة وتتشكل فى صور عدة مختلفة ، ولا يخلو فيلسوف من الحاجة الى الانتماء اليها على نحو من الأنحاء .

ولا أدرى ــ وهذا رأيى شخصيا ــ هل كان مل قد ادرك الفرق بين الواقعية كما أراد أن يمثلها وبين الواقعية التى ورثها عصره عن العصور الوسطى ؟ فهو يعارض كلا من النظرتين التصورية والاسمية بوصفه من أنصار الواقعية ، ولكن أى واقعية هذه ؟

---

(١) جان بياجيه : علم نفس الذهن ص ٢٦ .

(٢) مل : المنطق ص ٧٠ (ب) .

فالواقعية كما ورثتها عصور النهضة كانت لا تزال تحمل آثار مفهومها خلال العصور الوسطى ، وكانت الواقعية فى العصور الوسطى تشير الى مذهب أفلاطون أو تعنى بواقعيتها الأفلاطونية فى ايمانها بوجود واقعى للمثل . الواقعية فى العصور الوسطى واقعية المذهب الأفلاطونى فى تمسكه بواقعية وجود التصورات والمبادىء فى عالم المثل ، وامتدت هذه الواقعية متمثلة فى مذهب القديس أوغسطين حتى القرن الحادى عشر (١) .

وليس علينا أن ندخل فى تفاصيل الفوارق القائمة بالفعل بين انصار هذه المذاهب (٢) . حسبنا أن ندرك عابرين أن الاسمية الجديدة المعاصرة تشارك الواقعية الجديدة فى بعض مفهوماتها وتختلف عنها فى بعضها الآخر ، ذلك أن الواقعية الجديدة صارت تتمسك بمضامين الأسماء ومحتوياتها الحقيقية بالصورة الادراكية المباشرة ، ولذلك فالواقعية الجديدة أقرب الى التجريبية العلمية فيما لا يتوقف عند حدود الكلمات كما هو الحال فى الاسمية .

وقد أشار روجييه Rougier الى شيء مما أشرنا اليه فى موقف مل ، وعلل روجييه ذلك بأن مل كان ضحية عناد تملكه ودفع به الى أن يخلط عن قصد بين المادة والصورة فى كل انتقاداته التى وجهها الى القياس الاستدلالى (٣) ، فقد اتهم مل القياس بأنه تحصيل حاصل ، كما اتهمه بأنه يدور فى دائرة مفرغة ، وأوقعه عناده خلال نقده للقياس فى خلط مقصود بين موضوع القياس وشكله ، وأدى ذلك الى عدم وضوح معنى الواقعية من جهة ، كما أدى الى ظهورها أحيانا بمظهر الأفلاطونية .

وتسود الواقعية التى يدعو اليها مل معالم النفسانية المنطقية وملامحها الخاصة بالتعميم ، ففى الأفكار والألفاظ تجنح واقعية مل نحو معارضة الاسمية والتصورية مع الاحتفاظ بآثار الواقعية القديمة ، وهو يقول صراحة : « برغم أن القضايا تتعلق بالأسماء وبالأفكار ، ليست هذه الأسماء والأفكار فحوى Subject-Marter القضايا بعد اخضاعها للتعميم » (٤) .

---

(١) كاريه : الواقعيون والاسميون ص ٣٧ (اكسفورد ١٩٤٦) .
Carré : Realists and Nominalists

وراجع أيضا لفظة الواقعية فى قاموس لا لاند ص ٨٧١ (ب) .

(٢) عبد الفتاح الديدى : الملامح الرئيسية لفلسفة الظاهريات فى كتاب الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) لوى روجييه : الأغاليط التقليدية فى البراهين — ص ٨٤ .
Louis Rougier : Les Paralogismes classiques, 1920.

(٤) مل : المنطق ص ٧٠ (ب) .

والقضايا اللفظية التى نستثنيها من هـــذه القضايا هى القضايا الماهوية أو الأساسية Esssential التى لا تعنى ألفاظها سوى ما تسميه ، وتتعارض القضايا الواقعية أو العرضية أو غير الماهوية (غير الأساسية) التى أشرنا اليها مع هذه القضايا اللفظية او الماهوية (الأساسية) التى لا تحكى عن الشىء واقعة أخرى سوى ما تتضمنه دلالات الأسماء التى تتكلم عنها (١) . على حين تضيف القضايا الواقعية الى معارفنا شيئا لا تتضمن الأسماء معناه .

والقضايا اللفظية كقضايا تحصيل الحاصل مثل قولنا ــ « كل انسان فان » ومثل « لا انسان اله » ــ لا تشير الى نوع من الأنواع الخمسة التى ذكرناها خلف الألفاظ التى تشير اليها ، ولهذا ننظر اليها على أنها اما قضايا تأملية أو قضايا مفكرة للتذكير خلال الاستخدام اليومى .

فالقضية اللفظية الأولى « كل انسان فان » لا تعنى سوى أن صفات الانسان تقترن دائما بصفات الفناء ، كما تعنى القضية اللفظية الثانية « لا انسان اله » أن صفات الانسان لا تقترن اطلاقا بصفات الآلهة .

واذا نظرنا الى أمثال هذه القضايا على أنها مفكرات للتذكرة خلال الاستخدام العادى كانت صفة الانسان مجرد علامة أو دليل فى القضية الأولى على الفناء ، وكانت القضية الثانية مجرد تذكير على انتفاء وجود صفة الآلهة ضمن صفات الانسان انتفاء تاما (٢) .

ولذلك يمكن تلخيص النقط المعرفية الأربع التى تقوم عليها النفسانية فيما يتعلق بالقضايا عند مل بالشكل التالى :

١ ــ رفض الكليات وتفسيرها بالآلية النفسية فى التداعى وفى اللغة .

٢ ــ تحديد الضرورة فى الفكر بمقتضيات التواصل التحليلى .

٣ ــ انكار لكل قيمة مطلقة فى موضوعات الواقع .

٤ ــ تضييق محتوى القضايا وقصره على العلاقات المعروفة فى الأنواع الخمسة : التشابه والتآنى والتتابع والاقتران والعلية .

وأشار مل الى هذه النقطة الأخيرة فى الحاح فى مطلع كلامه عن الاستدلال ، وكأنما أراد أن يوجه الذهن الى أن الحقيقة الخارجية برغم

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٤ (ب) .

(٢) مل : المنطق ص ٧٥ (ب) .

كل ذلك أول حقيقة يعول عليها الذهن حتى فى العمليات المنطقية البحتة ، أو كأنما أراد مل أن يشير الى حاجة الذهن دائما الى القيام بفعل عقلى للتضمين فيما يتعلق بعمليات الاستدلال ، وأعنى بالفعل العقلى للتضمين ما يسمى بالفرنسية Acte rationnel d'inclusion أى الفعل العقلى الذى يضمن به الفكر عمليات المنطق بمضامين معنوية تشير الى الأشياء المادية. لم يبح مل طبعا بمثل هذا المفهوم ، ولم ينطق باسمه ، ولكن يحس قارئه فى المنطق أنه يكاد يقول بهذا الفعل العقلى للتضمين ، وهذا من شدة ما ألح على تأكيد ضرورة قيام العقل باحلال مسميات الأشياء دائما فى كل مناسبة داخل العمليات المنطقية أو العقلية .

وكأنما قصد مل الى ذلك قصدا فقال ان الموضوع الحقيقى لكل قضية اما أن يكون واقعة أو أكثر من وقائع أو ظواهر الشعور ، أو أن يكون واحدا أو أكثر من الأسباب أو القوى الخفية التى نعزو اليها تلك الوقائع (١) .

ويلخص مل هذه الحقيقة فى مبدأ علمى أكثر سهولة يؤدى الغرض منه . يقول هذا المبدأ : « تؤكد كل قضية أن موضوعا ما يملك أو لا يملك صفة ما ، أو أن صفة ما تتفق أو لا تتفق (فى كل أو فى بعض الموضوعات التى تلتقى معها فيها) مع صفة أخرى » (٢) . واذا كان هذا المبدأ هو الذى عاد فأقره مل فما معنى الاختلاف الذى اكتشفه بين قضايا الواقع وبين قضايا الألفاظ ؟

ولو شئنا أن نعود الى تفسير هذا المنحى عند مل لقلنا انه يعنى أن قضايا الألفاظ لا خلفية لها من الوقائع والظواهر ، وانها من ثم لا تؤكد امتلاك موضوع لصفة ما ولا تنفيه ، كما أنها لا تقرر اتفاق صفة ما مع صفة أخرى أو عدم اتفاقها ، ولكن لقضايا الواقع تشارك فى اقرار وصف ، كما تشارك فى نفيه وان كان ذلك يتم بلا خلفية واقعية .

وهنا يمكن أن نقول عن الواقع انه يتمثل لدى مل فى هذا الموقف كواحد من الثوابت فى مقابل الرغبات والأحاسيس ، واذا لم تتدخل علوم النفس هنا لدى مل فى هذا الموقف فلعلها لن تكون ذات فائدة اطلاقا فى غير هذا المجال ، أعنى اذا لم يقم علم النفس بما يرجى منه هنا من حيث تقرير مبدأ تجريبى داخل الاستدل فلن يرجى منه خير فيما عدا ذلك .

ويمكن أن نذهب هنا الى حد القول بأن مل تابع هيوم فى تمسـكه

---

(١) مل : المنطق ص ١٠٣ (ب) .
(٢) مل المنطق ص ١٠٤ (أ) .

المتناقض بأن اليقين الهندسى من نفس نوع اليقين فى علوم الميكانيكا ، اذ يكفى عند مل الحضور المتصل المستمر الانطباعات المكانية من اجل توفير تجربة طويلة لصدق البديهيات ، وهو يتابع أيضا يقينه بأن الميكانيكا هى المثل الأعلى للقانون العلمى وللتفسير العلمى .

ومن ذلك كله نكتشف كيف حاول مل اقامة زواج مشروع بين عمليات الذهن وبين الأشياء الموضوعية ، ومن الواضح أنه رأى أن تجميع الوحدات الوضعية أو الأشياء الوضعية فى ظروف مختلفة تعطى طاقة وضعية كبيرة للتعميمات (١) . بل حتى قانون التناقض ذاته (قانون عدم التناقض مثل « أ » ولا « أ » معا) يعد عند مل قانونا وضعيا ، وتأتى وضعيته من أننا غير قادرين على التفكير فى التناقض أو لأنه من المستحيل أن نفكر تناقضا ما ، وهذا فى ذاته هو مانسميه بالضرورة المنطقية .

ويكفى مل أننا لا نستطيع أن نتمثل أى شىء بوصفه شيئا ما وبوصفه ليس هذا الشىء دفعة واحدة .. أو بوصفه يملك ولا يملك صفة معينة .. يكفى مل ذلك كى يقر بأن قانون عدم التناقض مستخرج من الواقع ، فتفسير مل لقانون عدم التناقض تفسير نفسى ، اذ أن عدم قدرتى على تمثل (« أ » ولا « أ ») معا هو نفسه قانون عدم التناقض ، وليس عدم التناقض غير مفهوم لدينا وحسب ، بل لا نستطيع أيضا أن نجعله مفهوما مقبولا (٢) .

ومل يرى أن قانون عدم التناقض قانون أساسى أصلى لعدم وجود أية امكانية او اى ظروف تسمح لى برؤية شىء بوصفه أبيض ولا ـ أبيض معا . والشىء الثابت الحقيقى بتعبير آخر وراء هذا القانون الاستدلالى الخاص بعدم التناقض انما هو عدم وقوع رؤية تجمع بين الأبيض واللاأبيض . وتضم علوم الهندسة الكثير من التعميمات التى تحتفظ وراءها بطبائع حقيقية للخطوط والزوايا والأشكال كما توجد بالفعل ، ولهذا السبب عينه يعد مل هذه التعميمات صحيحة صحة كاملة (٣) .

من هذا يتبين أن مل أراد أن يخلع على الأسماء الأشياء التى تعنيها أو تمنى أن يكون كل لفظ قادرا على أن يتضمن الشىء الذى يشير اليه ، فكأنما افترض مل فعلا عقليا للتضمين داخل القضايا والاستدلال من أجل

---

(١) كارل بريتون : جون استيوارت مل ص ١٧٣ .

(٢) مل : فلسفة هاملتون ـ الفصل السادس ؛

(٣) مل : المنطق ـ الجزء الأول ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ (ط . ف .) .

احلال الأشياء ذاتها داخل مسمياتها ، ولم تعن معارضته للبديهيات الا ذلك . واذا صح أن دافيد هيلبرت Hilbert (١٨٦٢ — ١٩٤٣) زعيم المدرسة الصورية فى المنطق الرياضى قد قال بما سماه : « الفعل العقلى اللافظى (المستبعد) Acte rationnel d'exclusion » (١) يمكن أن نتصور موقفه ذاك كرد فعل لما افترضه لدى مل فى منطقه كفعل عقلى للتضمين . لم يقل ذلك مل بالتحديد الاسمى ولكن افتراض هيلبرت لمبدأ فى مقابل مبدأ أو فى مقابل وضع يعنى أن ذلك الوضع كان موجودا كمعنى وان لم يوجد فعلا باسمه .

بطبيعة الحال نحن لا نقرر واقعة ولكننا نوقن بوجود طبيعة هذا الفعل العقلى للتضمين داخل منطق الاستدلال عند مل وان لم يبح به اسما ، أى بغير أن يعين طبيعة هذا الفعل اسما . واصرار مل على أن يعد علوم الهندسة تعميمات حقيقية دقيقة لاحتفاظها وراءها بطبائع حقيقية للخطوط والزوايا والأشكال لا يعنى الا ما أكدناه من وجود طبيعة الفعل العقلى للتضمين ، اذ أن الهندسة علم الأشكال المادية المفرغة من المادة عن طريق التجريد (٢) .

وقد أثار كل من بريتون (٣) وجاكسون (٤) مشاكل عدة فيما يتعلق بطبيعة القضايا الماهوية أو الأساسية ، ولكنهما أثارا المشاكل من حيث ارتباطها بأنواع الاستدلال فى هذا الصدد ، والأفضل فيما نرى أن ننظر الى المشكلة لا من حيث نوعية الاستدلال ، ولكن من حيث طبيعته ، فبذلك يسهل اكتشاف مصدر الارتباك .

اذ يجب أن يدرس مل أولا وقبل كل شيء من وجهة نظر انتمائه الى النفسانية المنطقية ، وبغير تقديم هذا التفسير على كل تفسير آخر يظل الغموض مخيما ، ويبقى التناقض والاضطراب مسيطرين على أغلب أفكاره .

---

(١) C. Chevalley et A. Dandieu: Logique Hilbertienne et psychologie. La Revue philosophique d'avant 1930.

شيفاليه وداندييه : منطق هيلبرت وعلم النفس بالمجلة الفلسفية قبل سنة ١٩٣٠

(٢) ليار : التعريفات الهندسية والتعريفات التجريبية ص ٢١ — ٢٢

Louis Liard : Des Définitions géométriques et des Définitions empiriques; Paris 1872.

(٣) بريتون : جون استيوارت مل ص ١١٧ — ١٢١ .

(٤) جاكسون : المنطق الاستنباطى عند جون استيوارت مل (فصل ٥ ، ٦).

ولا يصبح هذا التناقض تناقضا بالمعنى المفهوم اذا أحسسنا ان مل قصد هنا فى الوضع الأخير أن يشير الى طبيعة الأشياء ذاتها ، وليس فى طبيعة الأشياء ما ينبىء عن وجود معطيات حسية منفصلة عن الأشـياء التى تنتمى اليها . ولما كانت معظم القضايا غير ماهوية أو غير أساسية بالمعنى الذى أشرنا اليه فى مطلع هذا الفصل كان الحكم العام بالنسبة الى القضايا هو ارتباطها المباشر بالأشياء ، فالصفات لا توجد منفصلة وانما هى دائما صفات لأشياء معينة (١) .

وكما تبدأ كل تجربة بحالات فردية وتتقدم منها الى حـالات عامة ــ يبدو أنه يكون أكثر اراحة لنظام العقل الطبيعى أن يعالج موضـوع الاستقراء قبل موضوع القياس الاستدلالى (٢) .

ويعنى ذلك كله أنه لا يوجد استدلال بالمعنى المفهوم لدى مل ، فليس استدلاله استنباطيا بل هو استقرائى (٣) ، بل وكل استدلال عند مل استقراء (٤) . والاستقراء وحده منهج الاستدلال فى التقدم المعرفى . واذا كان الأمر كذلك لم يكن من المستحب أن نتحدث عن الاستدلال عند مل من حيث يقوم على مقدمات حسية ، وانما من حيث يقوم على معطيات معرفية ، وهذا وحده سبيل رفع التناقض بين هذا المبدأ العام الذى وضعه وبين المبدأ السالف الخاص بقضايا الألفاظ .

وتلغى المعطيات المعرفية فى ذاتها الاعتماد على معطيات الحس لتقر بدلا منها أوليات التحليل بوصفها نتائج التحليل ، ومن ثم يمكن التقريب بين وضع مل لهذا المبدأ وبين احساسه أصلا بأنه يتعامل مع طبقة أخرى غير طبقة الماهويات ، ويؤدى هذا المفهوم المعرفى للمعطيات الى أمرين :

١ ــ ربط الأوليات بالأشياء (٥) .

٢ ــ الانتقال انتقالا عاديا من الأوليات الى النتائج .

وذلك واضح من تعريف مل الذى يفرضه على الاستدلال فرضا ، فهو يرى أن الاستدلال العادى المعروف ينبنى أساسا على فكرة استقرائية

---

(١) يولتون : الثنائية اللغوية والمعرفية ــ مقال بمجلة مايند البريطانية عدد يناير سنة ١٩٥٣ .

John Yolton : Linguistic and epistemological dualism Mind No. 245.

(٢) مل : المنطق ص ١٠٧ (ب) ...

(٣) بريتون : جون استيوارت مل ص ١٢١ .

(٤) لوريه : فلسفة جون استيوارت مل ص ١٤٨ .

(٥) مل : المنطق ص ١١٦ (ب) (تحمل كل قضية فعلا اخباريا حقيقيا يؤكد موضوعا واقعيا معتمدا على قوانين الطبيعة لا على التصنيف .) .

مثل الاستدلال من الجزئي الى العام أو على فكرة قياسية مثل الاستدلال من العام الى الجزئي .

ولكن ثمة استدلالا ثالثا ينبني عليه هذان النوعان المعروفان المذكوران، فالاستدلال الواقعي يتم دائما من جزئيات الى جزئيات .. من أمثلة ملحوظة الى أخرى غير ملحوظة (١) . ويعتقد مل أننا اذا رجعنا الى الواقع وجدنا اننا نسحب الاستدلالات من تجربتنا الشخصية لا من العبارات الحكمية العامة المألوفة لدينا في الكتب أو على ألسنة الناس . اننا نستدل مباشرة في أغلب الأحوال من جزئيات الى جزئيات دون مرور بالأحكام العامة ، وعلى الدوام نقوم بالاستدلال من أنفسنا الى الآخرين أو من شخص لآخر دون أن نجهد أنفسنا ببناء ملاحظاتنا على صورة عبارات حكمية عامة عن الطبيعة الانسانية أو عن الطبيعة الخارجية (٢) .

ولذلك يؤكد مل أن الحقيقة العامة ليست في اقصارى أمرها سوى مجموعة من الحقائق الجزئية . وقولنا مثلا ـ أن الشيئين المساويين لثالث متساويان ـ واضح في أية حالة خاصة أو جزئية تماما بنفس وضوحه في الحكم العام . ولو لم تكن توجد اطلاقا عبارة حكمية عامة من هذا القبيل ما تأخرت براهين اقليدس بسبب أية صعوبة عند نفاذها خلال الثغرة التي تحتلها اليوم هذه العبارة الحكمية (٣) .

ولما كان الأمر كذلك وجب أن يتوافر للقضية بطانة وجدانية ان صح هذا التعبير ، وليست هذه البطانة الوجدانية سوى الاعتقاد في توحد أشكال الطبيعة وتساوقها . ويعبر الحمل نفسه في القضية عن الاعتقاد في تساوق وقائع الطبيعة . والاعتقاد نفسه حالة من حالات الذاكرة أو التوقع ، وهذا الاعتقاد هو الذي يميز الذاكرة من الخيال ويميز التوقع من المفهوم . .

والاعتقاد أكثر من مجرد تداع مترابط ، لأن التداعي المترابط لا ينجم عنه بالضرورة اعتقاد ما ولا يستلزم الاعتقاد دائما تداعيا مترابطا كشرط من شروطه . وليس الاعتقاد تداعيا لا يقبل التفكك والا امتنع تغيير أو هدم أي رأي ثم تكوينه ، بل يعد الاعتقاد عند مل ذا عنصر أصيل خاص به ، ومن هنا لم يكن الاعتقاد هو هو الاحساس أو هو هو الفكر ، ولم يكن يمكن أن يعزى الى التداعي (٤) .

(١) مل : المنطق ص ١٤٠ (أ) .
(٢) مل : المنطق ص ١٢٣ (ب) .
(٣) مل : المرجع نفسه ص ١٠٦ (ب) ص ١٠٧ (أ) .
(٤) وارين : تاريخ علم نفس التداعي ص ١٠٣

Howard C. Warrsen: A History of the Association Psychology London 1921.

وحاول مل بشتى الوسائل ان يفسر هذا الاعتقاد فيما يتعلق بالايمان بالعالم الخارجي وفيما يتعلق بالايمان بديمومة الأشياء واستمرارها ؛ فالشيء فى نهاية الأمر ذاتي ومن خلق العقل . وجعل مل من بين مبادئه مبدأ أن العقل قادر على التوقع وعلى التذكر ، ثم أشار مل الى أنه ــ وان كان من الجائز أن تختفى الاحساسات ــ تظل امكانياتها حاضرة في العقل .

فاذا رأى أحدهم ورقة بيضاء على منضدة وانصرف الى غرفة أخرى بعيدة اختفت الاحساسات طبعا ، ولكن بقيت امكانياتها بدليل رجوع الاحساسات اذا عاد الشخص لينظر الى الورقة البيضاء على المنضدة نفسها ؛ ولذلك تعد الاحساسات سريعة الهرب وعابرة على حين تبقى الامكانيات المستديمة الخاصة بها ؛ ولهذا السبب نفسه أو بسبب هذه الحقيقة ذاتها تظل الأشياء الطبيعية الخارجية ثابتة وان كانت الاحساسات المتغيرة مصدر توالدها ، وليست هذه الأشياء الطبيعية الخارجية سوى الامكانيات المستديمة للحواس (١) .

واقتضى تفكير مل بهذا الصدد أن يجعل من كل المنطق كعلم مجرد تنسيقا للعملية التى نحصل بها عن طريق غير مباشر على هذا الضمان الموثق للاعتقادات التى لا ضمان لها ، وكى نحصل على أقوى اعتقاد ممكن فيما يتعلق بأية واقعة معقدة نهبط تحليليا منها على خطوات متتالية مختبرين كلا منها لا شعوريا من حيث اختفاء سلبيتها حتى نصــل الى البديهية أو الحقيقة التى اختبرناها بالمثل ، أو نصعد تركيبيا من مثل هذه البديهية أو الحقيقة على مثل هذه الدرجات (٢) .

واقتضى تفكير مل أيضا أن يجعل الاستدلال صورة لهذا كله ، اعنى أن تصير القضايا العامة تسجيلات بسيطة سابقة ومجرد صيغ قصيرة تصلح لبناء تسجيلات جديدة عليها أو ابتداء منها ، ويتم الاســتدلال حقيقة من وقائع منسية مركزة فى الصيغة العامة الى الواقعة الجزئية المطلوبة ، ويصبح القياس (أساسا) استدلالا من الجزئى الى الجزئى موثقا باستدلال سابق من الجزئى الى العام (٣) .

---

(١) بورينج : الاحســـاس والادراك فى تاريخ علم النفس التجريبى ص ١٥
Edwing G. Boring : Sensation and Perception in the History of Experimental Psychology — New York 1942

(٢) مل : المنطق ص ١٧٥ (أ) ، (ب) وراجع ايضا نقد برتراند رسل لهذا الرأى فى كتاب تحليل العقل ص ٢٤١ — ٢٤٢
Russell : The Analysis of Mind. 1921.

(٣) ليار : المناطقة الانجليز ص ٢٦ — ٢٧ .
Louis Liard : Les Logiciens Anglais — Paris 1878.

ويوجد بين الموجودات الموضوعية فى ذاتها خارج الشعور تضايفات Correlations زمانية ومكانية وعددية وكيفية .. الخ .. وبالمثل يوجد فيما بين أفكارنا عن تلك الموجودات تضايفات موازية للأولى ، ولكنها مستخلصة وليست أولية . وبذلك تنشأ لدينا سلسلتان من العلاقات بعضها خارجى وبعضها الآخر داخلى .

ويشير لوى ليار الى أن العلاقات الأولى أو الخارجية موضوع المنطق (١) شأنه فى ذلك شأن الرياضيات ، ولكن سبق أن حذرنا جملة مرات فى الفصل السابق من تعدد وظائف المنطق وحقيقته لدى مل ، وقلنا اننا اكتشفنا أربعة تعريفات على الأقل فى كتابه يمكن فعلا تطبيق كل منها على المفهومات والعبارات والتفسيرات الواردة ضمن أقواله ، أى أنه من الممكن الوقوع على ما يؤيد هذه التعريفات كلا على حدة من كلام جون استيوارت مل ، ولم نشر برغم ذلك الا الى اثنين منها حين ذاك .

وقد قدمنا أيضا تعريفا جديدا منذ قليل ، وها نحن أولاء نجد أنفسنا أيضا مسوقين الى التعرض لتعريف آخر لا نحسب أن مل ابتعد عنه خطوة خلال كلامه عن الاستدلال ، وهو أن الهدف الوحيد من المنطق ريادة المرء لأفكاره (٢) .

ويعود ليار فيبين أنه اذا كانت مهمة المنطق أحيانا التعبير عن العلاقات الضرورية بين الأفكار — فهذه المهمة ثانوية ؛ والسبب فى ذلك أن العلاقات بين الأفكار تكون مصبوبة فى قوالب علاقاتها بالأشياء على نحو من أنحاء التقابل ، ولكن برغم ذلك فكل العمليات الخاصة بهذا المنطق — كما يتضح من كلام ليار — تتعلق بالعلاقات المتبادلة بين الأشياء الخارجية وبين الوعى (٣) .

بل يوجد تواز مستمر كما يقول برانشفيج بين القياس عند مل وبين الاستقراء ، وبغير هذا التوازى لا تستقيم نظرية مل بأية حال وتصبح غير مفهومة (٤) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٨ .

(٢) مل : المنطق ص ٣ (أ) .

(٣) ليار : المناطقة الانجليز ص ٢٨ — ٢٩ .

(٤) برانشفيج : التجربة الانسانية والسببية الطبيعية ص ٦٢ .

Brunschvicg : L'Expérience Humaine et la causalité physique.

وبسبب هذا الموقف استطاع جان ريه Ray ايضا أن يقول عن مل أنه كان يستخدم الاجراء الرياضى ، كما أن المنهج الهندسى الخاص بوالده جيمس مل هو الذى أوحى اليه بالفكرة وأعطاه نموذج الاستدلال فى علوم الاقتصاد (١) .

وادى موقف مل من ثم الى الغاء القياس ؛ اذ يمكن فى نظره البرهان بغير قياس . واذا كان ثمة حقائق يحتاج اثباتها الى مقدمتين فهناك حقائق أخرى يتم انشاؤها ببساطة أكبر أو بتعقيد أشد ، وينطبق ذلك أيضا على تأكيداتنا الأولية التى نستدل عليها تلقائيا دون رجوع الى وسيط وعلى نتائجنا التى نسجلها من نسق ذى علاقات متنوعة .

ولنأخذ نموذجا للقياس فيما يلى :

ــ كل بلور له مسحة تشقق طبقى .

ــ هــــذا بلور .

ــ اذن فهذا له مسحة تشقق طبقى .

فهل يعنى ذلك أننى فكرت فى كل البلور قبل أن أفكر فى هذا البلور ، وأننى تقدمت من العام الى الجزئى ؟

لاشك أن فكرة هذا البلور سبقت مفهومى عن كل البلور ، وهذا فى ذاته أحد العناصر العامة للمقدمة الكبرى ، ثم لماذا أفكر فى مسطحات التشقق الطبقى فى البلور عندما أفكر فيه ، ولا أفكر مثلا فى زواياه أو فى محوره أو فى أية خصائص أخرى من خصائصه ؟

الحق أننى لاحظت قبل أن أفكر فى القضية العامة ــ « كل بلور له مسحة تشقق طبقى » ــ أن هذا البلور يملك هذه الخاصية ، وفرضت على تجاربى السابقة عن تشقق البلور أن أفكر فى مسحة التشقق الطبقى الخاص بهذا البلور الماثل أمامى بالذات . غير أن ذكرى تلك التجارب السابقة لا ترد الى خاطرى قبل أن ألاحظ البلور فعلا فى هــذه الحالة المفردة ؛ فقد ترك البلور فى نفسى نزعة تدفعنى الى الاهتمام بمسحة التشقق الطبقى فى البلور الذى أمامى أكثر من اهتمامى بأية خاصية أخرى ؛ وبذلك فكرت فى القضية العامة التى أوحت الى بالقضية الجزئية ومن تلك عدت الى هذه . وهذا هو واقع الأمر على نحو ما جرى بالفعل .

---

(١) جان ريه : منهج الاقتصاد السياسى عند جون استيوارت مل ص ١١٠ .
Joan Ray : La méthode de l'économie politique d'après J.S. Mill 1914

أولا نفسيا توجد ثلاث مراحل متتالية في الاستدلال الاستنباطى ، غير أن الاستدلال شيء آخر سوى العودة من القضية العامة الى القضية الجزئية ، وليس القياس الاستدلالى تعبيرا عن العملية التى تدرك بها النهاية .

وثانيا يبدأ كل استدلال بعلاقة أقيم عليها البرهان تلقائيا ، ويؤدى ذلك طبعا الى أن يكون كل استدلال نوعا من الاستقراء أساسا . ولا يوجد شيء بخلاف ذلك اذا تعلق الأمر بمنطق يهدف الى تناول الأشياء موضوعيا (١) .

ومن هاتين الملاحظتين يخيل الى المرء أن مايسميه مل عادة الاستدلال من الجزئى الى الجزئى انما هو صورة الاستقراء البدائية التى يستحيل وجود شيء قبلها . وهذه الصورة هى ما يمكن أن تتم به اعادة الاستقراء والاستنباط على السواء عند الاستمرار في انقاص عدد الوقائع المثبتة والملحوظة ، وهى التى تقوم أيضا فى منتصف الطريق بين الوقائع كالجذور المشتركة التى يتفرع منها الاستقراء والاستنباط (٢) .

ويمكن التماس هذه الحقيقة فيما سبق أن أشرنا اليه من كلام مل ، وكذلك من قوله هذا فى نهاية أمثلته عن منهج البواقى : « مهما كانت فاعلية هذا المنهج فليس هو بمنهج الملاحظة والتجربة الخالصتين (كما أبدينا رأينا فى صفحات سابقة بعيدة) ؛ اذ انه يستخلص النتيجة لا من مقارنة الشواهد ، ولكن من المقارنة بين أحد الشواهد وبين نتيجة استنباط سالف » (٣) .

ويتضح لنا الآن موقف مل بأكمله ، فنستطيع أن نلاحظ أنه يستبقى جانبا خاصا بالجوهر العاقل « أو بالذات المتشخصة » Hypostasis الذى يقوم بالملاحظة والتجربة والبرهان ، يريد مل أن يستبقى خلجات الانسان فى عمليات الاستدلال : فمن جهة يلاحظ أن مل لا يريد أن يرفع العمليات الاستدلالية الى مستوى التجريد الذى يرفع منها كل تردد العقل البشرى ، ويعفيها من مشكلة الاقتراب الذهنى من الوقائع .

ومن جهة أخرى يرفض مل اعفاء عمليات الاستدلال من الارتباط بالواقعية الانسانية ، ويأبى وضعها فى اطار الأبنية المثالية المستقلة عن نوبات الشعور المتقلبة .

---

(١) ليار : المناطقة الانجليز ص ٣١ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٠ — ٣١ .
(٣) مل : المنطق ص ٥٧٧ (ب) وانظر صفحة ٦٩ فيما سبق .

وعندما رفض مل الاعتراف بالمنطق الصورى Formal أى المنطق المعتمد على الرموز الجبرية وحسب ــ كان رفضه مبنيا على سبب يكشف عن مدى استقرار النفسانية المنطقية فى تفكيره ؛ وهذا السبب كما ذكره بنفسه هو أن المنطق الصورى المعتمد على الرموز الجبرية لا يبدو فى نظره تافها وحسب ، بل وخاطئا أيضا . فالقالب الشكلى أو الصورة التى تلبسها القضايا فى المنطق الرمزى لا تعبر عما يدور بعقل المتكلم عندما يلفظ القضية على نحو ما تفعل صيغ الكلام العادى (١) .

فتساءل مل أولا عن قيمة ما تؤديه الصيغ الكلية للاستدلالات عند دى مورجان De Morgan (١٨٠٦ ــ ١٨٧١) فى كتابه عن « المنطق الصورى » Formal Logic (١٨٤٧) . تساءل مل : هل نتائج هذا المنطق تستحق الدراسة والتعمق من أجل أية غاية عملية ؟ فالخطأ الذى يحدث انما يحدث فى المنطق بسبب عدم الحذر لدى المتحدثين الذين يسيئون استخدام الكلام (٢) .

وقال مل عن هذا المنطق الجديد الذى وضعه دى مورجان : انه لا يمكن أن يسع كل الاستدلال العادى ! وهو من ثم لا يستطيع أن يخدم أى هدف . أما عن آراء هاملتون فقد قال مل عنها : أنها لا تضيف شيئا الى تحليل العمليات العقلية المعنية فى الاستدلال . وذهب هاملتون الى حد القول بأن المنطق هو التعبير الصريح بالألفاظ عن كل ما هو موجود ضمنيا فى الفكر . فلا مفر اذن من التعبير الصريح عن كم المحمول لأنه موجود أثناء عملية الحكم . فاذا قلنا (الانسان حيوان) فنحن نبدأ بأن ندرك بأن حيوان صفة تقال على عدد من الأفراد يكونون صنفا ثم ندرك بعد ذلك أن الانسان يشغل جزءا من هؤلاء الأفراد داخل هذا الصنف والا لما كان فى وسعنا أن نحمل صفة الحيوانية . والخلاصة أن المحمول يفكر فيه دائما وبالضرورة باعتبار أن له كما معلوما مساويا لكم الموضوع . ولا يوافق مل السير هاملتون على رأيه فى أن « الكم الخاص بالمحمول يفهم دائما فى الفكر (٣) ؛ فهو متضمن حقا ، ولكنه ليس حاضرا فى ذهن المتحدث الذى يؤكد القضية ، وبدلا من أن يؤدى تمثيل المحمول

---

(١) مل : المرجع نفسه ص ١١٤ (أ ، ب) ــ هامش .

(٢) المرجع ــ ص ١١٣ (أ) ــ هامش . ويتفق ديوى مع مل فى هذا الوقت انظر كتاب « ديوى » تأليف الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ١١٣ .

(٣) المرجع نفسه ص ١١٤ (أ) وانظر ص ٢٦٦ من كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى عن « المنطق الصورى والرياضى » .

تمثيلا كميا الى وضوح معنى القضية يسوق العقل على العكس الى أى نظام أفكار آخر خارج القضية فعلا (١) .

فلا فرق مثلا بين أن تقول : كل (أ) هى (ب)

أو أن تقول : كل (أ) هى بعض (ب)

فلا فرق مثلا بين أن تقول : كل (أ) هى (ب)

و أن تقول : لا (أ) هى أى (ب)

وكذلك بين أن تقول : بعض (أ) هو (ب)

أو أن تقول : بعض (أ) هو بعض (ب)

ومن هذا يتضح أن معارضة مل للنسق الصورى فى المنطق لا تنبنى على رغبة أخرى غير الرغبة فى توطيد معالم النفسانية المنطقية وتثبيت ملامح الوعى الانسانى فى عمليات الاستدلال ، ولعل مل قد خشى أن يؤدى استخدامه للرموز الى ضياع الحاجة الى علوم النفس فى المنطق ؛ اذ ان علم النفس ـ كما قال عنه بروشار ـ هو حلقة الوصل التى تربط المنطق بالواقع الحقيقى (٢) .

واختار كل مشتغل بالمنطق التجريبى طريقه الى النفسانية على النحو الذى ارتآه من أجل تثبيت قواعد ذلك المنطق فى جذور الواقع ، وسواء كان ذلك ايغالا منهم فى تقدير النفسانية أو زيادة فى التنكيل بالمذاهب الأخرى فقد حرص مل على الاحتفاظ بما يدور فى عقل المتكلم خلفه القضايا من المشاعر وما يشغل باله وراء العبارات من الأحاسيس والمعالم النفسية والفكرية .

أراد جون استيوارت مل أن يقحم العلم الاستدلالى فى النيـــات والأفكار الخلفية ، بل حرص مل أشد الحرص على أن يبقى علوم الفكر المستقلة كمشاركات تتدخل فيها المطالب والرغبات والقدرة على التفهم وعلى التعاطف .

ومن وجهة النظر هذه يعرف مل عملية البرهنة أو الاستدلال بقوله : ان هذه الكلمة بمعناها الأوسع لا تعدو أن تكون اثبات قضية عن طريق قضية واحدة أو قضايا كثيرة سابقة .. ثم الاعتقاد فيها والرغبة فى بعث الاعتقاد فيها لدى الآخرين بوصفها مترتبة على ما عداها (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٣ (أ) هامش .

(٢) بروشار : دراسات فى الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ص ٤٤٣ .

(٣) مل : المنطق جزء أول ص ١٧٨ (طبعة فرنسية) .

وشعر مل بما يتخلل منطقه من قوة اندفاع نحو النفسانية ، شعر مل بالموقف الذى انساق اليه فأراد أن يدفع عن نفسه مظنة التحيز للنفسانية المنطقية ، وقال بصدد كلامه عن مبدأ العلية العام : « تعد هذه المسألة احدى مسائل علم النفس ، وسيظل بعيدا عن مرادى أن أناقشها هنا ، ولكن لابد أن أعترض على محاولة التدليل بتهيؤ العقل البشرى للاعتقاد على صدق أية واقعة موجودة فى الطبيعة الخارجية مهما كان هذا التهيؤ قويا وكليا ؛ فليس الاعتقاد برهانا ولا تتوافر له ضرورة البرهان » (١) .

ولكنه لم يلبث أن عاد بعد صفحتين ليؤكد نفسانيته المنطقية فى كل عمليات الاستدلال ؛ اذ لا يلبث بعد هذا التأكيد الصريح أن يقحم نظريته عن الألفة والمؤالفة مباشرة ، ويوضح مل المشكلة فيقول : « يعد الاعتقاد الذى نملكه حول قانون العلة والمعلول فى الطبيعة نموذجا للاستقراء ، بل يعد على أية حال نموذجا من أولى الاستقراءات التى نقوم وتقوم الانسانية جمعاء بتكوينه ، ونصل الى هذا القانون الكلى عن طريق التعميم من قوانين كثيرة ذات عمومية أقل ، وما كنا لنملك فكرة العلية (بالمعنى الفلسفى للكلمة) كشرط لأية ظاهرة مالم تصبح حالات كثيرة للعلية ، أو بعبارة أخرى مالم تصبح توافقات uniformities جزئية كثيرة من التتالى ، مألوفة سلفا ؛ اذ توحى أوضح التوافقات الجزئية بالتوافق العام وتقيم البرهان عليه . وبمجرد اقامة التوافق العام يعود ليعيننا على اثبات بقية التوافقات الجزئية التى أعانت على اقامته هو نفسه »(٢).

ومعنى هذا ضرورة أسبقية الألفة لعامل التوافق الجزئى أو لحالات علية كثيرة بحيث يتيسر تشييد التوافق العام ؛ فبغير هذه الألفة لا يمكن التقدم من حالات العلية الكثيرة أو من سوابق التوافق الجزئية الى التوافق العام .

فلا يكاد مل ينكر انتماء الموضوع الى أى فرع من فروع علم النفس حتى يعود ، فيثبت قاعدة أصاية نفسية جديدة من أجل تثبيت القوانين واستقرارها ، ولابد من ثم من العمل المتصل من أجل تحويل الظواهر

---

(١) مل : المنطق ص ٣٦٩ (ب) ، ولكن لا يمكن اطلاقا أن يتغلب أى برهان على الاعتقادات المباشرة (مثل الاعتقاد فى المادة وفى حقيقة امتداد الحقيقة الخارجية وفى المكان ..الخ ..) لأن كلا من هذه الاعتقادات يتضمن مصادرته مرة على الاقل.. (انظر ص ١٧٥ من كتاب مل عن المنطق) .

(٢) مل : المنطق ص ٣٧١ (ب) ، ص ٣٧٢ (أ) .

التى هى أقل الفة الى ظواهر أكثر ألفة لدينـــا حتى يمكن التقدم منها شيئا فشيئا الى القانون العام للتوافق (١) .

ولن أذهب الى حد انتقاد هذا الرأى على نحو ما فعل اميل مايرسون عندما أكد تعارض هذه النظرة مع النظرية الكهربية (الكهرومغناطيسية) ؛ فمايرسون مقتنع بأن مبدأ الالفة من المبادىء التى يستحيل الاعتماد عليها فيما يتعلق بالنظريات الكهربية المغناطيسية (الكهرومغناطيسية) ، بل يرى أيضا أنه مبدأ خطر مفسد فضلا عن كونه مستحيلا لضمان تقـدم المعرفة داخل هذه المجالات . غير أننى لا أجد مفرا من ذكر هذه الحقيقة المنهجية النفسانية فى منطق جون استيوارت مل برغم تأكيـــده خلو اهتماماته المنطقية من الزوائد النفسية .

وقد شغلت فكرة الضرورة ذهن جون استيوارت مل سنوات عدة وبالحاح قوى كما يؤكد هو نفسه ذلك على صفحات متكررة من سيرته الذاتية ، ولكنـــه لم يستطع أن يكتشف فى البرهان أو الاســـتدلال أو الاستقراء ضرورة أوثق من ضرورة التداعى الناجم فى العقـــل كأثر لايقاعات متكررة متتالية فى ظواهر الطبيعة الخارجية أو كصدى للتوافقات والملابسات الجارية نتيجة لمبدأ العلة والمعاول .

ولا شك أن هذا التفكير كان يتطلب اجراء تجارب عملية للاسترشاد بها شيئا فشيئا فيما يتعلق بطبيعة التداعى حتى يتحقق من استنتاجاته ومن نظرياته ، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك ، وكما قال عنه ميلر Miller بحق: « كان مل صاحب فكرة تحويل علم النفس الى علم ملاحظة وتجربة»، واكد مل هذه الفكرة بوضوح وجلاء فى كتابه عن المنطق (٢) ، ولكن تطلب الأمر انتظار عالم آخر يقوم حقيقة باجراء هذه التجارب ، وكان هـذا العالم الآخر فيلهيلم فونت Wundt (٣) .

ذلك أننا اذا نظرنا الى التداعى بوصفه تصورا وصفيا أوليا كما يفعل المذهب الترابطى ـ ترتب على ذلك اعتبار التعليم ارتباطا بين وحدتين مختلفين . فـــلابد من تدرج زمنى معين من أجـــل تكوين تداع بين موضوعين أو بين حادثتين ؛ اذ ثبت بالتجربة أن التتابع المباشر أو التآنى

---

(١) اميل مايرسون : الاستنباط النسبى ص ٢٣٩ .
Emile Meyerson : La Déduction relativiste

(٢) مل : المنطق ص ٥٦٨ (أ) .

(٣) جورج ميلر : علم النفس (علم الحياة العقلية) ص ١٥ .
George A. Miller : Psychology — Science of mental life. New York 1962

ليسا ضروريين ، بل ويمكن تكوين تداعيات بين الحدود أو بين طرفى التداعى المتباعدين فيما بينهما بلحظات معدودة أو بفترات زمنية طويلة ، ويطلق عادة اسم قانون الاقتران على الحقيقة التى تقرر ضرورة وجود تقارب زمنى معين كشرط للتداعى (١) .

كذلك يلاحظ أن قوة التداعى فى ربط عنصرين أحدهما بالآخر تؤدى الى صعوبة ربط أحد هذين العنصرين بثالث ، وتسمى هذه الحقيقة بقانون (مولر ـ شومان Muller — Schumann) وصيغته كالآتى : « اذا صار عنصران أو موضوعان مثل (أ) ، (ب) متداعيين يصبح تكوين تداع بين أحدهما وبين موضوع أو عنصر ثالث (ك) أشد صعوبة » . ويكون امتناع (أ) ، (ك) بسبب تعليم (أ) ، (ب) سلفا ظاهرا بدرجة أكبر اذا كان تعليم (أ) ، (ب) قد تم بدرجة متوسطة فقط (٢) .

ويمكن اعطاء مثل على ذلك من الصعوبة الكبيرة التى يجدها شخص ما فى التأقلم مع بيئة جديدة مختلفة أو فى حفظ رقم تليفونه الجديد ٤٩١٦ حينما يكون رقم تليفونه السالف ٨٩٢١ ، ويمكن اعطاء شواهد كثيرة على ذلك من تدخل العادات فى ذاكرة الفرد (٣) .

ويؤيد مل أنه قد ينشأ تداع إقوى ثابت دون أن يكون ذا مقابل فى العالم الخارجى بالضرورة ، ففى نظره أن البرهان ليس اقوة الاعتقاد ، بل البرهان هو توافق الاعتقاد مع الوقائع . وكى يكون الاعتقاد سليما منطقيا يجب أن يكتشف الاستدلال شروط هذا الاعتقاد وأن يعمل على تحديدها .

ويتبين من ذلك أن عامل التداعى قد يكون أيضا عاملا من عوامل زيادة الصعوبات ازاء التوقعات الجارية وحيال التوافقات عند تكوين تداعيات أصيلة ، وقد وجهت اعتراضات عدة الى نظرية التداعى ، غير أننا لا نصب اهتمامنا الا على ما يتصل بمساندة نظرية مل المنطقية من الأفكار الخاصة بنظرية التداعى مع الآراء المعارضة لها أولا بأول .

كذلك لا نود أن يكون لاعتراضاتنا من هدف سوى ايضاح جوانبها أكثر فأكثر بالمقارنة ، وبهذه المناسبة أجد نفسى فى أثناء تقديمى للاعتراضات على نظريات مل لا أحفل الا بجسم الآراء ذاتها بين مؤيدة ومخالفة ، أعنى أننى حين التمست الكشف عن مدى أصالة آراء مل بمقابلتهـا لبعض

---

(١) بورينج : علم النفس (بحث دراسى واقعى) ص ٣٣١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ .

النظريات المعارضة لم أحفل الا بوضع مضمون فكرى فى مقابل مضمون فكرى آخر ، اى أننى قابلت موضوعا بموضوع ، ولم أقابل صدق موضوع بصدق موضوع آخر . اذ أننى حين أواجه الصـــدق بالصدق أكون مشتغلا فعلا بالمنطق ، أما حينما أعمل بمنطوق الرأى وحده فى كـــلا الجانبين فلا يعدو أن يكون عملى تفسيرا شارحا . وعدة الاشتغال بالمنطق القياس ؛ لأن القياس لحم صدقين أحدهمـــا بالآخر لا وضـــع رأيين للموازنة والمقابلة ومجرد الترجيح . القياس ادماج لصدقين فى واحد .

من الواضح اذن أننا فى عملية الاستدلال المنطقى لا يكون استخلاصنا للمستدل عليه ناشئا عن مفهوم الآراء المعروضة فى المقدمتين وانما يكون بمواجهة كل من الصدق أو الكذب فى العبارتين • هكذا ينشأ الاستدلال المنطقى • وهذا هو ما يغيب أحيانا عن تفكير بعض المناطقة فيؤدى بهم الأمر الى الوقوع فى أخطاء الاستنباط المبنى على الدلالات فى معنى العبـــارة المستدل بها والمستدل منها .

وهذا الموضـــوع يمس منطق مل فى الصـــميم • اذ يقوم منطقه على أساس ايجـــاد نوع جديد من القيـــاس المبنى على استخلاص الدلالة الجزئية من مقدمة واحدة للانتهاء بها الى نتيجة • وبهـذا يتكون القياس عنده من مقدمة ونتيجة فقط •

لماذا اذكر الآن هذه الواقعة ؟

أردت بهذا التمهيد الصغير أن أعرض لفكرة أخرى وهى أن نظرية القياس قد تسمح من باب الشرح والتفســـير أن نتجاوز عن احـــدى المقدمتين ، أما من باب العمل المنطقى البحت فالتجاوز لا يكون صحيحا لما ينشأ عنه من أخلال بالعملية ذاتها من حيث هى منطق ومن حيث هى معارضة صدق بصدق أو صدق بكذب الى آخر ذلك فيما بين المقدمتين .

وخطأ مل عند اعتقاده فى أن كل استدلال استقراء ـــ ناشىء من أنه يتجاهل عمله المنطقى ازاء طبيعة الاستدلال ، اذ أن اعتقاده ذاك ينبنى على أساس اكتشافه علاقة تلقائية بين جسمى المقدمات لا بين علاقاتها المنطقية، أو بين كل منها من حيث الشرح والتفسير الذى تعتمد عليه لا من حيث الصدق أو الكذب الذى تشير اليه ، أو بين كل منها من حيث هى وقائع سردية لا صورة فكرية . . أو اخيرا بين كل منها كمضمون لا كعلاقات .

وقد أشرنا منذ قليل فى هذا الفصل الى أن كل استنباط يبدأ بعلاقة تلقائية مستدل عليها ، ومن ثم يكون كل استدلال قد وفى سلفا شروط

التعبير الواقعى ، فاذا سلمنا بأن المنطق هو علم البرهان كان من شأن ذلك العلم ألا يعلم اكتشاف البرهان بل أن يعلم كيف يصبح البرهان ــ وقد اكتشف بالفعل ــ صــحيحا ، أى أن علم النفس يفتتح ، ولكن المنطق يختتم (١) .

وأيد هذه الحقيقة لوى روجييه Rougier حين تعرض للقياس :

كل انسان فان

سقراط انسان

اذن سقراط فان

بقوله انه لا شك فى أن فحوى الحقيقة الواردة فى القضــية الكبرى يتضمن فحوى الحقيقة الواردة فى النتيجة . غير أن الغرض الوحيد من القياس هو انشاء الحقيقة الصورية فى النتيجة مستقلة عن صدق أو كذب الفحوى فى المقدمة الكبرى ، وطالما كان ما نفهمه من النتيجة هو الصدق الصورى وحده فلا معنى لاتهام القياس بأنه دائرة مفرغة ، لأن العملية تنصب على صحة الصدق الصورى الخاص بالقضية المستنبطة لا المقدمات التى تؤدى الى استخلاصها (٢) .

ولا شك أنه كان من أفضال مل على علم المنطق أنه اخترق كل هذه المجالات وأثار الحياة فى موضوعاتها ، فقــد أقحم علمه النفسى الدقيق النفاذ الى أغوار المنطق ، فأوضح بعمله ذاك جزءا كبيرا من مشاكل هذا العلم ، وبين الطريقة التى تجمع بها تداعيات الأفكار مواد الاستدلالات ووضع الخطط التى تربط المنطق بعالم الواقع .

لذلك لا يلبث موضوع القياس على نحو ما رآه مل أن يصطبغ بصبغة نفسية بحتة ، وكان مظهر ذلك كما رأينا فى الاكتفاء بالخبرات بدلا من منطوق المقدمة الكبرى ، اذ ظن مل تقديرا أن المقدمتين فى القياس هما بعض التجربة الشخصية أو الخبرة التى يمر بها الفكر . ربط مل فى تفكيره عن القياس بين وضـــع المقدمتين وبين خبرة المرء من معـــارفه السابقة ، لذلك أراد أن يختصر هذا الموقف المتعدد المراحل نفسيا فى موقفين نفسيين منفصلين .

---

(١) بروشار : دراسات فى الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ص ٤٤٢ ــ ٤٤٤ .

(٢) لوى روجييه : بناء النظريات الاستنباطية ص ٣١ :

Louis Rougier : La Structure des Théories Déductives — 1921

وتوحى الينا هذه المباشرة بالغرض العملى المقصود من تشييد منطق جون استيوارت مل بأكمله لا من تشييد القياس وحسب ، فهو يريد أن يكون منطقه منطق الحياة اليومية والأعمال العادية (١) .

وتابعه جون ديوى Dewey (١٨٩٥ – ١٩٥٢) فى هذا المنحى بخاصة وجعل نقطة بدء منطقه الأساسية أن يخدم المنطق كل انسان وأن يسعف كل تفكير ازاء المشكلات ، اذ يلزم دراسة الفكر حقيقة أن نستخلصه من جزئية موضوعه الخاص به . وأى تخل عن هذا الموقف يؤدى الى الابتعاد عن كل دراسة جادة للفكر ، لا بد من ادراك الفكر كفكر ، ولا يظهر الفكر الا خلال نشاطه العملى . ومنطق ديوى انما هو دراسة لهذه المظاهر ، وديوى نفسه يقول : انه أراد أن يحل مشكلة صعبة فى المنطق ، وهى كيفية ارتباط الفكر بالحواس المقتطعة وبالانطباعات وبالمشاعر (٢) .

أدى موقف مل العملى كما نرى الى ايجاد تيار فكرى بأكمله يؤيد نظرية البحث ، غير اننا اذا أعدنا النظر من جديد فى موقفه من القياس احسسنا بأنه قد تجاهل طبيعة القياس ذاتها من حيث هى موازنة بين الصدق أو الكذب فى القضايا ، لذلك يقوم القياس بايجاد علاقة ضرورية . لا يقرن القياس بين القضايا من حيث هى خبرات ذات موضوع ، وانما من حيث هى علاقات صدق أو علاقات كذب .

ولذلك كان تعبير علم النفس الحديث عن هذه العملية القياسية أنها عملية اكتمال ، انها مجرد عملية حصول على قضية واحدة عن طريق ربط القضيتين المتقدمتين ، وفعل اكتمال التفكير داخل هذه العملية هو القياس المنطقى (٣) .

وكان يكفى أن يعرف مل من أى كتاب فى المنطق أن القياس أو الاستدلال القياسى هو انتقال الفكر لا من موضوع القضيتين المتقدمتين الى القضية الثالثة وانما من الحكم بصدق قضيتين الى الحكم بصدق قضية ثالثة لازمة عنهما ، فمن هذا يصبح اللزوم ضرورة منطقية (٤) .

---

(١) مل : المنطق ص ١٨٦ (أ) . انظر أيضا ص ٦ (أ) من المقدمة قوله : « على المنطق أن يكون مفيدا اذا كان علما موجودا أو قادرا على أن يوجد » . وقارن هذا برأى ديوى فى كتاب الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عن « ديوى » ص ١١٣ (دار المعارف) ..

(٢) ديوى : دراسات فى نظرية المنطق ص ٤٥ (شيكاجو سنة ١٩٠٣) .

(٣) بورينج : علم النفس (بحث دراسى واقعى) ص ٤٦٦ ..

(٤) د . أبو العلا عفيفى : المنطق التوجيهى ص ٥١ سنة ١٩٤٤ .

وأمامى الآن عدة مراجع فى المنطق تحمل تعريفات للاستدلال القياسى تشير كلها الى هذه الحقيقة، فارتباط المقدمتين فى القياس ولزوم الثالثة عنهما ارتباط الصدق فيهما وضرورته المنطقية فى الثالثة .

ولذلك يقول ألكييه Alquié : « يتضمن الاستدلال :

١ ــ المجهود الذهنى .

٢ ــ وفهم العلاقة المنطقية بين أفكار معينة .

ومن هنا يظهر الاستدلال أن للفكر ضروراته الخاصة وطبيعته التى هى عقل » (١) .

ويستطيع مل أن يتمسك بموقف اساسى يعفيه من فهم الاستدلال القياسى بهذا المعنى . يستطيع أن يعزو موقفه ذاك الى أنه يبحث عن الشروط التجريبية للبرهان ، اذ توجد فى البرهان صفات جزئية أو خصائص جزئية يترتب عليها قبول أو رفض الصدق المنطقى ، ويجب أن تتوافر هذه الخصائص أو الصفات بحكم اقامة الاستدلال القياسى ذاته ، أو بعبارة اخرى يعد البناء الموضوعى رئيسيا بالنسبة الى أى استدلال قياسى ، وخاصية هذا البناء المشتركة كونه ذا طابع برهانى فيما هو عقلى وفيما هو تجريبى .

وبذلك يصح أن يتكلم مل بناء على موقفه عما يسميه بالمنهج الاستنباطى الذى ينقسم ثلاثة أقسام :

١ ــ الاستقراء

٢ ــ الاستدلال

٣ ــ التحقق

ويصح له أيضا أن يحدد الحجج والبراهين بوصفها القوة التى تلزمه أن ينساق لها ويجد اعتقاده مطابقا للواقع بناء على فرض هذا الانسياق عليه لا بوصفها القوة التى ينساق الفكر لها ، ويجد نفسه مضطرا من أجلها الى الانسياق (٢) . لأن التلاؤم مع الطبيعة لا شأن له بما هو خطأ أو صواب .

---

(١) الكييه : العمليات الذهنية ص ٣٢ .
Ferdinand Alquié : Opérations Intellectuelles 1937

(٢) مل : المنطق ــ جزء ثان ــ ص ٩٤ (طبعة فرنسية) .

وليست النتيجة فى القياس استدلالا مستقى من الصيغة ، ولكنها استدلال مطابق للصيغة (١) . ومن هنا لا يعترف مل بصفة الصدق التى نوافق عليها آليا فيما يتعلق بالقضايا الرياضية ، والضرورة التى نسبغها على حقائق الرياضيات أو على صـدق القضايا المنطقية واليقين الذى نضفيه عليها انما هما مجرد أوهام (٢) .

ولعلنا لا نعارض الآن كثيرا فيما قاله روبرتسون عن الاتجاه الذى سار فيه النفسانيون المناطقة من أنه ظاهرة نشأت عن الرغبة فى احياء المنهج من جديد بتناول منطق العصور الوسطى عن طريق تأسيسه وبنائه فوق علم النفس وملاءمته مع عمليات العلم (٣) .

والمهم هنا أن يلاحظ القارىء أن خطتنا فى الدراسة هى الحرص على عرض أفكار مل عرضا يوضحها ويبين مميزاتها مع التعقيب فى كل مرة بما يؤيدها أو يعارضها أو بما يناسبها من الآراء المعاصرة . كذلك يهمنا الاخلاص الكامل فى عرض نظريات مل على ضوء تفسـيرنا له باعتبار النفسانية مفتاح منطقه حتى نعطى هذا المنطق أكبر الفرص للظهور رغم معارضتنا آخر الأمر للنفسانية . فنحن نؤمن برغم ذلك أن دراسـة وجهة النظر النفسية مرحلة مبدئية أساسية فى المنطق لابد من الالمام بها الماما كافيا وان كان على المنطق فى مراحله المتأخرة أن يتخلص منها .

---

(١) المرجع نفسه — جزء أول — ص ٢١٧ (طبعة فرنسية) .

(٢) المرجع نفسه — جزء أول — ٢٢٥ (طبعة فرنسية) .

(٣) روبرتسون : صفحات الاستدلال — ص ٥٩ .
Robertson J. M. : Letters on Reasoning 1905

الفصل العاشر

المعنى والوجود

كانت العادة لدى المناطقة أن ترد المسائل اللغوية والمعنوية الخاصة بالقضايا فى أول البحث ، وكنت أود أن أمضى على هذا النسق أيضا ، غير أننى لاحظت فى كل ما قرأت حتى الآن صعوبة ادراك مهمة القضايا والألفاظ اذا تولينا أمر النظر فيها فى مطلع الكلام (١) .

ذلك أن القارىء لا يقترب فى العادة من الكلام الا اذا تصور مقتضياته الفكرية ووضعه المعنوى فى السياق العام ، أعنى أن شرح استخدام القضايا ومعانيها وصلة ذلك كله بمشكلة الوجود والموضوعية لا يفيد بقدر الاعتماد المباشر على طبيعة العبارات والألفاظ ذاتها فى الاشارة الى الوقائع والموجودات العينية .

وأحب أن أشير الى أنه فضلا عن أهمية فهم العبارات والقضايا فى سياقها الطبيعى أولا فمن العسير ادراك القضايا والألفاظ بغير التصورات الفعلية المرتبطة بها ، ولذلك غالبا ما يكون الكلام عن الألفاظ والأحكام والقضايا والعبارات مبهما اذا ظل فى المستوى التمهيدى غير المتداخل مع التصورات الخاصة بكل فى السياق العام ، واذا تكلمنا الآن عن الدلالات كان كلامنا أكثر وضوحا للسبق بالادلاء بكل المشاكل المحيطة بها والمضامين المترتبة عليها .

ومن ناحية ثانية لا نتناول هنا مجرد الألفاظ والدلالات بالبحث ، انما نريد أن يكون كلامنا هنا تفسيرا مباشرا لحقيقة المعنى والرمز بالنسبة الى مذهب مل كاملا وبالنسبة الى نسقه المنطقى العام .

وقد احتل مل مكانة خاصة فيما يتعلق بالحقيقة المنطقية . أعنى أن مل اتخذ لنفسه فى الواقع موقفا خاصا جدا فيما يتعلق بتقديره لمدلول

---

(١) انظر التمهيد

الحقيقة داخل عمليات المنطق . وبرغم أن مل لم يستطع أن يدرك حقيقة مشكلة المنطق الرئيسية فقد حام حولها بلا شك وأحس بطبيعتها .

وكان احساسه ذاك سببا فى أنه سعى سعيا حثيثا للتحايل على جملة الصعوبات التى لزم أن تترتب على موقفه الأصلى ، فقد اختار مل تفسيرا معينا لمشكلة المعنى والمدلول وألزمه هذا التفسير التحايل من أجل تدبير المجالات المناسبة .

خذ مثلا ما سبق أن قلناه من أن مل كان يفترض وجود الأشياء وجودا حقيقيا ماثلا داخل الفاظ العمليات المنطقية ، وأنه اضطر الى التحايل أمام ضرورات التفكير الاستنباطى ذاته بأن يضعف من طاقة الشىء الوجودية داخل العمليات من أجل تحقيق هذه العمليات .

ولا شك أن مل لم يكن يعترف بالمعنى كواقعة منطقية مستقلة عن الشىء الذى توحى به ، ومن ثم فقد وجد نفسه مسوقا الى التمسك بعلم نفس خاص بالخيالات المصورة التى تعين على التذكير بالأشياء نفسها فى كل خطوة من خطوات السير المنطقى .

وقد صارت مشكلة الدلالات ذات مكانة رئيسية فى المنطق الحديث من أجل تعويض الألفاظ عن حقيقتها المعنوية بحقيقتها المنطقية . ذلك أن المنطق يتلمس طريقه دائما من أجل اكتساب حقيقة الدلالة المنطقية لا الدلالة الموضوعية ، لابد من العمل فى المنطق على ازالة معنى الشيئية ، ولا يلبث كل عالم منطقى أن يشعر ان عاجلا أو آجلا بضرورة مواجهة هذه المشكلة كى يستكمل ضرورات عملياته المنطقية ، لابد أن يتخفف الفكر من كل شوائب الحدس الحسى كى يصعد فى استنباطاته الى القدر الذى يخوله اكتشاف علاقات صورية مستحدثة ، لابد من طرد الحدس فى صالح المنطق على حد تعبير روبير بلانشيه (١) .

ولا شك فى أن مل كان يعارض فى استخدام الرمز على نحو ما أوضحنا فى فصل الاستدلال (٢) . ولا شك أيضا فى أن مل كان قد تبنى ما أسميناه بالفعل العقلى التضمين وان لم ينطق بالاسم ذاته ، ولا شك ثالثا فى أن مل كان شديد التمسك بالأشياء ذاتها فى عملياته الى حد يدفع المرء الى الاعتقاد بأنه فطن الى منهج الفعل المضاد لحساب البديهيات ، أعنى أنه

---

(١) بلانشيه : حساب البديهيات ص ٤٩ Blanché (R) : L'Axiomatique 1955

(٢) كان مل يوافق كانط فى هذا الاتجاه . راجع كافاييس . حول المنطق ونظرية العلم ص ٧ .

Cavaillès Jean : sur la Logique et la théorie de la Science

كان يجعل الأشياء دائما تحل فى الألفاظ والمسميات بدلا من الاكتفاء بذكرها الرمزي .

والمشكلة التى تواجهنا الآن هى كيف استطاع مل أن يوفق بين مفهومه ذلك فى استبعاد الرمز الحسـابى وبين الحقيقة المنطقية كما تتداولها العمليات ؟

يقول مل : « لقد أخذنا الأسماء فى مؤلفنا هذا عن المنطق بوصفها أسماء أشياء لا بوصفها أفكارا عن الأشياء » (١) .

وهذا من شأنه أن يكشف لنا الفرق الهائل بين ما اعتدنا الآن أن نسميه منطق الدلالة ومنطق المداول Référence (٢) .

ذلك أن انهماك جون استيوارت مل فى اقحام الأشياء ذاتها فى العمليات المنطقية قاد ذهنه الى التفكير فى علم نفس جديد يسمح بأن تضيق العلاقة بينه وبين المنطق عندما تحمل العمليات على العالم الحقيقى مباشرة ، وعندما تشير الى فروع المعرفة المختلفة .

اذ يلزمنا ها هنا أمام ما يتطلبه المنطق بصورته عند مل علم نفس من نوع معين يستجيب لضروراته ، والنفسانية المنطقية استجابة طبيعية لحاجة أصيلة فى منطق مل ، اذ ينبغى أن تتوافر فاعليات نفسية معينة لتوثق العلاقة بالأشياء فى مضمون العمليات المنطقية ، والنفسانية المنطقية هى التى تعين فى مجال الأشكال الاجمالية والرموز على ألا نشغل أنفسنا بالعبارات المكتوبة بقدر ما نشغلها بالعرف والقواعد . وبغير أن نسجل هذا العرف وهذه القواعد نجدها تسيطر فعلا على أحوال الاستنباط ، ولا نعقلها الا بفضل التفكير النفسى .

فلا يعد المنطق اذا فهمناه على هذا النحو نظرية استدلالية ملحقة بالتطور العلمى ، وانما يعد علما للملاحظة والموازنة يهدف بخاصة الى نقد اجراءات الفكر الأولية التى تنعكس على المبادىء الأساسية للاستدلال، ويتولى المنطق شرح هذه الاجراءات كأنها حقيقة نفسية (١) .

---

(١) مل : المنطق — جزء أول — ص ٢٢ .

(٢) المدلول هـو الذى يلزم من العلم بشيء آخـر العلم به — التعـريفات للسيد الشريف على بن محمد الجرجانى ..

(٣) انريكيز : مشاكل العلم والمنطق ص ١٥٨ .

Federigo Enriqués : Problèmes de la Science et de la Logique 1909.

ومن أجل هذا قلنا ان موقف النفسانية عند مل تأثر تأثرا كبيرا بالمدلول فى منطقه ، ولجأ مل الى النفسانية بعد أن أعطى الأشياء بوصفها موضوع التفكير والاستدلال أهمية كبيرة من أجل ضمان العمليات الاستقرائية التى تؤدى اليها التعميمات .

فاللفظة عند مل تعنى أولا وقبل كل شىء شيئا ما ، وكل الأسماء أسماء أشياء حقيقية أو خيالية (١) ولابد من ثم تعداد الأشياء التى تشير اليها الألفاظ تعدادا مستمرا . ويؤدى التحليل اذن دورا رئيسيا من حيث بلوغ العناصر المكونة للواقعة فى النهاية فى هذا التعداد وتصنيفها تصنيفا صحيحا ، فهو الذى يكمن فى أساس الاستقراء عند مل بوصفه طريقة لاستبدال المفهومات بمدلولاتها أى وسيلة استبدالية وهو الذى يوجد بالمثل فى أصل الملاحظة بوصفه وسيلة استدلالية .

ويوجد وجه آخر لهذا التحليل عندما يتتابع الى أقصى بعد تتطلبه العملية الاستنباطية ، ولكى نحافظ على الملامح التجريبية للعملية يجب أن تواصل الكلمات احتفاظها بالمعنى الأول ، فيكون التحليل من ثم وسيلة للامساك بالأشياء موضوع الاستدلالات ؛ وعلى هذا يجب أن يحتفظ الاسم بطبيعته الأولى فى الوصل والتذكير بالتشابه مع فكرة سابقة .

ويمكن شرح ذلك بعبارة أخرى بقولنا ان التحليل يعمد فى عمليات الاستنباط أو الاستدلال العادية الى الاحتفاظ بطابع التجريبية أو بخاصية التجريب الأساسية وهى مثول الأشياء التى تشير اليها التعبيرات الخاصة بالاستدلال مثولا حقيقيا . لا يتم ذلك الا باستمرار الارتباط بين معانى الألفاظ الأولى التى كانت تشير اليها منذ مبدأ الأمر ومنذ مطلع عملية الاستدلال والألفاظ نفسها المستخدمة فى الاستدلال . فكأن التحليل يقوم بالاحتفاظ بمسميات الألفاظ نفسها ويقرنها دوما بالألفاظ المستخدمة فى عملية الاستدلال .

وتبين منذ أول الأمر أن مل فى تقسيماته يعمد الى التفرقة بين الأسماء النسبية والأسماء المطلقة ، ثم استغنى عن كلمة المطلقة لما تحمله من معان ميتافيزيقية ، ووضع بدلا منها كلمة غير النسبية .

وتبين أيضا أن مل استبعد امكان الاشارة بالاسم الى فكرة ؛ فعندما يستخدم مل اسما للتعبير عن اعتقاده ــ يستخدمه بقصد التعبير عن الاعتقاد فى الشىء لا الاعتقاد فى فكرة الشىء (٢) .

---

(١) مل : المنطق ــ جزء أول ــ ص ٢٦ .

(٢) مل : المنطق ــ جزء أول ــ ص ٢٣ .

كذلك استبعد مل كل تفرقة بين الأسماء وبين الحدود ، واستغنى عن كثير من أنواع الأسماء الاسكولائية التى وجد عدم غنائها .

وليست الألفاظ أسماء انما هى بعض الاسم فقط حتى أن كلمات كثيرة معا لا تؤدى الا أسما واحدا فقط من الأسماء (١) .

ونلاحظ بين جملة تقسيماته أن الاسم العينى (اسم الذات) هو أسم الشىء ، وأن الاسم المجرد (اسم المعنى) هو أسم الكيف أو الصفة فى الشىء : فمحمد وبحر ومنضدة أسماء أشياء . وأبيض اسم شىء أيضا أو اسم أشياء على أصح تقدير ، والبياض اسم صفة أو كيف لهـــذه الأشـــياء (٢) .

ولا يجوز أن نخلط الاسم المجـــرد (اسم المعنى) بالاسم الكلى : فبالاسم المجرد (اسم المعنى) يعنى مل عادة ماهو عكس الاسم العينى (اسم الذات) . غير أن بعض الأسماء المجردة (اسماء المعنى) تنتمى الى فئة صفات كيفية لا الى صفة محددة . ومثل ذلك لفظة « لون » فهى اسم عام للبياض والاحمرار ، الخ .. (٣) .

وتنطبق الأسماء ذات الدلالة على الأشياء الفردية ، وعندما تنطبق على تلك الأشياء تتضمن الأسماء بعض الصفات ، ولكنهـا تتضمن تلك الصفات بسبب انطباقها على تلك الأشياء (٤) .

ويمكن أن تسمى تلك الأسماء باسم الحدود التعريفية ؛ فهى أسماء تعين موضوعا وتتضمن صفة ، وبذلك لا تكون الأسماء الجزئية أو أسماء الصفات حدودا تعريفية (٥) .

على أن جونسون أراد فى منطقه استبقاء الحدود بالمعنى الذى أعطاه اياها لوك واستبعاد المعنى الوسيطى الذى شاء مل استخدامه ؛ فقد كان جونسون ميالا الى التصورية ، ولم يشأ استخدام التعبيرات نفسها لدى مل لاختلاف موقفيهما اختلافا منهجيا بينا ، وكان مل يرفض الأسماء

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥ .

(٢) مل : المرجع نفسه ص ٢٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٩ .

(٤) المرجع نفسه ص ٣٠ .

(٥) جونسون : المنطق — جزء أول — ص ٨٥ .
Johnson V. E. : Logie 1921.

الكلية على حين كان جونسون يجيزها . وهذا اختلاف طبيعى وفقا لما سبق لنا قوله فى مطلع هذا الفصل .

وقد عمد مل الى أن يقضى على الاسم المجرد (اسم المعنى) ليعيد ظهوره من جديد فى قلب التصورات ، أما جونسون فيصر على استبقاء الاسم الكلى حيث انه ضرورى لازم حتى تتحدد عن طريقه الأسماء الجزئية بوصفها موضوعات قضايا أو بوصفها صفات . والا فكيف يمكن فى رأى جونسون تطبيق الأسماء نفسها على الأشياء نفسها فى المواقف المختلفة (١) ؟

وكأنما أدرك جونسون أيضا الصعوبات التى تواجه مل فى منطقه ؛ فقد امتدح جونسون الى حد كبير تصرف مل من حيث اطلاقه اسم المفهوم التعريفى على الحد الذى يشير الى شىء ويتضمن صفة ما ؛ فذلك من شأنه حل كثير من الاشكالات (٢) . غير أنه كى تفيد من هذا الوضع يجب تصحيح التعريف الخاص بالمفهوم التعريفى حتى يحمل فى ذاته مدلولا جوهريا خاصا بعناصر المفهوم لما فى طبيعة المفهوم التعريفى من وصفية بحتة . ولما كان من غير الجائز أن نضع « انسانيا » بدلا من انسان أو كأن نضع اسما مجردا (أى اسم المعنى) « كانسانية » محل انسان فالأفضل أن يظل اسم « الانسان » معرفا بقولنا « الكائن الانسانى » .

وهذه النقطة بالذات كفيلة بتوضيح النفسانية التى يعتمد عليها مل ؛ فمل اذا قبل على نفسه هذا الموقف فانما قبله لأنه يريد دائما من تعريف الشىء أن يتم عن طريق تعريف آخر يفترضه ،وهذا من تأثير المذهب الترابطى فى التداعى أولا ، ومن تأثير كراهية فكرة الجوهر ثانيا ، ولرغبة مل فى الاحتفاظ ثالثا بالشيئية ذاتها فى مقام الجوهر .

فحينما أقول : « الجليد أبيض » يكون هذا داعيا الى تذكر أشياء كثيرة بيضاء من بينها الجليد بحيث أنشىء صنفا أبيض . وبدلا من تفسير المسبب بالسبب يعمد مل من هنا الى تفسير السبب بالمسبب ، وهو موقف لا يسبق الحكم بل يتبعه (٣) .

---

(١) جونسون : المنطق — جزء أول — ص ٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٩ — ١٠١ .

(٣) مل : المنطق : الجزء الأول ص ١٠٣ — ١٠٤ .

واذا تذكرنا أن كل صفة تقوم على واقعة معينة أو على ظاهرة حسية أو شعورية ... وان امتلاك صفة ليس سوى أن يكون سببا أو أن يدخل ضمن واقعة أو ظاهرة تنبنى عليها الصفة ـ فسيكون فى امكان التحليل من ثم أن يؤدى دورا أبعد .

وتعنى لفظة « انسان » اذن كل الصفات المعروفة عن نوع معين من الكائنات الحية بسبب ظواهر معينة كبعض الوقائع الطبيعية فى انطباعاتها على حواسنا من حيث الشكل والبناء وكبعض الوقائع العقلية من حيث الفطنة والذكاء ، فهذا هو ما تعنيه لفظة « انسان » لدى كل من يعرف دلالة الاسم (١) .

ولا شك اذن فيما قاله لوريه عن مل من أن الأمثلة التى أعطاها كانت كلها دليـــلا على أنه ـ أى مل ـ أعطى الحواس فى المنطق المكانة الأساسية لدلالة اللفظ (٢) .

ومن العبث فى نظر مل أن نبحث عن أسباب الاحساسات ويرجع نقد مل لبيكون الى هذا السبب نفسه ؛ (٣) فهو يوجه نقدا عنيفا الى بيكون بسبب اهتمامه اهتماما بالغا بالبحث عن الأسباب . مع أن المهم فى نظر مل كما سبق أن قلنا هو معرفة المسببات والآثار ؛ فالمسببات أو المعلولات هى موضوع العلم . واذا اكتشفنا أسباب المسببات فذلك يتم فى الغالب بعد اكتشاف مسببات الأسباب .

وأهم شىء من وجهة نظر المنطق أن تكون الاحساسات حقيقة يمكن اثباتها . وذلك من شأنه أن يستدعى أن تكون الأشياء ذاتها موضع تعرف واقعى سريع دون أن نفترض هوية ما بين الاحساسات وبين الأشياء ، والتفرقة التى يضعها مل لفظيا بين خواص الأشياء وبين الاحساسات التى تنشأ عنها لها ما يوجبها فى ملاءمة العبارات والأقوال (٤) .

وأهم شىء يقصده مل هنا هو الفصل بين السبب وبين المسبب ؛ فالسببية عند مل غير معروفة ، وكل ما يفترضه مل هنا من ضرورة هو

---

(١) مل : المنطق : جزء أول ـ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) لوريه : مل ص ١٢٢ ..

(٣) مل : المنطق ـ جزء ثان ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٤) مل : المنطق ـ جزء أول ـ ص ٦٩ ..

التشابه بين السبب وبين المسبب ، أى أن الشبيه يولد الشبيه ، وعلى المسببات أن تكون بالضرورة شبيهة بأسبابها .

كذلك يريد مل أن يفصل بين الظاهرة وبين الشرط الذى تعتمد عليه فى وقوعها (١) . وأول مبدأ فى نظرية مل عن الاحساس هو لزوم فصل الاحساس عن الظروف أو الشروط الخارجية ؛ وبذلك تنفصل الأسباب الخارجية للاحساس عن الاحساس نفسه .

وبهذا الفصل الأساسى أصبح من الميسر بالنسبة الى مل أن يقيم استدلالاته واستقراءاته مع ربط دائم للأسماء والألفاظ والحدود بالأشياء ذاتها طالما كانت هذه الأشياء معزولة أصلا عن مسـببـاتها الحسية . ربط مل بكل جرأة بين اللفظ وبين الشيء الذى يشير اليه واقعيا بل واستحث تجديد المحافظة على هذا الربط خلال كل العمليات . وكان اطمئنانه كعامل فى حقل المنطق قائما على أساس أن ثمة موقفا آخر يحمى هذه الحدود من الاشارة المباشرة الى الشيء ذاته طالما كان هـذا الشيء منفصلا انفصالا أوليا عن الاحساسات التى تنشأ عنه فى الحس .

واذا كانت الاحساسات قد انفصلت عن مصدرها وعن الشيء الذى يبتعثها فقد بقى لها اذن مقدار القوة الوجودية التى تشيع من تأثير المصدر الخارجى للاحساس ، أعنى أنه اذا زال الشيء الخارجى بوصفه المؤثر على الاحساس عن الاحساس الناجم عنه فسوف يبقى الأثر الذى يختلف قوة وضعفا وفقا للطاقة الوجودية التى يبتعثها المصدر الخارجى . وبقدر الحاح وتأكيد المؤثر الخارجى تظل الحقيقة الناجمة عنه مرتبطة به كمسبب يضعف ويقوى وفقا لمدى التأثير .

وشاء مل أن يبين أن الصفات تنبنى على المشاعر feelings وعلى علاقات أساسية معينة بين هذه المشاعر . فالمشاعر جنس تضم الاحساس والانفعال والفكرة كأنواع (٢) . فليس اذن ما يدعو الى افتراض التصورات العامة من أجل فهم التشابه .

والمشاعر نسبية ويمكن الموازنة بين بعضها وبعض على حسب الشدة ودرجة القوة فى كل . ولما كان الفكر خاليا مما يميزه من المشاعر أساسا أمكن التداعى أن يوحد بطريقة محكمة وبلا تشتت ظاهر بين موضوعات

---

(١) مل : المنطق ـ جزء ثان ـ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(٢) مل : المنطق ـ جزء أول ـ ص ٥٣ .

الفكر وموضوعات المشاعر ، ويجب أن نفهم من لفظة الفكر كما يقول مل كل ما نشعر به عندما نكون فى حالة تفكير (١) .

فليس هناك اذن ما يدعو الى افتراض تصـــور للهوية فى الأحكام أو القضايا المتعلقة بالتشابه . واذا كانت التصورات مجرد أسماء فسيمكن اذن فى النهاية رد الهوية الى علاقات تداع ، وليس لمبدأ الهوية أى تقدير أعلى من تقدير البراهين التجريبية ، وليست الحدود التى يتألف منهـــا مبدأ الهوية سوى صيغ وعبارات عن الوقائع المتداعية أو المفككة ، وليس للكلى أيضا أى أساس فى نظرية مل سواء فى الفكر أو فى الأشياء . ووحدة الكلى لا تعدو أن تكون سوى الوحدة المادية والفردية للفظ (٢) .

وقد أيد استعمال الأسماء العينية العامة (اسماء الذوات الكلية) أو استعمال علاقة هذه الأسماء العينية العامة (أسماء الذوات الكلية) بالفكر (وهو نفس الشىء) نظرية مل عن التصور ؛ ذلك أن المفهوم فعل يتثبت به الفكر فيما يتعلق بالتشابهات أو بالعلاقات بين الأشـــياء ، ولا يتم تكوينه ولا يبقى فى الفكر بغير الحدود المدركة أو المتخيلة . وكأن المفهوم مغلف فى صفات الأفراد المتشابهين ، وفى أفعال الذهن التى تقارب بينها وتقوم بتجميعها (٣) .

والمفهوم فى نهاية الأمر جزء من الحالات العينية ، ولا حاجة بنا الى أكثر من اسم كلى ينطبق على مجموعتى صفات الأفراد المتشابهين وأفعال الذهن التى تعمل على التجميع بينها لمعرفة حقيقة المفهوم ، فالمفهوم يعطى التصور وحدته ، وما نطلق عليه اسم الفكرة العامة أو التصور ليس ســـوى اسم .

وكل ما نعرفه عن الأشياء الخارجية هو :

١ ــ الاحساسات التى تعطيها ايانا الأشياء الخارجية .

٢ ــ النظام الذى يتم فيه انتاج هذه الاحساسات (٤) .

---

(١) مل : المرجع نفسه .

(٢) فيرى : علم نفس التداعى ص ١١٥ ــ ١١٦ .

(٣) مل : المنطق ــ جزء أول ــ ص ١١٤ .

(٤) مل : المرجع نفسه ــ جزء أول ــ ص ٦٤ .

واذا كان الأمر كذلك فلا أقل من أن نؤكد مع ستيس Stace أن هذا كله ليس من المنطق في شيء ، وانما هو مناهج بحث ، فثمة قواعد لانتقاء المعطيات واكتشافها ، ونستطيع ابتداء منها أن نستنبط نتائجنا(١) .

ولكننا نعترض على ذلك بأن الموقف لا يحتاج الا لتفسير واحد وهو أن مل استخدم النفسانية لحل كثير من قضايا المنطق ومسائله العويصة، كما أنه كان يتكلم دائما في دائرة العمل المنطقي تحت أضواء نفسانية قوية، ورفضنا قبل ذلك أيضا افتراض ستاوت أن مل يعالج المسائل من الوجهة النفسية البحتة .

وبفضل اقحام الاستنباط في نظرية الاستقراء ، وبفضل التحليل في نظرية الملاحظة والتجربة وبفضل علم نفس التداعي في النزعة التجريبية ــ أنقذ مل منطقه وان كان برغم ذلك قد بقي في نطاق ضيق الى أقصى درجة ؛ ذلك أن كل شيء في منطق مل ظل مربوطا بنفسانيته القائمة كعصب أصيل أو كبناء أساسي قائم على التوسط mediation في كل تفكيره. وهكذا ــ وان كان بعيدا عما تقتضيه أهداف الفلسفة وأغراض المنطق(١)ــ يخفف من غلواء التفاصيل الحسية . وحين أطلق مل اسم الصفة على الاحساس كان يعني التمركز في قضايا الفكر لا في الواقع ، ولعلنا نقول هنا : ان مل أسعف المنطق بنفسانيته ، وأبرز كثيرا من عيوب المواقف المنطقية التقليدية فيما يتعلق بالتصورات والمفاهيم وطبيعة القضايا أكثر مما أغنى الواقعية التجريبية . وهذه ميزة تحسب للنفسانية .

وحينما يعتمد مل على الواقعة الذاتية في الاختلاف الذي يشعر به الفكر حيال الأشياء دون لجوء الى فكرة الوحدات الشيئية القائمة بذاتها فانه يريد بذلك أن يبقى على أبعاد واضحة بين الشيء وبين الصفة ، وينتهي التشابه والاختلاف عند مل في صورة تشابه واختلاف بين حالات فكرنا أو أي فكر آخر (٢) .

فالأشياء توجد بالنسبة الى الانسان بفضل البراهين الوجدانية

---

(١) ستيس : نظرية المنطق والوجود ص ٣٥٨ .

Stace : Theory of logic and existence

(٢) رسل : تحليل العقل ص ١٩٢ .

(٣) مل : المنطق ــ جزء أول ــ ص ٧٥ .

لا بسبب الحدس المباشر . وعندما نقول ــ ان صفتين تتشابهان ــ فمعنى ذلك أن الاحساسات التى تساند هاتين الصفتين متشابهة (١) .

وتحمل التفرقة بين أسماء المفهومات (٢) وأسماء الماصدقات عند مل على حقيقة الأشياء مشارا اليها بأسماء كموضوعات وكصفات ، وكانت أسماء المفهومات عند مل تأخذ اسما آخر لدى لوك ، كان لوك يطلق عليها اسم الأفكار المركبة أو المجردة .

وتشير أسماء المفهومات من حيث تعبيراتها المعبرة عنها الى حدود الصفات فى علاقتها بما يقوم مقام الجوهر عند مل وهو المفهوم التعريفى، فتقال كلمة عادل (مع أو بغير الصفة التى تعنيهـــا مباشرة) كمفهوم لموضوع « الانسان » أو « الله » . واسم المفهوم عند مل يشـــير الى الموضوعات التى تخصه والى الصفات التى يعنيها معا وفقا لطبيعة هذا الاسم فى العصور الوسطى .

وكانت هذه النقطة من أخطر المنزلقات التى تردى فيها مل . وأشار ويب Webb فى تعليقه على هذه النقطة (٣) الى أن مل اندفع هنا مع المعنى الاصطلاحى الى حد اضطراره الى انكار أن الأسماء الجزئية تأخذ مفهوما طالما أن هذه الأسماء الجزئية لا تعنى شيئا سوى الموضوع الذى تنطبق عليه . فاسم « سوفرونيسك » مثلاً لا يحتوى على فكرة أبوة سقراط .

والواقع أن مل استقى هــذه اللفظة من مصطلحات أوكام ، وكان يقصد من ذلك تحاشى الانفصال عن الكيفيات الخاصة بعالم الأشـــياء الحقيقى ، وأراد أيضا أن يتحاشى اعطـــاء شخصية حقيقية لمجموعات الصفات بوصفها صنفا أو فئة .

وعلى الرغم من اســـتعمال مل اللفظة connotation محل لفظـــة compréhension التقليدية فقد رفض هذه الأخيرة ، وحينما اكتشف مل كلمة « فئة ــ اسم » وضعها الى جانب هذه الأخيرة بوصفها تشير

---

(١) مل : المرجع نفسه ص ٧٦ .

(٢) يستعمل مل compréhension & connotation بمعنى واحد : راجع كتابه فلسفة هاملتون ص ١٠٤ (طبعة انجليزية) ، وراجع أيضا معنى الكلمة الأولى فى تحليل العقل لجيمس مل ص ٣٣ ــ ٣٤ .

(٣) لالاند : المعجم الفلسفى ص ١٦٦ .

أيضا الى افكار (١) . وليس للاسم الكلى ذاته دلالة الا اذا كان اسم عدد لانهائى منوع من الأشياء التى تملك صفات معينة محددة .

وكان فيرى قد ذهب الى حد وصف مل بأنه ينزع نحو الاسمية nominalism ولكن كاريه Carré الذى كان متخصصـــا فى النزعات الاسمية والواقعية والتصورية أشار الى أن مل هنا « تنازل » فقط عن كثير من الجوانب فى صالح الاسمية (٢) : أى أن الأمر ليس أمر دعوة اسمية فى فلسفة مل بقدر ما هو مجرد « تنازل » فى بعض الميادين .

وأود بهذه المناسبة أن أوضح أن حماسنا فى شرح وجهة نظر مل لا تعنى اطلاقا أننا نؤيده ولكنه يعنى أننا نسهم فى توضيح آرائه الى أكبر قدر ممكن وبكل الوســـائل من أجل اعطائه كافة الفرص فى الظهـــور والاستقرار . فاذا بدر منا حرص شديد على توضيح آرائه وتعضيدها من وجهة نظره فذلك لتحقيق الهـــدف العـــلمى وحـــده فى جوانب هذه الدراسة .

---

(١) مل : فلسفة هاملتون ص ١٠٤ أو ص ٤٣٧ (طبعة انجليزية) .

(٢) كاريه : مراحل الفكر الانجليزى ص ٣١٤ .

Carré M.H. : Phases of Thought in England 1949

الفصل الحادى عشر

نظرية المنطق عند مل

« لا ينبغى أن نتوقع الاتفاق على تعريف شىء معين حتى يكون ثمـة اتفاق على الشىء نفسه » .

مـل

يتحدث استروسن فى كتابه « مقـدمة الى نظرية المنطق » عما يسميه طبيعة علم المنطق الصورى ، ويتحدث فيتش فى كتابه « المنطق القصدى » عن طبيعة الصيغ المنطقية . لا شك أن كثيرا من علماء المنطق يستخدم لفظة طبيعة علم المنطق كتبرير لوجهة النظر التى يود أن يستشفها من وراء العمليات المنطقية أو لمنحى البحث الذى يود فرضه على مجالات المنطق أو على عملياته واتجاهاته .

ويتحدث بوارييه عن البحث الفرعى النظرى Une Aléthologie وهو نظرية الحقيقة أو فلسفة الحقيقة بكل متفرعاتها مثل : ماذا تعنى المعرفة والفهم والادراك والتعريف والتصنيف والحكم والاستدلال ؟ ولا حيلة للمنطق فى نظر بوارييه فى الخلاص من هذا الجانب الأولى الأساسى فى كل بحث عن المنطق .

ويتحدث بياجيه عن المشـاغل المنطقية الاضافية التى يسميهـا بالفرنسية Les Préoccupations logiques . ففى الصفحة السـادسة والعشرين من كتابه « بحث فى المنطق » يقول بياجيه بكل صراحة : (لكل منطيق مشغوليات منطقية اضافية) ، وهذا هو ما دفع أنصار حلقة فيينا الوضعيين المناطقـة فى نظر بياجيه الى أن يكونوا ذوى نزعة فيزيائية يريد بذلك أنهم حاولوا أن يقضوا قضاء تاما على أية وساطات بين المضمون الواقعى أو التجريبى العلمى للقضايا وبين صورها المنطقية بوصفها تخصيصا للتركيب التعبيرى فى العبارات اللغوية وحسب .

وكانت مشاغل رسل المسيطرة على تفكيره هى تحويل الرياضيات الى منطق كما كان شاغل المناطقة الرياضيين الأكبر محاولاتهم المستمرة لضمان صرامة حساب البديهيات والبرهنة على عدم تناقض الأنظمة النسقية . وقال بياجيه عن نفسه : ان مشاغله المنطقية الاضافية فى بحثه عن المنطق لا تعدو أن تكون رغبة فى توضيح عمل الفكر الحقيقى وتوضيح قابلية العكس La Réversibilité على الخصوص عن طريق تحليل الأبنية الصورية المتناظرة . ومن شأن هذه المسائل المنطقية الاضافية فى نظر بياجيه أن تخصب البحث دون أن تؤثر على منهج الاستنباط التحليلى ؛ ولذلك يعلق بياجيه على كلامه هذا بقوله انه يخشى أن تكون بعض الاتجاهات الفيزيائية للمناطقة من أمثال وتجنشتاين وأصحاب حلقة فيينا قد أدت بتحليلهم المنطقى الرياضى الى الخضوع لمؤثرات نفسية معينة بالرغم عنهم ، لأن الباحثين يقعون دائما فى حبال علم نفس الفطرة السليمة عندما يقررون تخليص أبحاثهم من كل شبهة نفسية (١) .

ويعرف هيجل المنطق بوصفه علم الفكرة الخالصة ، ويقول ان صعوبته تنشأ من أنه لا يعنى بالادراكات ولا بالامتثالات المجردة مثل الهندسة ، ولكن بالتجريدات البحتة (٢) .

أما ديوى فيقول ان نظرية المنطق تمثل لونا من العماء أو من الاضطراب ؛ اذ لا يكاد يظهر أى اتفاق فيما يتعلق بموضوع المنطق أو أفقه أو أغراضه (٣) .

ويشير كل من بوليجان Bouligand وديجرانش Desgranges فى كتابهما عن انهيار المطلقات الرياضية المنطقية الى ما يسمونه بالمنطق الناقص La Logique Affaiblie . وهو المنطق الفاعلى أو الرمزى نفسه بعد تخليصه من مبدأ الثالث المرفوع . وهو ما يشير حماس الحدسيين منذ بروير . وتوجد أنواع أخرى من المنطق الناقص وفقا للمبادىء التى أمكن استخلاصها من نظريات الجزيئيات مثل منطق بوهر فى الميكانيكا التموجية حيث يكمل كل من الموجة والجزيىء بعضهما البعض

---

(١) بياجيه : بحث فى المنطق ص ٣٠ .

(٢) هيجل : الفقرة ١٩ من كتابه عن مجمل موسوعة العلوم الفلسفية .

(٣) ديوى : اعادة بناء الفلسفة ص ١٣٢ — ١٣٣ .

Dewey : Reconstruction of Philosophy 1920

دون أن يتعايشا معا في الواقع الحقيقي . وهذه هي ما تسمى بأنواع منطق الاستكمال Complémentarité (١) .

ومن كل هذا نتبين أن ثمة شيئا وراء كل منطق ، فـلا يستطيع المنطق أن يقف على قدميه بغير نظرية مساندة ؛ ولهذه النظرية المساندة أهمية كبيرة في كشف القناع عن حقيقة الاتجاه المساند للتحليل العملي والفكري . وهي أيضا ذات أهمية في توطيد معالم الفكر الفلسفي القائم خلف العمليات المنطقية المختلفة :

فبعضهم مثل « بوزانكيه » مثـلا يؤكد أن طالب المنطق الذي لا يعرف المثالية الذاتية Subjective Idealism لا يمكنـه أن يتبين حقيقة المنطق ، فلا يستطيع المرء أن يعرف مشكلة المنطق الحقيقة بغير استيعاب المثالية الذاتية (٢) .

وبعضهم مثل « ماتيس » يقرر أن منطق تحصيل الحاصل لا يتقدم بنا في شيء وانما يجعلنا ندور دواما في دائرة مفرغة ، فلا نكاد نخرج من تجريد الذاتية ونضيف علاقات الاستلزام والاستبعاد والاقتران .. الخ حتى نكتشف حاجتنا الماسة الى ملاحظة الواقع الحقيقي نفسه من أجل تهيئة وتنظيم مبادىء وشروط ضـمان اليقين الخاصـة بكل تلك التجريدات . ولا يمكن أن يأتي ذلك اليقين من شيء قبلي سابق ؛ اذ يبدو المنطق الصوري الخالص نفسه غير كاف في مجال الرياضيات على ما فيه من استقراء واستنباط معا ، ولا يكاد يشـذ عالم من علمـاء الرياضة عن هذا الاتفاق العام (٣) . واذا كانت مهمة البنوك أساسا هي ضمان عدم زيف العملات المالية فان وظيفتها تكون أشد تعقيدا وضخامة من ذلك في نطـاق النشاط الاقتصـادي بالمجتمع ، وهكذا الحال في المنطق : فالمنطق بأنواعه المختلفة دور عظيم في تكوين العـلوم المختلفة وفي تطورها الى جانب مهمته الأصلية .

ولعلنا نستشف من كل ما قلناه حتى الآن أن نظرية المنطق توازي

---

(١) بوليجان وديجرانش : سقوط المطلقات الرياضية المنطقية ص ٢٥٢ .
Le Déclin des Absolus Mathématico-logique, Paris 1949.

(٢) بوزانكيه : أسس المنطق ص ٢٠ .
Bosanquet (Bernard) : The Essentials of logic 1948.

(١) ماتيس : عدم الانسجام الكوني ص ٧١
Matisse (George) : L'Incohérence Universelle, vol. I, 1953.

دائما البحث المنطقى ذاته • لا حيلة فى أن يصطبغ العمل المنطقى أو البحث المنطقى بصبغة ما تجعله أقرب الى طبيعة الفهم الخاص بالمنطق كعلم لدى الباحث المنطقى . واذا كان بياجيه قد نبه الى ضرورة عـــدم تأثير المشاغل المنطقية الاضافية على عمليات المنطق ذاتها ـ فان علم المنطق لا يزال يتأثر فعلاً فى عملياته ورموزه وفى مفهـوماته وتصــــوراته بكل النظريات التى يحتضنها ويتبناها شتى علماء المنطق .

لا يكاد اذن يوجد عالم من علماء المنطق بغير نظرية فى المنطق . وقد عارض روجييه قضايا الضرورة أو « الأبوديكتيك » عند أرسطو بحساب البديهيات أو الأكزيوماتيك عند هيلبرت (١) . وكذلك كثيرا ما تحدث المناطقة عن الحدسية أو الصورية البحتة عند هيلبرت ، وعن المنطقية البحتة عند فريجه ، وعن الذرية المنطقية عند فتجنشتاين ، وعن منطق بواريبه العضوى ، وعن آلية العمل العقلى عند بياجيه . ولم تكد تظهر بشائر المنطق الرياضى حتى قال فويجت بضرورة التساؤل من جديد عن ماهية المنطق . وأكد فويجت Voigt بنفسه ضرورة وجود منطق للتعبيرات فى مطلع كل بناء منطقى (٢) .

ولا تكاد تمضى الأيام دون أن تبعث الينا بجديد من المسميات التى تطلق على هذا المنطق أو ذاك وفقا لأهم معالمه وأبرز ملامحه العقلية .

ولم نكد نتطلع الى كتابات المؤلفين عن جون استيوارت مل حتى وجدنا أغلبهم ينكر وجود نظرية فى المنطق من قبيل النظريات التى تحدثنا عنها هنا لدى فيلسوف التجريبية جون استيوارت مل . بل واسترعى نظرنا أن أهم دراسة لمنطق مل وهى دراسة ريجينالد جاكســـون قد أكدت عدم وجود نظرية للمنطق لدى مل . وأحسسنا من ثم بخطورة الاغضاء عن نظرية المنطق لدى فيلسوفنا التجريبى اسوة ببقية المناطقة المتفلسفين •

ذلك أن أبقى جانب من منطق مل على الاطلاق فى نظرنا هو نظرية المنطق عنده . وحق لأحد المعاصرين وهو هرمان ماير Herman Mayer أن

---

(١) روجييه : النسبية المنطقية بمجلة الميتافيزيقا عدد يولية سنة ١٩٤٠ ص ٣٠٥ .

Rougier (Louis) : La Relativité Logique, Rev. de Métaphysique, Juillet 1940, p. 305

(٢) أوسبورن : فلسفة هوسرل ص ٤٧

Osborn : Philosophy of Husserl, New York, 1943.

يقول عن مل أنه أول من أخذ على عاتقه في انجلترا مهمة تنسيق أبحاث لوك التجريبية ، وأنه قد فطن الى عرضية يقين القواعد التجريبية ، وأن يضيف مابر الى ذلك قوله : ولا تبدو قواعد منطقه الاستقرائي ذات فائدة الا في العمل . ولا شك أنها قد بليت حتى في هذا المجال لأن حساب التفاضل والمناهج الأخرى الكثيرة قد صارت تخدم الاستدلالات خدمات جليلة ابتداء من سلسلة التجارب المعينة ، ومن ثم فقد حلت هذه أيضا محل مناهج مل (١) .

وانهال أندريه داربون نقدا على منطق جون استيوارت مل فقال: ان العقل المنطقي La Raison Logique لا يتعلق الا بحقيقة ترتب شيء على شيء أو بالرابطة الضرورية التي توحد بين تلك الحقيقة وبين القضايا التي تستنبطها منها . والشيء الوحيد الذي يسترعي التفات العقل المنطقي في الاستنباط هو متانة هذا الرباط الذي يحول دون قبول المقدمات بغير قبول النتائج في الوقت نفسه . أما مل فقد فطن الى نمو المعرفة ، اذ أن قوانين مقدمات الاستنباط لا تحتاج في المعرفة الفرضية الاستنباطية Hypothético déductif الى أي اثبات ، فهي لا تؤدي الا الى تعريف موضوع الدراسة من حيث بناؤه وتحصيله (٢) .

وبهذا يكون منطق مل قد فقد قيمته التجريبية كما ظهر من النقد الأول عند مايرو قيمته الاستدلالية كما ظهر من النقد الثاني عند داربون . والواقع أنه من السهل التسليم بهذين النقدين ، أما اتهام منطق مل بخلوه من نظرية في المنطق فلا نريد أن نصدقها بل ولا نملك هنا الا أن نكذبها تكذيبا قاطعا استنادا الى وضوح النفسانية المنطقية لديه . وهي في نظرنا تقوم مقام نظرية المنطق ، بل هي نفسها نظرية المنطق ، ولعلها أخطر وأهم نظريات المنطق التي قيلت على الاطلاق من ناحية تأثيرها على الأقل .

ولم تكن النفسانية المنطقية واضحة المعالم في عصر مل ، لم تكن قد تفتحت اتجاهاتها وأثمرت أفكارها ومبادئها ، ولكنها كانت قد وصلت برغم ذلك الى درجة من التبلور الحقيقي ، فالقرن التاسع عشر كما قيل بحق هو قرن العـــلم . وتلقى القرن التاسع عشر علم النفس أو علم

---

(١)ماير : دور التوسط الخالص بالمنطق ص ١٤٣ — ١٤٤
Mayer (Hurman) : Le rôle Médiateur de la Logique.

(٢) داربون : اقسام الجهة في الأحكام ص ٨ — ١٢
Darbon (André) : Les catégories de la Modalité Paris 1956.

الانسان عند كانط على حد تعبير بولدوين Baldwin (١) بوصفه نوعا من الذاتية المتجددة . ولم تستطع الاتجاهات الطبيعية العملية أو الوضعية أن تفيد افادة كبيرة من علم النفس عند كانط ، ولكن قامت برغم ذلك معارضات للكانطية من قبل فريز Fries (١٧٧٣ — ١٨٤٣) ومن قبل بينكيه Beneke (١٧٩٨ — ١٨٥٤) :

أما فريز فهو منشىء الاتجاه المشوب بالتفسير النفسى لفلسفة كانط ، وقد شاء أن يؤسس فلسفة كانط تأسيسا نفسيا جديدا يدعم هذه الفلسفة ويثبت حقائقها ، ومن أهم مؤلفاته فى هذا الاتجاه كتابه عن : (النقد الجديد للعقل) « سنة ١٨٠٧ » فى ثلاثة أجزاء .

Neue Kritik der Vernunft

وقام بينكيه بتأسيس قاعدة نفسية تجريبية للفلسفة كبديل للفلسفات التأملية .

ويعد من أهم ما قدمه هذان العالمان ملاحظاتهما التجريبية المتعلقة بالشعور ، ولا شك أن الانتقادات التى وجهها هذان العالمان الى الكانطية كانت سببا فى تفتح آفاق جديدة فيما يتعلق بحقيقة الشعور ، وأدت من ثم الى تطور علم النفس فى اتجاه تجريبى جديد .

ولم يتوافر مطلبا العلم فى البحوث النفسية فى انجلترا الا عند هيوم (١٧١١ — ١٧٧٦) فقد عالج هيوم موضوع العقل كجزء من الطبيعة ، وحاول اكتشاف قوانين التغير العقلى عن طريق الملاحظة .

وجاء بعده جيمس مل (١٧٧٣ — ١٨٣٦) فأنشأ علما نفسيا ذا نظام نسقى على أساس الاحساس بوصفه العنصر العقلى الأصيل الوحيد وعلى أساس التداعى (والمبنى على صورة الاقتران الأساسية بخاصة) بوصفه مبدأ التنظيم الوحيد ، وأيد جيمس مل مذهب الحسية كما قال به كونديلاك بشكل دقيق فيما يتعلق بالملاحظة .

ولا يملك المرء الا أن يشعر بنقاط ابتداء جديدة حقيقية عند مل الابن وهو جون استيوارت مل الذى تعمد هذه الدراسة الى توضيح اتجاهه فى النفسانية المنطقية كأساس لنظرية المنطق عنده .

فلم يكد يستقر المقام بمل فى ميدان علم النفس حتى أعلن أن قوانين

---

(١) بولدوين : تاريخ علم النفس (جـ ٢٠) ص ٣٢ .

Baldwin (James Mark) : History of psychology

الفكر الصورية ليست الا تعبيرا عن العادات النفسية التى خلقتهـا الحواس ، فليس مبدأ عدم التناقض مثلا سوى أحد التعميمات الأولى المألوفة للتجربة (١) .

وحاول مل بعد ذلك أن يحدد معالم منطقه الجديد على أسـاس الاستقراء ، وكان ويويل قد بنى الاستقراء على فلسفة الفكرة ، بل جعل « ويويل » من الفرض ماهية الاستقراء نفسه ونظر أساسا الى الوقائع ذاتها لا الى القانون . وصار الاستقراء تجميعا : فمثلا يدور الملاح حول الجزيرة ، ويمر بكل النقاط المحيطة بهذه الجزيرة على أساس الالمام الكامل بكل تفصيلات الموقف .

أما من وجهـة نظر مل فالاسـتقراء (٢) استقطاب extrapolation على حد تعبير بايير Bayer ، أى أنه عملية تشـير الى الموضوع المقرر بصـورة جديدة . ويذهب التحليل من المشروط الى الشرط ؛ ولذلك كان الاستقراء عند مل اكتشافا للقانون ولعلته السببية معا . وهو لذلك استقراء لا تجميع Colligation .

ويقبل التفاضل أو التفريق Différenciation عند مل التغير الى حد بعيد ، فيكاد يقـوم منطق مل بأكمله على تحكمات التجـارب وارشاداتها . ولم تكن التجربة المقبولة لدى مل التجربة نفسها كمـا نلقاها الآن مباشرة . ولكنها على الدوام تجربة محللة (٣) على حد تعبير أنشوتس Anschutz . أى أنها التجربة التى أقيم فيها حد فاصل تماما بين العناصر الأصلية والعناصر المكتسبة . وبدا مل من أول الأمر كما لو كان ذا حكم ثابت ورأى محدد تماما بشأن هذا الحد الفاصل ، اذ اهتم بتأكيد تطور الظواهر العقلية فى طريق واحـد بعينه هو طريق التجمع أو التكوين خلال قوانين التداعى .

وليس لدى مل أى رأى بشأن العناصر الأصلية فى الشعور ، فهو لا يفسر هذه العناصر كما لو كانت ظواهر مستقرة كامنة ، ولكنه يؤكد

---

(١) ريمون : مبادىء المنطق والنقد المعاصر ص ١٥ :
Raymond (Arnold) : Les principes de la logique et de la Critique contemporaine 1932

(٢) بايير : المعرفة والمنطق منذ كانط حتى اليوم ص ٢١٣ :
Bayer (Raymond) : Epistémologie et logique Depuis Kant jusqu'à nos jours, 1954

(٣) أنشوتس : فلسفة جون استيوارت مل ص ١٢١ .

بغير أدنى جهد لشرح ألفاظه أن هذه العناصر الأصلية هي الاحساسات (فى صورة ذكريات) ، ويؤكد ايضا أن علم النفس لا يعرف أى شيء كلى سوى قوانين التداعى ذاتها .

بل ان تداعى المعانى هو عقدة المنطق بأكمله كما يقول بايير (١) ، فنجد مل يقسم البراهين الى أنواع يذهب أحـــدهما من الجزئى الى العام ، ويذهب ثانيهما عكس الأول من العام الى الجزئى ، أما النــوع الثالث من البرهان فهو الذى يذهب من الجزئى الى الجزئى .

ويسمى النوع الأول من البراهين استقراء كما يسمى النوع الثانى قياسا ، ولكن النوع الثالث من البراهين وهو الاستدلال من الجزئى الى الجزئى ـ يعبر عن الصورة البدائية للبرهان التى يشتق منها النوعان الآخران . وعلى علم المنطق أن يبين كيف تمهد هذه الصـــور البدائية للبرهان لظهور الاستقراء والاستدلال العلميين .

فجون استيوارت مل يؤكد أن الاســتدلالات تنشأ من الجزئى الى الجزئى ، ومنذ ظهور ملامح العقل الأولى يجرى مجرى العادة أن يقوم الشخص باستخلاص النتائج وتمضى سنوات عدة قبل أن يتعلم الناس فى حياتهم العادية استخدام الحدود العامة . واذا احترقت أصـــابع الطفل عند اقترابه من النار سيتحاشاها فى المستقبل ، ويكون ذلك قد استدل على شيء واستخلص نتيجة معينة دون أن يستعين بمبدأ عام فى تفكيره . كل مافى الأمر أنه يتذكر احتراق أصابعه ، وبغــير حصيلة أخرى سوى ذكرى احتراق اصابعه يكاد يوقن انه سيحرق أصابعه مرة أخرى اذا اقترب بها من النار . فصورة النار وذكرى الاحساس المؤلم بالاحتراق قد تداعيا فى ذهنه . ويكفى بزوغ أحد طرفى الذكرى حتى يبرز فى الذهن فى التو الطرف الآخر .

ويتكرر هذا فى كل مرة يحدث فيها شيء من هذا القبيل دون احتياج الى أى تعميم ، بل ان الأمر لا يتجاوز فى كل مرة الحالة الحــاضرة بالفعل ، كل مافى الأمر أن واقعة جزئية يستدل عليها من واقعة جزئية أخرى .

وينشأ عن ذلك اعتقاد مل أن الاستدلال من العام الى الجزئى ليس حالة بدائية أولية للاستدلال ، بل ينبغى أن نسلم معه بأن كل قياس يحتوى فى صورته العادية على مصادرة على المطلوب الأول .

---

(١) بايير : المعرفة والمنطق منذ كانط حتى اليوم ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

وحينما أقـــول :

كل انســـان فـــان

سقـــراط انســـان

اذن ســقراط فـــان

تكون النتيجة مفترضة فى المقدمة الكبرى ، وليست المقدمة الكبرى دليلا على صـــدق المقدمة الصغرى ؛ وعلى ذلك لا تستطيع أية عملية للاستدلال من العام الجزئى فى ذاتها اثبـــات أى شىء طالما كان من المستحيل الاستدلال من المبدا العام على صدق الوقائع الجزئية التى يفترض ذلك المبدأ العام صدقها .

وعلى ذلك يمكن القول مع مل بأن القضايا العامة تسجيلات لطائفة من الاستدلالات التى سبق اقامتها ومن العبارات القصيرة التى يلزم زيادتهـــا ، فالاستدلال يبدا أساسا من وقائع ماضية مركزة فى صيغ عامة الى وقائع جزئية تلزم عنها ؛ وعلى ذلك يكون القياس صـــورة للاستدلال من الجزئى الى الجزئى مؤيدا باســـتدلال سالف من الجزئى الى العـــام .

وتوجد فيما بين الموجودات الموضوعية خارج الشـعور تضايفات معينة فى الزمان والمكان والعدد والكيف .. الخ .. وتوجد تضايفات معينة من النوع نفسه فيما بين أفكارنا عن هذه الموجودات الموضوعية وموازية لها ولكنها مكتسبة وليست أولية أصيلة ، وهكذا تكون ازاء نوعين أو سلسلتين من العـلاقات : الأولى خارجية والأخرى داخلية أو الأولى برانية والأخرى جوانية .

وينصب موضوع المنطق على العلاقات من النوع الأول ، ولهـــذا فهو فى مستوى الرياضيات كعلم ، أى أن المنطق أحد المجالات الواقعة داخل الوجود الموضوعى . ويعبر من ثم عن ترتيبات ضرورية بين الأشياء لا بين الأفكار . واذا اهتم المنطق بالجانب « الثانى » فذلك على سبيل الاهتمام الثانوى طالما كانت الترتيبات بين الأفكار مصبوبة صبا كانها تنشأ بتتبع الترتيبات بين الأشياء ؛ فليس المنطق اذن علم قوانين الفكر بحال من الأحوال (١) .

والواقع كما قال جوستاف بيلوه Gustave Belot مترجم مل الى الفرنسية أن مل قد مزج مزجا غير موفق بين الحتمية النفسية

(١) ليار : المناطقة الانجليز ص ٢٨ — ٢٩ .

وبين الحتمية الفزيائية مما أدى الى صعوبة حل المسائل ، وفضلا عن ذلك فالقيـــاس ربط قضيتين بوساطة قضـــية ثالثة ، وتنص قاعدة القياس الثامنة والأخيرة كما عددها ليار Liard فى كتابه عن المنطق (١) على أن المقدمتين الجزئيتين لا تنتجان شيئا .

غير أن مل فضل فيما يبدو التسليم بأن سبيل المعرفة هو تجميع كل الضرورات الذاتية فى الضرورات الموضوعية على نحو ما قال فيما بعـد جونسيت Gonseth معبرا عن النفسانية العلمية المحدثة (٢) . واستشهد جونسيت حين ذاك بقول انريكيز الذى مهد الطريق أمام الاتجاه النفسانى العلمى قبله : « تتقدم المعرفة بتكوين التصورات . وليست التصورات مجرد وقائع خام ، بل على العكس نتيجة أعمـــال الذهن فى تلك الوقائع بحيث تصبح تجريدا لها » (٣) .

وهذه بالطبع لغة أحكم وأدق من لغة مل ، ولكن مل كان أسبق من جونسيت ومن أنريكيز فى تحديد معالم المنطق النفسى أو ما نسميه اليوم بالنفسانية المنطقية لمعارضة المنطق النحوى أو المنطـق اللغوى التقليدى (٤) . وكأن النفســـانية المنطقية جاءت لدى مل لتعـــارض التشكيل اللغوى للبناء المنطقى أو لتعارض المقابلة المعتادة فى المنطق بين اللغة وبين الفكر عن طريق المقابلة أو المراجعة بين وقائع الفكر ووقائع الطبيعة .

ولا شك أن النفسانية المنطقية لم تكن فى القرن التاسع عشر مجرد صدى لاتجاهات متصلة أو رد فعل للفلسفة النقدية ، أو متابعة أمينة لنفســـانية زولسر Sulzer (١٧٢٠ — ١٧٧٩) فيلسوف التنوير الجمالى ، بل يمكن من هذه الناحية أن نكتشف دورا ايجابيا أصيلا حين نعرف الدافع القوى الذى جعل مل يحدد صـــورة نفسية أســـاسية للتعبير أو للصيغة المنطقية كبديل عن الصـــورة النحوية التقليدية فى المنطق الأرسطى للصيغة المنطقية . وقد أسهم برنتانو اسهاما واضحا فى هذا الاتجاه ، غير أن مل أسبق من برنتانو بكثـــير فى تأكيد النفسانية المنطقية من هذه الوجهة لأن مل مات سنة ١٨٧٣ عن ٦٧ عاما وأصـــدر

---

(١) ليار : المنطق ص ٣٧ .

(٢) جونسيت : « ما المنطق » ص ٥٧ .
Gonseth (F.) : Qu'est ce que La logique ? 1937

(٣) المرجع السابق ص ٦٢

(٤) انريكيز : مشاكل العلم والمنطق ص ١٥٨
Enriqués (F), Les problèmes de la Science et de la logique, 1909.

كتابه عن المنطق سنة ١٨٤٣ على حين ولد برنتانو سنة ١٨٣٨ وأصـدر كتابه عن علم النفس من وجهـة النظر التجريبية Psychologie vom empirischen Standpunkt سنة ١٨٧٤ كما أصدر كتابه عن نشـوء المعرفة الأخلاقيـة vom Ursprurgsittliches Erkenntnis فى سـنة ١٨٨٤ .

وعلم النفس عنـد مل ــ آخر مرحلة تطورية بالنسـبة الى فكر مدرسـة هارتلى . ويمكن أن نجد نظريته النفسـية متفرقة فى جملة كتاباته. ولو أنه من السهل أن نعثر على معالم مظهرية أو فينومينالية لدى برنتانو من جهة ولدى كل من لوك وهيوم ومل من جهـة أخرى فان الاختلافات بين برنتانو وبين لوك وهيوم ومل كبيرة فى اطار مفهوم هذه المظهرية .

وعلى الرغم من اقبال برنتانو على وضع نظرية فلسفية لتفسير الحكم فى ضوء المشاغل النفسية فسرعان ما عدل من عناصرها المسـتعارة من علم النفس ، ولكنه يعد من هذه الناحية أخطر تأثيرا فى اتجاه التفسير النفسي للقضية (فى مقابل التفسير النحوى للقضية) من جون استيوارت مل الذى لم يؤثر عنه أى كلام حول طبيعة القضية ذاتها وفلسفتها .

وبعبارة أخرى يمكن القول ان القرن التاسع عشر قد أثار مشاكل العلاقة بين المنطق وبين اللغة بطريق غير مباشر على أثر المناقشـات والمساجلات التي دارت حول المنطق وعلوم النفس . وقد اهتم مل بأن يقوم بدور حاسم فى هذا الاتجاه ، ولكنه لم يؤثر عنه أى تحليل لطبيعة القضية ذاتها بحيث يعارض الطبيعة النحوية المأثورة ضمن تركة منطق العصور الوسطى ، وكأن مل قد تخوف من نقد بولتسانو للتفسير النفسى لطبيعة القضـايا الذى ظهر سنة ١٨٣٧ فى كتابه عن نظـرية العلم Wissenschaft Frslehre ولكنه لم يتخوف من نقد بولتسانو للتفسير النفسى لمشكلة الحقيقة ، فآثر من ثم التركيز على العمليـة الذهنية ذاتها . وأكد حقيقة لا تقبل الشك مؤداها أن العقـل البشرى مركب بطريقة تدعو الى أنه كلما الم بأفكار حسـية فعلية توفرت له القدرة على اعطاء الدليل أو البرهنة على وجود ظاهرة أخرى كان يمكن أن تحضر أمام الحواس بطريقة مشابهة فى ظروف أخرى معينة .

وبقيت هذه النقطة الخاصة بالتفسير النفسى للقضايا ذاتها الى أن جاء برنتانو من بعد فقال بها دون أن يقف وقوفا نهائيا عندها ، واستبعد بعد ذلك العناصر المأخوذة من علم النفس ، أعنى أنه استطاع التعرف على حكم وجودى مرتبط دائما بموضـوع Substrat الامتثالات ؛

وبهذا استبعد برنتانو التصور كنقطة ابتداء فى المنطق واحـــل محله الامتثـــــال Die Vorstellung ويلتزم الحكم بالامتثـــال بوصفه الفعل أو الصدور المبدئى عن الفكر ، فكان تفسيره النفسى فى صالح اكتشاف الحكم الوجودى (١) . ويمثل برنتانو مرحلة جديدة من النفسانية .

أما مل فقد ظل خاضـــعا لتأثير نظرية باركلى عن العالم الخارجى وقال : ان العالم الحقيقى الممتد الدائم أى اللا أنا هو مجرد الشكل الانطباعى بوساطة قوانين التداعى المعروفة على المفهوم أو الفكرة الخاصة بالحواس العارضة المستقاة من التجربة (٢) . وعنده أن العقـــل مهيأ للاعتقاد فى الأفكار الحسية التى يمكن أن توجد والتى توجد بالفعـــل منفصلة عن الوعى الفردى . وينحصر الاختلاف بين مدرسة مل وبين فلســـفة باركلى فى أن كل ما يسميه الثـــانى الواقع الحقيقى real صار مل يسميه الدوام Permanence ، أما فيما عدا ذلك فتكاد تكون الامكانيات الدائمة للاحساسات التى تشـــير فى نظر مل وأضرابه من النفسانيين لا الى احساسات مفردة ولكن الى احساسات متصـــلة فى مجموعات هى ما كان باركلى يسميه « الأشياء » (٣) .

ذلك أن المجموعة ككل تتقدم بنفسها الى العقـــل كشىء دائم لا فى مقابل الأوصاف المرئية الوقتية ، ولكن على الخصوص فى مقابل الطابع الواقتى الخاص بالاحساسات الداخلة فى تكوين المجموعة نفسها بوصفها ذاتا Substratum دائمـــة وراء تجارب عارضة أو مظاهر ، وهو طابع رئيسى مختلف عن الاحساس .

وتأتى فكرة السبب لتصير هى هى نفسها الامكانيات الدائمة . فالسبب عند مل هو سبب الشىء الذى يسبقه فيتلوه ذلك الشىء بطريقة ثابتة دون أى تخلف (٤) . وما يسميه مل القانون الكلى للسببية لا يعدو أن يكون تأكيدا لأهمية اتساقات التتالى من بين جميع اتساقات الطبيعة وتضمينا لكل تتال منتظم بالسبب والمسبب ؛ وعلى ذلك تنشأ فكرة السبب من التعرف على نظام محدود ثابت فى احساساتنا ، وهـــذا

---

(١) برنتانو : علم النفس من وجهة النظر التجريبية ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٢) مل : فحص فلسفة هاملتون ص ٢٢١ .

(٣) مل : فحص فلسفة هاملتون ص ٢٢٣ وراجع كتاب آير عن مشكلة المعرفة ص ١٢٢ حيث يوجه المؤلف نقدا الى نظرية مل عن الامكانية الدائمة للاحساس .

(٤) ليار : المناطقة الانجليز ص ١٨ .

النظام الثابت هو نظام التوالى بين ما سبق وما يلحق ، وأدت نظرية مل عن السببية الى استنباط ديمومة الأشياء وخارجيتها .

وعلى ذلك تصبح السببية مبدأ مبنيا فى نظرية مل على تداعى اللاحق والسابق فى نظام ثابت ، ولما كانت الأشياء موجودة بالفعل فلابد من افتراض سبب لوجودها (١) . فالسببية عند مل نتيجة معممة ابتداء من التداعى بوساطة سلسلة من التغيرات ، وتصدر فكرة التناسب بين السبب وبين المسبب عند مل عن أصل ميكانيكى ؛ ولذلك تفترض فى السبب والمسبب مقاييس رياضية منسجمة ، ويمكن قسمتها الى أجزاء متساوية ؛ ومن ثم فهى يمكن أن تطبق على التغـــيرات الكيفية التى لا تحمل ذلك الطابع (٢) .

والعقل عند مل امكانية دائمة ، انه سلسلة من المشاعر مضافا اليها الاحساسات ، أو هو نسيج من الوعى ، ومع التسليم بوجود العقـــل على هذا النحو لا نجد صعوبة فى التعرف على وجود عقول الآخرين ، يكفى أن نستدل من بعض الظواهر التى تصاحب ظاهراتنا دوما والتى نراها لدى الآخرين من حولنا . ويمكن أن نقوم بتطبيق البراهين التى نطبقها نفسها على المادة بالتساوى أيضا على العقل ؛ فليس العقل فى عمومه سوى سلسلة من المشاعر التى يمكن أن تعى نفسها كسلسلة (٣) .

وليس للذاكرة أى دور أو أى وجود على حسب قوانين علم النفس، غير اننـــا اذا رفضنا التسليم بقوانين علم النفس على حسب مفهـــوم التداعى فليس أمامنا سوى سبيل واحد وهو انكار واقعية العقل على هذا النحو الذى قلنا به والتسليم بالعقل كشىء آخر ســـوى سلسلة المشاعر ، وهذا مستحيل ، وعلى ذلك فمن الضرورى قبول وضع العقل كما هو بشأن الذاكرة . والأحكم هو أن تقبل الذاكرة بغير تفسير ، أعنى أن نقبل قانون نســـبية المعرفة البشرية وأن نسلم بالحقيقة القائمة بالفعل وهى أن العقل يجمع بين دفتيه سلسلة من المشاعر ينتمى أكبر جزء منها الى الماضى أو المستقبل ، ويقوم ذلك كله فى اطار مفهوم موحد حاضر مصحوبا باعتقاد راسخ فى الحقيقة .

ولذلك يصح أن نستخلص من ذلك مع بعض المعلقين النقـاد أن الزمن يقوم بدور هام بدلا من المكان فى ادراكنا للامتداد ؛ فنحن نتعرف

---

(١) مل : فلسفة هاملتون ص ٣٥٠ .

(٢) بايير : المعرفة والمنطق منذ كانط حتى اليوم ص ١٦٢ .

(٣) فلسفة هاملتون ص ٢٤٢ .

على الامتداد عن طريق سلسلة متصلة من الانطباعات والاحساسات العضلية الناتجة عن عبور الذراع فوق الجسد ، وتعد فكرتنا عن الامتداد مبدئيا واحدة من تتابعات الاحساسات . ويعطينا البصر علامات خاصة عن تجاربنا اللمسية المتتالية السالفة ، وعندئذ يعيننا التداعى على الاحاطة بكل الانطباعات التى كانت متتالية فى الاحساس كما لو كانت متآخية فى الفكر (١) . ولابد فى نظر مل من أجل الحصول على أقل رؤية ممكنة ــ من حركة معينة فى العين تقوم بدور المتابعة الدقيقة لحركة التسلسل الخارجى . وكذلك فى نظرية مل عن عقول الآخرين نجده يستلزم المشاركة بحركة الجسم فى الجهد الذى يصطدم بمقاومة الوجود العضوى من قبل الشخص الآخر من أجل التسليم بوجوده العقلى ، أى أن دفع الآخر باليد ومقاومة بدن الآخر للدفع خطوة لازمة لابد منها من أجل استكمال أقل تصور لعقول الآخرين ، فالسابق المباشر للاحساس فى نظر مل حالة جسدية دائما ، أما الاحساس نفسه فحالة عقلية (٢) .

وعلى ذلك يمكن أن نعثر فى نظرية مل الخاصة بعلم النفس على مايلى:

أولا : نظام خارجى للطبيعة يزود العقل بالتساوقات الأصليةالخاصة بالتجارب .

ثانيا : استمرار العقل ونشاطه اللذان يتم تلقى التجربة وتنظيمها عن طريقهما (٣) .

ومن ثم لا تكفى الملاحظة لاثبات أن كل أفكارنا المعقدة تعميم تقوم به قوانين العقل العامة . ولما كانت القوانين الأخيرة قد صارت فى متناول اليد بوساطة مناهج البحث التجريبى العادية فلا بد أن يعتمد التحقق من هذه القوانين بوصفها أعلى قوانين العقل على النجاح فى محاولة تحليل أكثر محتويات العقل تعقيدا الى نماذج ، ولما كان النجاح فى هذه المحاولة غير نهائى فقد سلم مل بوجودها كافتراضات (٤) .

ولكن مل لا يضع الصدق النهائى لهذا المبدأ موضع الشك ، فهذا المبدأ هو ما يستخدمه فى تفكيره وفى تقديره ، وليس هناك موجب للشك فيه برغم التسليم بكونه جملة افتراضات لأن التهاون فيه معناه النكوص

---

(١) مل : المرجع نفسه ص ٢٧٩ .

(٢) مل : المنطق ص ٥٥٥ (أ) .

(٣) كنيدى « جيل » : التجريبية النفسية عند جون استيوارت مل ص ٢١ .

(٤) مل : المنطق ص ٥٥٧ (ب) .

نحو المبادىء الفطرية والمبادىء القبلية ، وهو لذلك يؤمن بأن قوانين التداعى العامة تسود بين أدق حالات العقل بطريقة سيادتها نفسها بين أقل الحالات دقة (١) . ويرى أن الملاحظة العادية كفيلة باظهار ان العقول المختلفة تخضع فى مستويات منوعة لفعـــل الأسباب النفســـية نفســـها .

والمنهج النفسى قادر على أن يكشف عن تكوين الظاهرات المعقدة فى العقل بوساطة عمليات التداعى ، وقال مل انه يسمى هذا المنهج الخاص بتأكيد عناصر العقل الأصلية باسم المنهج النفسى لتمييزه من الاستبطان البسيط ، وهو هو منهج العلوم الطبيعية الأكيد المعروف معدلاً وفقا لضرورات علم النفس (٢) .

ولما عجز مل عن الكشف عن كيفية بزوع الاعتقاد فى التجربة لجأ ــ كما فعل هيوم من قبل ــ الى شعور أولى بالاعتقاد لا تفسير له . وأدى عجز مل عن تشكيل نظرية متكافئة عن الاعتقاد الى تأسيس علم النفس عنده على نتيجتين لا تفسير لهما :

الأولى الرباط بين حالات الوعى التى تكون « الأنا » .

والأخـــرى الاختلاف بين الذاكرة وبين الخيال وبين الفكر وبين الحقيقة وبين الاحساس وبين الفكرة (٣) .

ويعلق كنيدى على ذلك بقوله ان تمييز الانطباعات من الأفكار نهائى ولا تفســـير له ، انه تمييز يفترض عالما خارجيا ينهض بالانطباعات ، ونفسا تقوم بتعميم الأفكار المتكافئة (٤) . ولعلنا نستطيع الآن أن نعزو مشاكل مل المنطقية كما فعل كنيدى (٥) الى نقطتين :

١ ــ اعتقاده الراسخ فى نظرية العالم من وجهة نظر نيوتن .

٢ ــ عقيدته الراسخة فى العقل بوصفه حزمة من الحالات العارضة .

وقد علق ديوى على نظرية المنطق عند مل فقال : (لقد خضعت نظرية المنطق بانجلترا فى تاريخها المتأخر لمحاولة الجمع بين نظريات

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٨ .

(٢) كنيدى : التجربة النفسية عند جون استيوارت مل ص ٢٦ .

(٣) مل : المنطق ص ٤٠ (ب) .

(٤) مل : فلسفة هاملتون ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٥) المرجع نفسه : ص ٥٥٩ (ب) .

المنطق التجريبي وبين الاعتراف بالاجراء الخاص بالعلم الطبيعي فى نسق واحد . وقد بلغت هذه المحاولة ذروتها فى منطق جون استيوارت مل (١).

وكأنما كان موريس يفكر فى منطق مل بالذات حين أشار الى وضع علم النفس بالنسبة الى المنطق بقوله : (قد يكون مسموحا فى حرية أن يستعير المنطق بعض التوضيح الموحى من علم النفس كما هو الأمر فى البراهين الخاصة بالتناظر .. ولكن من الضرورى ألا ينظر المنطق الى البحث النفسى كمورد للبرهان الصحيح أو كمنبع للدليل الكافى لمساندة المذهب المنطقى . وقد رأينا بالفعل كيف ظل المنطق المثالى دائما متوجسا من علم النفس ، ولكن ليس على المنطق أن يظل على هذا النحو طالما أصبح واثقا من نفسه ومن تكامل بحثه الخاص ؛ فالمنطق يسعى لاكتشاف صيغ أو صور معينة داخل نطاق عملية التجربة التى تحدد بناء تلك التجربة . وليست تلك الصور بطبيعة الحال فى غير متناول الملاحظة النفسية المباشرة من حيث هى صور (٢) .

ولكن هل معنى ذلك أن منطق مل لم يكن يتداول الأفكار ؟ من المؤكد أننا نستطيع أن نستدل على اهتمامه بالمنطق من حيث هو منطق أفكار من قوله مثلا : (لاشك فى صحة أننى عند القيام بأى حكم مثل قولى — ان الذهب أصفر اللون — تحتل احدى العمليات الموازية مكانها فى عقولنا بحيث يصير بعض تلك النظريات (العقلية) ولو جزئيا تقديرا صحيحا للحقيقة . لابد لنا من فكرة الذهب وفكرة الصفرة ، ولابد من اختصار هاتين الفكرتين معا فى عقولنا) (٣) .

غير انه لم يلبث أن أوضح أن ذلك لايعدو أن يكون مجرد جانب مما يحدث فعلا لأننا قد نضع فكرتين معا بغير أدنى اعتقاد ، ولا بد لنا فى أى بحث عن طبيعة القضايا من موضوعين : تحليل حالة العقل المسماة بالاعتقاد وتحليل موضوع الاعتقاد ، ولاشك فى خطأ النظرية المنطقية التى ترى القضية كمجرد علاقة بين فكرتين متكافئتين للموضوع والمحمول . بل ان هذه أكبر غلطة فى تاريخ المنطق على الاطلاق ؛ لأنه من الضرورى بدلا من ذلك أن نرى القضية علاقة بين ظاهرتين يعبر عنهما كل من الموضوع والمحمول (٤) . وعلى ذلك قرر مل تحاشى الكلام عن الحكم وأوقف كلامه فقط على الأحكام وعلى الأشياء موضوع الاعتقاد .

---

(١) ديوى : دراسات فى نظرية المنطق ص ١٥٧ — ١٦٠ .
(٢) موريس : المنطق المثالى ص ٣١٦ — ٣١٧ .
(٣) مل : المنطق ص ٥٦ (أ) .
(٤) مل : المنطق ص ٥٧ (أ) .

ويحق لنا أن نسأل ها هنـــا : كيف نفرق بين الأفـــكار وبين الاحساسات ؟ وكيف ترتبط الأفكار باحساساتها الأصـــيلة ؟ أمـا الاحساسات فتتميز من الأفكار داخل التجربة ، لابد من اختلاف الأفكار عن الاحساسات بوساطة درجة امتلائها وقوتها فقط أى بوساطة كمية الوعى التى تحملها ، ويتضمن تمييز الاحساسات من الأفكار اعتقادا بأن أكثر تجاربنا حيوية وثباتا تنشأ عن نظام محدد للموجودات الخارجية بالنسبة الى تجاربنا نفسها (١) .

ويتعارض هذا فى الواقع مع مذهب مل الذى ينص على أن التجربة شعور Feeling ؛ فالوعى هو المشاعر ، وكل مثل من أمثـلة الوعى حالة معرفية ، فالحصول على الشعور وعى ، والوعى حصـــول على الشعور (٢) ؛ فالوعى خاصية المشاعر التى تجعلها مشاعر .

ولكن مل تلافى ذلك التعارض بسرعة حين قرر أن كل العلاقات صور من التداعى ؛ فالعقل القابل للتلقى على حد تعبير لوك المأثور ، والترابطية مبدأ تفسيرى كاف فى نظر مل بحكم كونها على حد تعبير ديوى جولة حول الأحداث المتعادلة مع المعانى (٣) .

وعلى ذلك نجد فى منطق مل نزاعا واضحا بين عنصرين أساسيين :

الأول : ينتمى الى نظرية المعرفة بوصـــفه عنصرا فكريا تجريبيا ، والآخر : ينتمى الى الأشياء فى نطاق التجربة العلمية كاجراء فعلى فى البحث ؛ ولذلك يعد هرب مل الدائم الى البرهان فى بحثه المنطقى نتيجة لأخذه بمشكلة الاعتقاد كأساس لنظريته النفسية .

وعبر فين Venn عن هذه الحقيقة فى منطق مل بقوله : (ينبغى أن نسلم بوجود ثنائية من عنصرين الأول خارجى والآخر داخلى : فمن ناحية يوجد بالخارج عالم الظواهر التى يتبع بعضها بعضا فى غـــير انحراف ومن ناحية أخرى يوجد بداخلنا العقل ذو الملاحظة والتفكير ، ويهتم المنطق بالأحكام التى تصدر عن الجانب الآخر بشـــأن الجانب الأول (٤) .

---

(١) بين : جون استيوارت مل ص ٦٢ .

(٢) جميس مل : تحليل العقل البشرى ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) ديوى : التجربة والطبيعة ص ٣٣١ .

(٤) فين (جون) : المنطق التجريبى ص ٢٢ .
Venn (John) : Empirical logic

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن المعرفة تنبنى على ملاحظة المحتوى الذهنى ، كما أن التحقق منها يتم أيضا عن طريق هذه الملاحظة . ومعناه من ناحية أخرى أن الوقائع تنتظم فى ثلاثة أصناف :

١ ـ المشاعر أو حالات الوعى

٢ ـ الجواهـر

٣ ـ الصفـات

والمشاعر أبسط أصناف الوقائع لأن المشاعر انما هى أى نوع من أنواع موضوعات المعرفة المباشرة ، وأنواع المشاعر الاضـافية أربعة : الاحساسات والأفكار والانفعالات والارادات ، ولابد أن تنتمى كل واقعة الى أحد هذه المشاعر الاضافية (١) .

وعلينا أن نحرص على عدم الخلط بين المشاعر كحالات ذهنية متميزة منفصلة وبين الأشياء الموجودة فى الخارج ؛ فالمشاعر معطيات ذهنية خالصة أو وقائع ذاتية تنبنى عليهـا الوقائع الموضـوعية والجواهر والصـفات .

والجواهر نوعان : عقلى وطبيعى أو أذهان وأجسام ، ولا تتحقق معرفتنا بها الا خلال مجرى الاحساسات . فنعزو جزءا من مشاعرنا الى الجسم كسبب غـير مدرك وهو الاحساسات على حين نعزو كل مشاعرنا الى العقل كذات مدركة (٢) .

وتنبنى الصفات على شىء فى احساساتنا أو فى حالاتنا الشعورية . وهى تنقسم الى : كيفيات وكميات وعلاقات ، ولما كان العقل كما سبق أن قلنا حزمة من المشاعر الواعية بذاتها كان الاحساس متضمنا للوعى بمشابهاته واختلافاته فيما يتعلق بتلك المشاعر ، وعلى ذلك جعل مل من الشعور بالتشابه والاختلاف شعورا ثالثا مستقلا عن الشـعور بالكيفيات أو بالكميات ، فمن الواضح أن تمييز التشابه والاختـلاف شرط من الشروط الأساسية لتحقق المشاعر ، بل فى المشاعر البسيطة ذاتها لا يمكن أن نفصل الشعور بالتشابه والاختـلاف عن المشـاعر فى ذاتها (٣) .

---

(١) راجع ص ٣٠ ـ ٣٣ من هذه الرسالة .

(٢) مل : المنطق ص ٤١ (أ) ..

(٣) جيمس مل : تحليل العقل البشرى ص ١٨ هامش بقلم جون استيوارت مل.

وكل معرفة انما هى معرفة نسبية بالقياس الى العارف نفسه ، وهذا من شأنه أن يحد مدى التجربة بمحتوى الوعى وأن يرد كل معرفة الى مضمون ذلك المحتوى . والشعور لا يعنى الا نفسه . ولما كانت كل معرفة تعتمد أساسا على علاقات الوعى الأولى فقد صارت من ثم خاضعة لقوانين التداعى الثلاثة المعروفة وهى : قانون التشابه وقانون الاقتران وقانون شدة الانطباع (١) . وتحمل هذه العلاقات خاصية جزئية كما قال لوريه . ذلك ان هذه العلاقات لا تقوم عليها وقائع الشعور ولكنها هى نفسها وقائع شعورية (٢) .

وتحمل التصورات معانى مستقلة عن الوقائع التى تشير اليها . ولكنها ليست أفكارا مجردة ، وتتداعى كل أفكارنا بلا توان مع الأشياء الماثلة العينية التى تستخلص منها ، ولكن تظل الأفكار فردية ولا توجد أفكار عامة . ويرجع التعميم الى قدرتنا على الانتباه ازاء الصفات المشتركة فى الأفكار . واذا قلنا اننا نفكر بوساطة التصورات فمعنى ذلك أننا نفكر بوساطة الأسماء الكلية أو أسماء الأصناف التى تشير الى ظواهر عينية ماثلة فى التجربة أو مقدمة الى الخيال .

ولا يتوافر المفهوم فى العقل الا اذا توافر المفهوم للعقل ، أى أن العقل لا ينطوى على المفهوم الا اذا حصل عليه العقل بالفعل ؛ فالتصورات تتطبع فى العقل بوساطة الوقائع ، انها نسخ عقلية طبق الأصل لتنظيم تجريبى بين الظواهر ، بل ان التصور طريقة لتناول الوقائع المباشرة للتجربة بوساطة الأسماء الكلية بحيث يكون لتلك الوقائع دلالة موضوعية وطابع عام لا يتوافران أصلا لديها ؛ فليس الغرض من الأسماء مجرد حمل السامع الى تصور ما نتصوره وحسب ، بل الغرض منها أيضا احاطته بما نعتقده .

وهكذا كان مل مضطرا الى أن يحمل فى طيات كلامه أسمية وواقعية معا على حد تعبير كنيدى (٣) . فقد ألزمته افتراضاته النفسية أن يجعل من المفهوم نوعا من الخيال الخاضع للرقابة ؛ اذ أن الفكرة لا تعنى فى علم النفس سوى نفسها ولا تشير بحال الى أكثر مما تعنيه كما يقول وليم جيمس (٤) .

---

(١) راجع ما قلناه ص ٤٥ من هذه الدراسة .

(٢) انظر ص ٦٧ من هذه الدراسة . .

(٣) كنيدى : التجريبية النفسية عند جون استيوارت مل ص ٣٧ ، وانظر كذلك تعليق مل على هامش ص ٢٨٩ من تحليل العقل البشرى لوالده جيمس مل .

(٤) وليم جيمس : مبادىء علم النفس - جزء أول ص ٤٧٠ .

وتعبر القضايا عن علاقات بين الأشياء طالما كانت الأسماء أسماء أشياء . ومن المستحيل استقاء الحكم بالتجريد من الاعتقاد ، فالحكم تأكيد أمر متعلق بالأشياء . ليست القضايا تقريرا خاصا بأفكارنا عن الأشياء ولكنها تقرير يتعلق بالأشياء ذاتها .

ولا تعدو قوانين الفكر أن تكون تعميمات من التجربة . فكل تجربة نتيجة تداع ، ومن ثم فـــكل قضية تكون كلية اذا كانت وليدة تداع توافقى متسق ، وتكون القضية ضرورية اذا نشأت عن تداع لا يقبل التحلل . ومشكلة علم المنطق الوحيدة هى اظهار كيفية اثبات القضايا ؛ اذ تثبت القضية أو الواقعة اذا اعتقدنا صدقها بفضل واقعة أو قضية أخرى تنسلخ منهــا .

ولا شيء يؤدى الى امكان الاســـتدلال سوى الحواس والتداعى ؛ فالحواس من شأنها ادراك ارتباط واقعتين ، والتداعى هو القانون الذى توقظ احدى فكرتى الواقعتين الأخرى وفقا له ، والاستدلال هو ترجمة « النزوع الى الاعتقاد » الى عملية منطقية (١) .

واذا صح هذا كان مل متناقضا مع نفسه بشأن الاعتقاد لأنه صار يأخذ بالنظرية التى استبعدها سلفا برغم تحذيره بأنه لا يوجد أى تناقض فى كلامه (٢) ، بل ويمكن من ثم صياغة قوانين التداعى النفسى من جديد على شكل بديهيات منطقية . فيمكن مثلا وضع قانون التداعى الثانى (٣) على شكل بديهية منطقية مثل : (اذا تآنى شيئان مع شيء ثالث كانا متآنيين) . ويمكن أيضا النظر الى أوضاع النظام الضرورى فى التجربة كتعبير آخر عن قوانين التداعى .

وتدخل مادة الواقع الحقيقى فى مضمون القضايا عامة لامكان التعبير عن أية واقعة فى حدود الصفات الكلية ؛ فمن أجل المحافظة على تجريبية المنطق صعد مل من مذهب الترابطية على حد اقول كنيدى مستخدما فكرة الصفات كتشابه بين المشاعر ليغرس عنصرا كليا لا يمكن توافره ولا يمكن تقديمه كمعطى فى أى جزئية بسيطة . ومن أجــل الاحتفاظ بنظريته عن التجربة فى ثنايا أهداف الاستدلال التزم العلاقات الموضوعية الكلية فى منطقه .

---

(١) مل : المنطق ص ١٠٤ (أ) ، ٤٣٤ (ب) .

(٢) مل : المرجع نفسه ص ٤٣٤ (ب) هامش وفلسفة هاملتون ص ١٨٠ .

(٣) راجع ص ٥٣ من هذه الرسالة .

وهكذا نجد مل يمضى تحت تأثير الفكرة التقليدية التى تنص على أن العلم ــ أساسا ــ برهان . وتوقع كل من بيكون ومــل أن يعطى الاستقراء يقينا . واذا أخطأ الاستقراء كان الاستدلال عليه من البراهين الأولى غير مشروع (١) . ولهذا فقد أراد ديوى أن يؤاخذ مل من هذه الناحية حين قال ــ وهو محق تماما فى قوله ذاك ــ : (قد يملك الصدق يقينا عمليا أو أخلاقيا سلفا ، ولكنه لا يتخلى اطلاقا من ناحية المنطق عن صفته الافتراضية) (٢) .

وبعد فهذه هى النفسانية المنطقية عند مل ، أو بتعبير مرادف هذه هى نظرية المنطق عند مل ، وقد توخينا فى دراستها منهجا يقرب وجهاتها وجوانبها من القارىء بصورة تلائم جدة البحث التى قد تبلغ عند البعض مبلغ الغرابة ؛ لأن هذه أول دراسة كتبت عن نظرية المنطق عند مــل ، وأول دراسة أيضـــا عن نفسانيته المنطقية بخاصة وعن النفســانية المنطقية بعامة .

ولا شك أن الكثيرين أشاروا الى استخدام مل لعلم النفس فى منطقه وانحيازه الى جانب أصحاب التفاسير النفسية للمنطق ، ولكن أحدا لم يدرس من قبل نظريات مل النفسية بوصفها نفسانية منطقية وبوصفها أيضا ــ وهذا هو المهم ــ نظرية فى المنطق (٣) . ولم يخصص أحد بحثا للكشف عن علم النفس عند مل كمرحلة من أهم وأخطر مراحل النفسانية المنطقية فى صورها المختلفة وكأهم وأبرز جانب فى منطق مل طالما كان من الممكن فى العصر الحاضر التخلى عن الاستقراء وعن الاســـتدلال فى منطقه كما سبق القول .

ولذلك فقد شئنا أن نقوم بذلك كله فى هذه الدراسة بحيث نستوعب كل اللمحات والشذرات التى أثيرت فى هـــذه القضـــية داخل كتاب شامل ليصبح أول دراسة من نوعها فى هذا الباب .

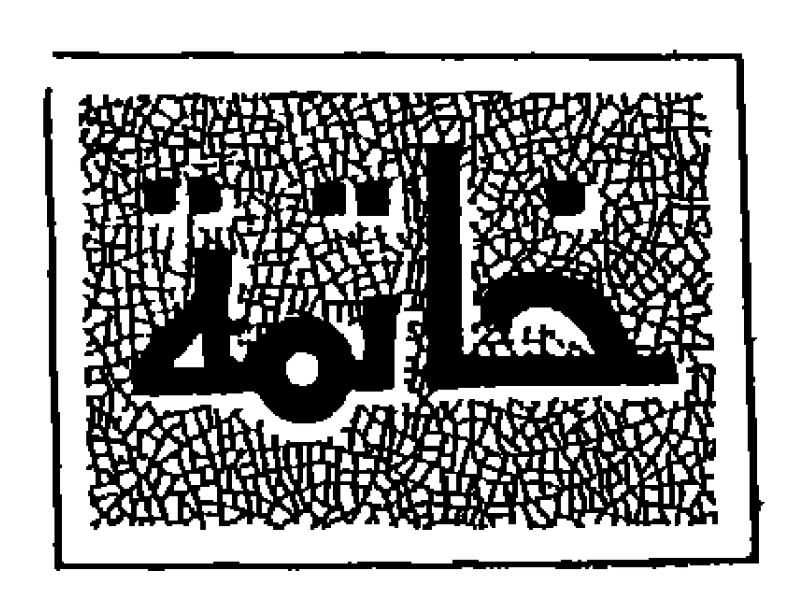
ولا يعنى هذا تأييده ولكنه يهـــدف الى اكتشاف مل الحقيقى مع التسليم بأهميته المرحلية ورفضه فى النهاية كاتجاه .

---

(١) ريتشى : المنهج العلمى ص ٨٤ .

(٢) ديوى : التجربة والطبيعة ص ١٥٤ .

(٣) يقول مل : « ويمكن اجمال مشكلة منطق الاستقراء فى مسألتين : كيف يتم تأكيد قوانين الطبيعة ؟ وكيف ــ بعد تأكيدها ــ يكون تتبع نتائجها » ص ٢٠٨ (أ) طبعة سنة ١٩٥٢ (لندن) .



النفسانية المنطقية في التطور الفلسفي

من المؤكد أن البحث الفلسفي المعاصر أو الموقف الفكرى العام لم يعد فى صالح النفسانية المنطقية ، بل لا شك فى أن الفلسفة استطاعت اليوم أن تتجاوز النفسانية المنطقية ، ويؤكد هذه الحقيقة أستاذنا الراحل موريس ميرلوبونتى عندما يقول : « يواجه المجال المظهرى (على نحو ما اكتشفناه فى هذا الفصل) التفسير المباشر الشامل بصعوبة من حيث المبدأ · لا شك فى أنه قد تم تجاوز النفسانية المنطقية ، ولم يعد معنى المدرك وبناؤه فى رأينا هو النتيجة البسيطة للأحداث النفسية الفسيولوجية ، كما أن العقلانية ليست نهاية سعيدة للتوفيق بين مجموعة من الاحساسات المشتتة وصار معترفا لعلم نفس الصيغة (الجشتالت) بأنه ذو أصالة » (١) ·

ويؤيد جان بياجيه هذه الحقيقة الهامة . ونحن نعرف أن بياجيه صاحب موقف معين من المنطق الحديث المعاصر بصوره البديهية والفاعلية . وبرغم اهتمامه بتأكيد وضعية جديدة لعلم نفس الفكر لم يستطع الا الاعتراف بانتهاء مرحلة النفسانية المنطقية كوسيلة تجريبية لربط الفكر بالواقع . ويقول : « لم تعد التجريبية بصورتها فى التداعى الخالص تقبل التأييد الا لدى طائفة من المؤلفين ذوى النزعة الفسيولوجية بخاصة ، وهم الذين يعتقدون أنه من الممكن ارجاع الذهن الى بعض أنواع السلوك المشروطة » (٢) .

---

(١) موريس ميرلوبونتى : ظاهرية الادراك ص ٧٣ — ٧٤ ·

Maurice Merleau-Ponty : La phénoménologie de la Perception, Paris, 1945.

(٢) جان بياجيه : علم نفس الذهن — ص ٢٣ ·

Jean Piaget : La psychologie de l'intelligence, 1952.

ومن الواضح على حد تعبير جان بياجيه أن المنطق قد تحول الى حساب بديهيات بقدر ما تخلى عن عدم التحدد اللغوى الكلامى من أجل انشاء لوغاريتمات ذات صرامة ودقة معادلتين لصرامة ودقة اللغة الرياضية تحت اسم المنطق الرياضي . ونحن نعلم الى أى حد من السرعة من ناحية أخرى برزت هذه التقنيات فى أقسام الرياضيات التى هى أكثر عمومية بحيث حاز المنطق الرياضى اليوم قيمة علمية مستقلة عن الفلسفات الخاصة لكل من مناطقة الرياضيات (الأفلاطونية عند رسل أو الاسمية عند حلقة فيينا مثلا) . ولما كانت التفسيرات الفلسفية ذاتها لا تؤثر فى تقنية المنطق الداخلى فهذا يدل فى ذاته فضلا عن ذلك على أن هذا الجانب قد بلغ مستوى حساب البديهيات ، وصار المنطق الرياضى نموذجا مثاليا للفكر .

وبناء على ذلك تكون العلاقات بين المنطق وعلم النفس قد تبسطت ؛ فالمنطق الرياضى لم يعد فى حاجة الى اللجوء الى علم النفس طالما لم تعد مسألة الواقع تتدخل اطلاقا فى نظرية الوصل الاستدلالى . وسيكون من العبث على العكس استدعاء المنطق الرياضى من أجل الحسم فى مسألة تتصل بالتجربة مثل الآلية الحقيقية للذهن (١) .

واذا كان ذلك رأينا أيضا فيما يتعلق بالنفسانية المنطقية .. فلماذا قدمنا اذن هــذه الدراسة ؟ الواقع أنه يمكن تجديد موقف النفسانية المنطقية اذا حاولنا النظر فى خطوات دراستى بهذا الصدد . اننى أتمسك حاليا بموقف علمى فى أصول المنطق هو تأييد للمعنوية المنطقية . وفى الوقت الذى يندفع فيه الكثيرون نحو دراسة نظرية المعرفة ومناهج البحث باعتبارهما فرعى المنطق الأساسيين أجد نفسى أتمسك بالنظر الميتافيزيقى ، وأشعر بالرباط المتين الذى يقيد علم المنطق بالبحث فيما وراء الطبيعة ، أى أننى بعبارة أخرى أشعر الآن بالتجربة الضخمة التى مررت بها حتى أصبحت أحس بحاجة المنطق الأصيلة الى ميدان معنوى بحت من أجل اقامة كل دعاواه وتسجيل أوجه نشاطه (٢) . ولا أود أن أجادل فى أهمية أفرع المعرفة ومناهج البحث من حيث هى علوم جادة ، لكننى أود أن أقرر بهذه المناسبة أن علم ما وراء الطبيعة هو ألصق العلوم بالمنطق بوصفه المجال الحيوى بالنسبة الى طبيعة المنطق

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩ ــ ٤٠ .

(٢) راجع هذا الموقف بالتفصيل فى كتاب موريس عن المنطق المثالى ص ٢١٥ وانظر بشأن علمية الميتافيزيقا كتاب هوسرل عن الميتافيزيقا كعلم صارم .

واحتياجات الفكر الى الاجتياز ، فمن وجهة النظر هذه أستبعد خلو المنطق الرياضى من الميتافيزيقا .

واذا كان الأمر كذلك فالمبرر الوحيد لهذه الدراسة هو اعطاء الفرصة للنفسانية المنطقية لكى تلفظ آخر ما عندها من كلمات . لقد قمت من قبل بدراسة مشابهة عن الأسس التحليلية والتجريبية فى منطق الوضعية المنطقية بقصد سماع آخر أقوال الوضعية المنطقية فى قضية نظرية المنطق وصعدت من تلك الدراسة الى دراستى الحالية عن النفسانية المنطقية عند جون استيوارت مل ، ثم مررت بكل أطوار نظريات المنطق المشوبة باتجاهات ذات طابع تفسيرى معين ، وكأنما أردت دائما أن أدرس الاتجاهات المعارضة من أجل الوصول الى غايتى العلمية وهى الظاهرية المنطقية البحتة .

وهذا الموقف المسلسل فيما أعتقد سليم علميا ، أعنى الدراسة يجب أن تتعلق دائما بالجانب المعارض لا بالجانب المؤيد ، ولا بد أن يمر الباحث بوجهات النظر المعارضة اما كى يحاول اكتشاف صعوبات الموقف الذى يريد تأييده والتمسك به ، واما كى يبين زيف وجهات النظر المعارضة أولا فأولا ، أو بعبارة أخرى يعين التسلسل مع أوجه النظر المعارضة بوصفها امكانية مستمرة لاكتشاف الأخطاء الذاتية من جهة ، ولاكتشاف عيوب المعارضة من جهة أخرى .

وهذا بالفعل هو ما قمت به حتى وصلت اليوم الى أعتاب الظاهرية المنطقية البحتة ، ولا يعنى ذلك أننى أقصر فى دراسة وجهات النظر المعارضة ، بل على العكس أحاول دائما أن أكشف أقصى الآماد التى بلغتها نتائجها . وهذا دليل على أننى أعطى الأفكار المقابلة أهمية تعادل اهتمامى بفلسفات من أتشيع لهم . والقدرة على التشيع تصبح جدلا أعمى اذا جهلت أفكار المعارضين لأنها ستصبح دليلا على العجز عن مجاراة الأنصار .

ولم أشأ بلوغ الظاهرية المنطقية من أقصر طريق ، انما عمدت الى الخطو مرة بعد مرة خلال الفلسفات الاسمية والواقعية حتى أحقق لنفسى أقصى ما يتمناه الباحث من الوسائل لادراك حقيقة موقفه ، واذا كنت أعمد اليوم الى اكتشاف أصول النفسية المنطقية فانما أقوم بهذا الدور من أجل اكتشاف جذورها برمتها ، وأحاول من ثم التطلع الى الخطوات التى تلت النفسانية المنطقية ، ولا تعدو قيمة هذه الأبحاث جميعها أن تكون وقوفا عمليا على كل لبنات الفكر المعاصر فى نظرية المنطق ، وأن تكون أسلوبا جديدا فى الافادة من آراء المعارضين لاتقاء

الوقوع فى نفس الأخطاء وعدم التدرج فى التعصب المذهبى الى حد الجدل الأعمى ، فانما ميزة العمل العلمى المتصل هو الوعى الأصيل .

بقى أن نشير الى أننى كنت أود أن أتقدم أيضا بدراستين تمضيان فى الخط نفسه ، احداهما عن منطق جان بياجيه النفسى ، والأخرى عن منطق بواريبه العضوى بوصفهما لونين من المنطق الذى يقف موقفا معينا من مشكلة الفكر والمنطق . وقد أديت شيئا من هذا الواجب فى بحث نشرته عن نظرية المعرفة الناسلية فى أواخر عام ١٩٦٤ بالقاهرة (١) ، ولكنه لم يكن يتعلق بنظرية نفســـانية الفكر عند بياجيه على النحو المنطقى الملائم .

فهذا كله من شأنه أن يمهد للنظر فى قضية المنطق اليـــوم على أساس علمى سليم متكامل ، ويحملنا أيضا على التعرض لحقيقة الموقف الفلسفى الجديد المستند الى أصول التصورية الرياضية الصحيحة . وهو الموقف الذى يمثله من وجهة النظر الفلسفية ادموند هوسرل ، ويحققه من وجهة التجريبية ويلاردفان أورمان كوين ، ويدين الفـــكر الفلسفى المتمسك بأصوله الحقيقية لهذين المفكرين بأكثر من مجـرد التضامن المذهبى ، انه يدين لهما بتشييد حقيقة النظرية المنطقية فى عالم الفكر الفلسفى المعاصر من جديد .

واظن أن الاقدام على دراسة الموضوعات من حيث تسلسل العقبات التى تفرضها على الموقف النظرى الأصلى انما هو أصح طريقة للتثبيت فى مضمار العمل المنتظر ، أعنى أن الاقبال على تذويب الصعوبات عن طريق عرض الآراء المقابلة أو المعارضة هو أسلم الخطوات العلمية ؛ ولهذا السبب عينه اخترت موضوع النفسانية المنطقية عنـــد جون اســـتيوارت مل كتمهيد لدراسة مستقبلة لمنطق برادلى ، وللعروج بعد ذلك على نظرية المنطقية البحتة عند هوسرل .

ذلك أن منطق برادلى انما هو فى الواقع رد فعل قوى بالنسبة الى منطق جون استيوارت مل ، أو بعبارة أخرى ان منطق برادلى انما هو رد فعل مخلص بالنسبة الى منطق مل ، وبرغم ذلك فقد بقى دور علم النفس ملحوظا فى منطق برادلى ذاته ، اذ أن علم النفس أدى دورا أساسيا وهاما لدى الفلاسفة الانجليز حتى اليوم ، وفضلا عن انحياز الفلاسفة

---

(١) عبد الفتاح الديدى : فصل نظرية المعرفة الناسلية فى كتاب الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة ص ١١٢ . وانظر بحثا عن بياجيه فى القضايا المعاصرة فى الفلسفة ..

الانجليز العام الى النفسانية فى حقل الفلسفة فقد كان علم النفس هو الشاغل الأكبر لمعظم مفكرى القرن التاسع عشر . ويمكن أن نقول مع فيندلباند Windelbald أن التغيير الجوهرى فى علاقات العلوم بعضها ببعض خلال القرن التاسع عشر هو التقدم المستمر فى عملية الفصل بين علم النفس وبين الفلسفة حتى صار ذلك مبدأ ثابتا نهائيا (١).

ولكن استمرار الاهتمام بعض الشىء بعلم النفس لدى الفلاسفة الانجليز خاصة من بين الفلاسفة الأوربيين لا يعنى اطلاقا أن انجلترا قصرت فى الفصل بين العلمين ؛ كل مافى الأمر أن علم النفس كان فى القرن الماضى قد بلغ مرحلة عالية لدى الانجليز ، وأدى ذلك الى اشتغال الفلاسفة بالعلوم النفسية على أساس الاستئثار بالنتائج الكبيرة التى كانوا قد وصلوا اليها ، ولو أننا رجعنا الى ريبو فى هذا الشأن لوجدناه يقرر أن علم النفس لدى الألمان كان ضئيلا مضمحلا خلال القرن التاسع عشر وأنه كان محصورا فى نطاق ضيق على حين كان مجال علم النفس أكثر اتساعا وأكثر رحابة لدى الانجليز (٢) ؛ ومن هنا كان اقبال الفلاسفة الانجليز بصورة تقليدية على تناول الموضوعات النفسية كبيرا (٣) .

وتعد فلسفة برادلى أساسا فلسفة تجربة ، والحقيقة الواقعة عنده هى موضوع الشعور ، وتحتل الاعتبارات النفسية عنده مكانة كبيرة ، ويجب أن يعالج علم النفس بروح مظهرية (فينومينية) بحتة وأن تسمع أقوال علم النفس أولا طالما كان موضوع علم النفس هو التجربة المباشرة (٤) .

وقد قاده هذا الفهم الى الاعتقاد بأن طبيعة الحقيقة الأساسية

---

(١) فيندلباند : البحوث النفسية المعاصرة (سنة ١٨٧٦) .
W. Windelband : Über den gegenwärtigen Stand des Psychologischen Forschung.

وكذلك كتابه عن تاريخ الفلسفة ص ٥٤٧ مؤلف سنة ١٨٩١ .
Lehrbuch der Geschichte der Philosohpie, 1957.

(٢) ريبو : علم النفس الالمانى ص ١١ من المقدمة :
Ribot (Th.) : La Psychologie Allemande. Introduction, p. xxi, Paris, 1879.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠ من المقدمة .
(٤) جان بوسيل : المثالية فى انجلترا ص ١٩٢ .
Jean Pucelle : L'Idéalisme en Angleterre, 1955.

لا تعدو أن تكون تجربة مباشرة تماما ولكنها غير موضوعية (١) ؛ والسبب فى ذلك هو أن الرابطة القوية الخاصة بالطريقة القائمة على العلاقات فى التفكير انما تنشأ من اتساق الفكر مع نفسه ، وينشأ ذلك الاتساق الذاتى من داخلية العلاقات التى تكون ماهية العملية أو التجربة فى كل مكان وعلى الدوام (٢) . وأصبح برادلى متمسكا بموقف صريح هو أن التناقض يتبدى بوضوح أكثر فى التراجع اللانهائى الذى يسوقنا اليه المظهر ؛ وبذلك يصبح عدم التناقض مقياسا للحقيقة (٣) . فى الفلسفة وفى نظر الفلسفة يكون الصدق فى النهاية حقيقيا أو صادقا لأننى أطلب شيئا معينا ولأننى أتصرف بطريقة معينة ، ويمكن أن نقول : ان المقياس فى آخر الأمر ينطوى على سلوكى واختيارى (٤) .

ومنطق التفكير هو ذلك الذى يتضمن فردية التقدير للصدق والحقيقة ، وهو الذى يتسلسل تبعيا لا مبدئيا وفقا لضرورات القاعدة. وقد تضمنت فلسفات برادلى كل ما يسمح بمعارضة فلسفة جون استيوارت مل ؛ اذ تضمن كتابه عن المنطق عداء صريحا للنفسانية المنطقية كما تضمن كتابه عن المظهر والحقيقة نقضا للشك عن طريق اثبات المطلق ، وكذلك تضمنت دراساته الأخلاقية هدما لمذهب اللذة الأخلاقى (٥) . غير أن ذلك كله لم يمنع برادلى من التأثر بنظريات نفسية كثيرة كما قلنا . ويعتقد شيلر أن برادلى وقع فى غلطة أساسية بهذا الشأن وهى غلطة التمسك بالرأى القاطع فى استحالة اقامة العلاقات بين علم النفس وبين المنطق . ولم تكن الحل صائبا حينما التمسها برادلى فى نظرية ميتافيزيقية تنكر الشكل العلائقى فى الفكر من حيث هو فكر (٦) .

---

(١) استانلى فكتور كيلينج : طبيعة التجربة عند كل من كانط وبرادلى ص ١٢٦.
Stanley Victor Keeling : La nature de l'exrérience chez Kant et chez Bradley.

(٢) شيرش : نظرية هيوم فى الفهم ص ١٨٤ .
Church : Hume's theory of understanding, London, 1935.

(٣) ستانلى فكتور كيلينج : طبيعة التجربة عند كل من كانط وبرادلى ص ٧٨.

(٤) برادلى : ابحاث عن الصدق والحقيقة ص ٢٦ .
F.H. Bradley : Essays on Truth and Reality, Oxford, 1944.

(٥) براند بلانشارد : فرانسيس هربرت برادلى : صحيفة الفلسفة : العدد ٢٢ رقم ١ فى يناير عام ١٩٢٥ ص ١١ .

(٦) شيلر (ف . ك . أ . س) : أصل الشك عند برادلى فى مجلة مايند عام ١٩٢٥ ص ٢٢٠ (ملحوظة باسفل الصفحة) .
The Origin of Bradley's scepticism by F.C.S. Schiller in Mind 1925, p. 220 (note).

ولوحظ بعد ذلك أن علم النفس كان دائما مسوغا لدى الوضعيين فى هجومهم على المنطق كما قال كولينجوود (١) ؛ لذلك انصب اهتمام الفلاسفة المشتغلين فى حقل المنطق فيما بعد على أن يركزوا نظراتهم على هذه الناحية من أجل اكتشاف خفايا التفسيرات النفسية . واذا كانت النفسانية المنطقية تدعى أن الفيلسوف وفكره ليسا سوى الاعيب كالعرائس التى تشد بالأحبال والخيوط الخلفية ، وأنهما مجرد آليات نفسية أو تاريخ خارجى شكلى .. اذا قالت النفسانية المنطقية ذلك ـ يمكن الرد عليها بأنها لا تعدو أن تكون الشيء نفسه اذ أن النفسانية المنطقية بحكم كونها نتيجة نظرية تستحيل هى نفسها الى شكية راديكالية: شكية فيما يتعلق بها هى ذاتها .

وحاول هوسرل أن يقف فى وجه أمثال هذه التيارات ، وجعل مهمته الأصلية هدم هذه النظرات . وقد نجح هوسرل فيما لم ينجح أحد فيه من قبل ، وأعنى به استرجاع الثقة واعادة تثبيتها واعادة تثبيت أساليب الفصل بين الصواب والخطأ ؛ اذ أن علم نفس التفكير يتطلب عادة أن يتعلق الصدق والخطأ المنطقى بكل فكر نسبى فى كل مستويات العقل البشرى . ويشايع علم نفس التفكير المنطق من حيث هو ثمرة العقول والأفهام بأنواعها ، غير أن الحيوان والطفل والأبله يدركون ويعرفون على طريقتهم وان كانوا بغير شك لا يتمثلون الأشياء على نحو ما يتصورها الرجال أو يتخيلونها بفضل معاونة الحواس والملكات العليا التى لا يملكها الحيوان والطفل والأبله (٢) .

وقد وضح مل هذه النقطة توضيحا كافيا فى كتابه عن المنطق حين قال : « لا يعنى المنطق بالآراء المزيفة التى اعتاد الناس الاحتفاظ بها . ولكن يعنى المنطق بالطريقة التى يتبعونها للاحتفاظ بها ، ولا تتعلق المسألة بالسؤال عن أى الحقائق افترضت خطأ فى أى وقت لتكون اثباتا لبعض الحقائق الأخرى ، وانما تتعلق بأية خاصية فى تلك الحقائق أدت بأى شخص الى الأخذ بهذا الافتراض الخاطىء » (٣) .

---

(١) كولينجوود : بحث فى الميتافيزيقا ص ٤٣ .

Collingwood (R.G.) : An Essay on metaphysics, 1940, eh. xiv.

(٢) كورنوه : أسس معرفتنا . ص ٢٠ .

Cournot : Leş fondements de nos Connaisances, p. 20, Paris, 1851.

(٣) مل : المنطق ص ٤٨٢ (ب) الطبعة الانجليزية .

وتنبه رويس الى هذا الموقف فأشار الى أننا لا نحصل على الفئات الا بفضل الأشياء المدركة كأفراد متوحدة ، ولا نستطيع أن نعرف أى علاقات بدون أصناف أو فئات . وبدون علاقات لا نستطيع أن نحصل على أى مستوى نظامى أو على أى نظام . والأقرب الى المعقول هو أن ندرك النسق النظامى سواء كان واقعيا أو مثـــاليا ؛ ومن ثم فنحن فى حاجة مطلقة الى المنطق من أجل ادراك الأشياء الفردية بوصفها عناصر نظامنا النسقى المثالى (١) .

وجاء هوسرل بعد ذلك فكان منبع أصـــالته الحقيقية أنه أوجـد ما نسميه الآن بالمنطقية البحتة كأســاس علمى للنظر المنطقى فى مقابل النفسانية المنطقية مؤيدا وجهة النظر الجديدة المغايرة لما كان شائعا من قبل ؛ فجرد بذلك كل مذهب وضعى من سلاحه الذى اعتاد اشهاره فى وجه الفلسفات الأصيلة وفى وجه المنطق كعلم مستقل . والمنطقية البحتة كما يحدد معالمها هوسرل هى الموقف الذى يؤكد وجود مجال للحقيقة بعيدا عن سلسلة الأسباب والمسببات النفسية والاجتماعية . ومجــال الحقيقة ذاك هو مستوى الفكر بالمعنى القصدى الذى يلامس الفيلسوف فيه الحقائق الأصيلة .

أو بعبارة أخرى : لابد من اتمام عملية التفكير على نمط غــير نمط الارتباط بالأشياء ارتباطا حدسيا يعتمد على مجرد السرد الوصــفى ، هذه نقطة الاختلاف الأساسية بين ما هو منطق وماليس بمنطق ؛ اذ أن النقطة الأساسية فى منطق مل هى القيام بعمليات الاستدلال من مكونات شيئية .. أعنى أن تمثيل الأشياء ضرورى لأداء العمليات الاستدلالية ذاتها .. وهــــذا يناقض أول موقف فى مفهوم المدرك البصرى والمدرك الكلى عند فلاسفة المنطقية البحتة ؛ اذ أن الادراك هو ابادة شيئية اللفظ فى المنطقية البحتة . وهنا .. هنا فقط .. عند أعتاب البحث الأولى تفترق صفوف علماء المنطق عن الصفوف الأخرى فى مضــــمار البحوث والدراسات .

ولا نستطيع أن نختم هذه الكلمات قبل أن نشير الى ارتباط عملية التفكير باســتخدام المنطق ذاته كعلم ، وعلى الرغم من تسليمنا المبدئى بضرورة التخلص من النفسانية المنطقية لانعدم اليوم من المناطقة الرياضيين من يستبقى معناها على الأقل ويفترض دراستها كأرضية أولية فى البحث .

---

(١) رويس : مبادىء المنطق ص ١٠٧ .
Royce (Josiah) : Principles of Logic, 1913.

اذ تتأثر استعمالات المنطق عامة بتعقيد الأشياء التى تتعلق بهـــا استعمالاته والتى لا تتبين الا بالانتباه الشديد ، كما أنها تتأثر بعواطفنا الوجدانية التى تتدخل فى العمليات ذاتها وتبث فيهـــا عناصر غريبة ، ولا شك أن استعمالات المنطق تتأثر أيضا بصفة خاصة بالثقافة الفردية أو الجماعية التى يتمتع بها مستخدمو المنطق ٠

ولذلك نستطيع أن نذهب الى حد التسليم بوحدة العقل اذا سلمنا مبدئيا بأن الأغراض النفعية المباشرة قد تؤدى الى تنوعه خلال استعمالات المنطق المختلفة ، أعنى أننا لو سلمنا مبدئيا بأن العقل ذو طبيعة واحدة ويخضع لقوانين ومبادىء واحدة فلا مندوحة من أن يتعارض العقل حتى مع نفسه خـــلال الاستعمالات المختلفة اذا اصطدمت بالمنافع وبالأهواء وبالأدوات المحلية أو البيئية وبالظروف الشخصية أو بالمنحنى الفكرى ٠

وهذا يفسر اختلاف نوعية الذكاء بين الشعوب البدائية والأطفال وبين العناصر البشرية الراقية والأفراد المشتغلين بالفكر . ولعله يفسر أيضـا اقتضاء النزوع نحو تيارات عقلية متعارضـــة لمجرد المزاج الشـــخصى أو الهوى النفعى ، ولكننا اذا شئنا اعتبار العقل جوانيا كوحدة مستقلة عن كل هذه الاعتبارات ، وافترضنا ثانوية هذه المؤثرات الظرفية والبيئية — وجب علينا دراسة كل هذه المؤثرات كعوامل متغيرة وتخصيص بحوث كاملة لها حتى تتبين وحدة العقل ان كانت له وحدة من خلال هـــذه البحوث . وقد كان هذا هو شاغلى فى كل الدراسات المنطقية التى قمت بها عن النفسانية المنطقية عند جون استيوارت مل ، وعن منطق التفكير عنـــد برادلى ، وعن الأسس التحليلية والتجريبية فى منطق الوضعية المنطقية المعاصرة ، وعن ظاهريات الفكر عند هيجـــل ، ونظرية البحث العملى عند ديوى .

ومن أجل الاستغناء عن الدخول فى مناقشـــات جزئية فرعية نعفى انفسنا أيضا من النظر الى تنوعات المنطق بوصفهـــا تنوعات جوهرية ، ونفترض من ثم كون العقل وحدة حقيقية .

وكان أرسطو قد أيد هذا الفرض بوصفه حقيقة أصلية ، فاذا عبر الناس فى لغتهم وكتاباتهم عن أفكار منوعة لم يكن ذلك دليلا على تنوع العقل نفسه ؛ فالعقل برغم تباين تعبيراته اللفظية هو هو لدى كل الناس، ولكن لاشك أن العقل الحديث أشد وعيا بالاشكالات من العقول التى عاشت فى العصور السابقة ، ولاشك أيضا فى أن العقل قد أضاف الى قدراته وقواه خبرات جديدة منوعة تجعل من المستحيل أن نسلم بكون العقل

هوهو خلال العصور ، ولكننا ملزمون بالتسليم بوحدة العقل كفرض أولى كى نتلاءم مع مقتضيات المنطق الرمزى الحديث .

ومن شأن الفكر البدائى أن يتلمس الأشياء ويتحسسها خلال عملياته الاستدلالية والاستقرائية على السواء ، من شأنه أن يظل متعلقا بالأشياء ذاتها حتى يكون نسقا شبيها بنسق الفكر ، ولكن تبين أن للفكر الرياضى خاصية مباينة لخواص الفكر الطبيعى ، وهى أن الفكر الرياضى يمتاز بالدقة والصحة فى كل الاستدلالات التى يطبقها على الأفكار الرياضية ، ومن ثم نشأ اندماج بين الفكر الرياضى وبين الفكر كفكر لكى يستفيد من هذا الامتياز الظاهر فى طبيعة الاستدلال الرياضى .

ولهذا السبب يمكن أن نقول ان أول آثار الفكر المنطقى الواعى هى المقتطعات الرياضية المحفوظة عن السابقين على سقراط ، ولكن على الرغم من اكتمال نسق تام فى عصر أرسطو من كل العمليات المنطقية عنـــد الايليين والسوفسطائيين والتوليد السقراطى وأساليب التحليل والجدل الأفلاطونيين فقد كان الفضل أولا وآخرا لأرسطو شخصيا فى استخلاص الفكر المنطقى ذاته من كل المشاغل النفعية والتطبيقية المباشرة فى عصره.

وعلى الرغم من وضوح معنى الصورية عند أرسطو فقد ظل مخلصا لفكرة المحافظة على لقاء المنطق مع الواقع الحقيقى وتجاوبه معه ، وظل هذا التجاوب بين المنطق وبين الواقع الحقيقى مشكلة الفكر المنطقى بعد أرسطو ابتداء من الرواقية حتى آخر القرن الماضى ، ونستطيع أن نقول عابرين : ان المشكلة قد اتضحت جوانبها على الأقل بظهور نوعين متقابلين من المنطق : وكان المنطق الأول خاصا بجون استيوارت مل فى كتابه عن نســق المنطق ، كما كان المنطق الآخر خاصـــا بدافيد هيلبرت Hilbert فى كتابه عن مبادىء المنطق النظرى .

ونحن نخص هذين العالمين بأكبر اهتمام فى توزع قسمى المنطق الى صورية بحتة عند هيلبرت والى شيئية بحتة عند مل لأهمية هذا الانقسام بالنسبة الى حقيقة علم المنطق ذاته ؛ ذلك أن هـــذا الانقسام أدى الى اكتشـــاف أقصى آماد المنطق الوضعى متمثلا فى ملء الاســـتدلالات والاستقراءات بجسم الأشياء ذاتها لا بمعناها أو بمايقوم مقامها ، وأدى أيضا الى اكتشاف قدرة العقل الى التقدم فى عمليات المنطق المفرغة تفريغا تاما من الشيئية الى أقصى آماد التفكير .

فقد كانت من أكبر خصائص منطق جون استيوارت مل تعلقه المباشر بالأشياء الخارجية واحتفاظه لا بمجرد أسماء الأشياء ولكن بحقيقتهـــا

الكاملة غير منقوصة خلال عمليات الاستدلال . واستمد مل قوة منطقه بهذا الصدد من النفسانية المنطقية التى غلبت على منطقه ، والتى أعانت عن طريق التحليل على تثبيت الأشياء نفسها داخل القضـــايا وداخل العمليات المنطقية .

أما هيلبرت فقد استوجب وجود فعـــل يستبعد من القضايا ومن العمليات أى آثار شيئية ، وسمى هيلبرت هذا بالفعل اللافظ للأشياء من القضايا ومن العمليات ، وقصد هيلبرت بذلك أن يحفظ للعمليات نقاوتها التامة من أى شيئية أو من أى خصائص للأشياء تفسد التقـدم الصورى للعمليات وللاستدلالات ، وأدى نسقه الجديد للبديهيات الى أخطر النتائج فى القرن التاسع عشر كما كان هيلبرت نفسه من أكبر من أضافوا اضافات حقيقية جديدة الى حساب البديهيات .

ولكن الصورية البحتة لا تضمن وحدها تقدم المنطق الجديد ؛ فكان لابد من وضوح أفكار منطقية معينة فى الهندسة وفى الجبر وفى الحساب من أجل استتباب أسس المنطق الرياضى الجديد ، وقد تعددت من ثم سبل استخدام المنطق الرياضى وحساب البديهيات وحساب القضايا والمنطق التحليلى فى العصر الحديث ، صار من الصعب أن يتعرف المرء على كل اتجاهات المناطقة الرمزيين الآن ، وهـــذا من شأنه أن يلزمنا الزاما اتخاذ خطوة ايجابية نحو تصفية اتجاه موحد خلال كل هـــذه التيارات المعاصرة فى المنطق .

واصطدم المنطق الرياضى بمشاكل الميتافيزيقا ، وتفرع عن هـــذا الاصطدام انقسام آخر بين الواقعية وبين التصورية ، وتزعم الواقعية الجديدة رسل وهوايتهد كما تزعم التصورية فيلاردفان أورمان كوين .

ولا نكاد نتطلع الى كتب المنطق الرياضى عامة حتى نواجه ظاهرة اغفال الميتافيزيقا اغفالا تاما ، فلا تعدو كتب المنطق الرياضى أن تصب اهتمامها على المسائل المتعلقة اما بالتحديد (الحدود) ، أو ببناء القضايا ومجموعاتها ، أو بقوانين المنطق التى تعتمد على هذا البناء وحده .

وقد عمد المنطق الرياضى الى تصفية مشاكل الميتافيزيقا عن طريق استبعاد موضوعاتها نهائيا من ناحية وعن طريق ادخال نظريات الأوصاف ونظريات التحقق ونظريات التقابل الخارجى أو التناظر من ناحية أخرى ، وكان ذلك كله بمثابة الحد من الماهوية الميتافيزيقية أو الصوفية التى اتهم بها منطق هيلبرت حينما عمد الى تصفية منطقه من كل شـــائبة

موضوعية ، ولكن الميتافيزيقا فيما يبدو أدق من الغبـــار الناعم الذى يتسرب خلال الأبواب والشبابيك الموصدة باحكام شديد .

ولذلك نجد أن تيارات المنطق الرياضى تفرقت بالضرورة عند هذه النقطة : فبعضها مع احتفاظه بالتجريبيـــة على أمل الجمع بين مميزات التحليل والتركيب فى القضايا تسللت اليه برغم احكام اغلاق نوافذه كل ملامح الميتافيزيقا عند بدء التعبير عن الوقائع الماثلة فى صـــورة قضايا جزئية ، وبعضها الآخر يسلم مبدئيا بضرورة الاحتفاظ بتصورية متوسطة بين الاسمية المتطرفة وبين الواقعية الأفلاطونية مع التجريبية الموضوعية. وليس لدى أصحاب هذا الاتجاه الأخير أى وساوس ميتافيزيقية طالما كانوا يجدون فى هذه الميتافيزيقا امتدادا طبيعيا لحقل التصورية ؛ ومن هنا تتخلص هذه التصورية التجريبية الجديدة من أى تحفظات حيال الميتافيزيقا لضرورة سحب المبادىء الرياضية الى مجـالات الافتراض التصورى العقلى المبنى على موضوعات الفكر ، بل لم يعد هنـــاك أى تعارض عند كوين بين المنطقية البحتة وبين حساب البديهيات ؛ ومن هنا يمكن أن نقول : ان النزعات المتعارضة أصلا استطاعت أن تجتمع معا عند كوين (١) .

ولا يسعنا هنا الا أن نشير أيضا الى أن المنطق الرياضى استطاع أن يكتشف مجالا جديدا يستبعد فيه مشكلة التعارض الأصيل بين الحدس العيانى وبين الحدس الرياضى ؛ فقد عمد المنطق الرياضى الى ازالة كل بقايا عيانية فى قضاياه ، عمد المنطق الرياضى الى تفريغ القضايا تفريغا كاملا من بقايا مؤثرات الحس الخارجى ، ولكنه عاد فى جرأة يقيم أساسا معرفيا حسيا للحقائق الواردة فى القضايا ويبنى حساب البديهيات بطريقة عضوية كمقدمة أساسية أو كنواة عيانية للمنطق الاستنباطى (٢). وهـــذا هو اتجـاه بوارييه الذى لم يعـد يخشى أن يتهم بالفيزيكالية أو بالنفسانية المنطقية (٣) .

ولا شك أن الفضل يرجع أصلا الى حساب البديهيات فى تصـفية الاشكال القائم بين الرياضـيات البحتة كعلم صـــورى وبين الرياضة التطبيقية كعلم الواقع ، وتطلب الأمر أن يحدد الباحث مقصده بأن ينحاز

(١) بلانشيه : حساب البديهيات ص ٨٩ .

Blanché : L'Axiomatique

(٢) بوارييه : المنطق العضوى ص ٣٣ .

René Poirier : La logique Organique, in Les Etudes Philosophiques No. 1, 1956 (Janvier-Mars).

(٣) المرجع نفسه ص ٤١ .

منذ البداية اما الى الحقيقة كاتساق منطقى أو الى الحقيقة كموضــوع تجريبى .

ولكن كثيرا ماعاد الباحثون يدرسون مشكلة الحقيقة ليعرفوا : هل كانت حقيقة الوقائع المادية تستنفد أو تشغل الحقيقة بأكملها ؟ وهل كان الحساب الآلى يستنفد أو يشغل كل استدلال وكل فكر ؟ وهل كان على المنطق من ثم أن يستسلم لهذا الوضع ويتبع هذه القوانين نفسها ؟ وغالبا ما اتخذ بعضهم نمطا مغايرا وتحقق التفكير فى المنطق العضوى كمنطق معارض للمنطق الرمزى ؛ فهو منطق يرفض مشكلة الحقيقة على هــذا النحو ، وتحقق هذا الاتجاه الجديد بصورة جادة لدى بواريبه صاحب نظرية المنطق العضوى أو نظرية المنطق الفعال القائم على عمليات حقيقية.

فقد بدأ بواريبه يسائل نفسه : ما السر فى المكانة الكبيرة التى احتلها المنطق خلال تاريخ الفلسفة ؟ واكتشف أن السر فى ذلك لم ينشأ من أن المنطق كان يقوم بتقنين القواعد العامة المتعلقة فقط بطبيعة الظاهرات وبملاحظتها وحسب ، وانما لأنه كان يقوم كذلك بالتعبير عن قوانين الفكر ذاته ، أى لأنه كان يعبر فضلا على ذلك عن القــــدرة على فهم الحقيقة والبرهان المثاليين بوصفهما انموذجا تقاس عليه كل حقيقة وكل برهان جزئيين . وليس للمقررات التجريبية أو الاستدلالات المنطقية أية حقيقة أو أى معنى وتقدير معرفيين الا من حيث يمكن ارجاعها الى هذا النموذج المثالى . لا يتم لها كيان الا اذا تجمعت تحت هذا النموذج المثالى كأنواع وكذوات متشخصة (الجوهر العاقل) لحقيقة أكثر تعميما هى القصد العميق والغاية والمعيار الأخير .

فالمنطق بعبارة مختصرة هو اذن دراسة الحقيقة فى نموذجها المثالى الأعم ودراسة قوانين تلك الحقيقة ، أى قوانين العمليات التى تحفظهــا أو تدفع بها الى الترقى ، وقوانين التبرير ، وقوانين البرهان ، وقوانين التدليل بالمعنى الأعم للكلمة .

والمنطق العضوى هو اذن دراسة الحقيقة عن طريق اليقين والتقرير المشروع والدليل العقلى بأعم معنى .

ونحن ندين بالشىء الكثير لكل من كوين وبواريبه ، ونرى لزاما علينا وقد تتلمذنا على الأول كتابة وعلى الآخر مشافهة أربع سنوات متوالية أن نقر هنا بالفضل لكل منهما فى المنحى الذى اخترناه ، فجاء بحثنا هذا تعبيرا عن الأفكار المنطقية المستحدثة ، وعن رغبة أصيلة فى تعميق اتجاه جديد يجمع بين أفضــل المميزات فى كل الفلسفات المعاصرة وبين أهم النظريات المستحدثة فى الفكر .

BIBLIOGRAPHY

1. The American Journal of Psychology, 1914 and the following years.
2. Anschutz (R.P.) : The Philosophy of J.S. Mill, 1953.
3. Apchié (Mlle. M.) : Les sources françaises de certains aspects de la pensée économique de John Stuart Mill, 1930.
4. British Journal of Psychology, 1904 and the following years.
5. Britton (Karl) : J.S. Mill, 1953.
6. Bain (Alexander) : J.S. Mill (Criticism), 1884.
7. Boutroux : de la contigence des lois de la nature.
8. Balz (A.G.A.) : Philosophy and Psychology.
9. Bentham (G.) : Outline of a new system of logic.
10. Burleau : de la psychologie à la Philosophie, 1950.
11. Binet (A.) : La Psychologie du raisonnement.
12. Bourget (Paul) : Essai de Psychologie contemporaine, Paris, 1919.
13. Brochard (Victor) :
    (a) de la loi de similarité dans les associations d'idées.
    (b) Etudes de Philosophie ancienne et de philosophie moderne.
14. Comperz (Heinrich) : zur psychologie der logischen Grundtatsache, 1897.
15. Claparéde (Ed.) : L'Association des idées.
16. Challayo : Psychologie et Métaphysique, 1938.
17. Cavaillés (Jean) : Sur la logique et la théorie de la science.
18. Carré (M.H) :
    (a) Realists and Nominalists, 1946.
    (b) Phases of thought in England, 1946.
19. Churchman (C. West) : Theory of experimental inference.
20. Dandieu (A.) et Chevalley (C.) : Logique Hilbertienne et psychologie, 1904.

(١) مؤلفات جون استيوارت مل « موجودة » فى الفصل الأول من هذا الكتاب ولا حاجة الى اعادة ذكرها وقد اشرنا الى بعض مواضعها فى ترجماتها الفرنسية أحيانا بحكم الظروف .

21. Davidson (William L.) : Political Thought in England, 1915, 1944).

22. Douglas (Charles) : J.S. Mill, a study of his philosophy, 1895.

23. Dunan : La théorie psychologique de l'espace.

24. Enriqués (Federigo) :

(a) Problèmes de la science et la logique.

(b) La théorie de la connaissance scientifique de kant à nos jours.

(c) Les concepts fondamentaux de la science, leur signification réelle et leur action psychologique, 1913.

25. Ferri (Luigi) : La psychologie de l'association depuis Hobbes jusqu' à nos jours, 1883.

26. Forsyth (Thomas M.) : English Philosophy, 1910.

27. Fortlage (C.) Beitrage zur Psychologie, 1875, Leipzig.

28. Gibson (W.R.B.) : The Problem of Logic, 1908.

29. Gonseth (F.) : Qu'est-ce-que la Logique

30. Garnier (H.K.) : John St. Mill and the Philosophy of Mediation, 1919.

31. Harrison (Fred.) : Tennyson, Ruskin, Mill and other literary estimates, 1899.

32. Höffding (H.) :

(a) Einleitung in die Englische Philosophie der gegenwart, 1891 (Leipzig)

(b) Esquisses d'une psychologie fondée sur l'expérience.

33. Jaures : de la réalité du monde sensible.

34. Hommay : L'idée de nécessité dans la philosophie de Taine, Rev. Phil. 1887, t. xxiv, p. 395.

35. Journal of Symbolic Logic, 1937, and the following years.

36. Janet (Paul) : Les problèmes du xixème, siècle.

37. Johnson (W.E.) : Logic (3 vols).

38. Jackson (Reginald) : An examination of the deductive logic of John Stuart Mill, 1941.

39. Kubitz (O.A.) : Development of J.S. Mill's system of logic.

40. Lauret (Henri-Jacques) : La philosophie de J.S. Mill, 1885.

41. Liard (Louis) : Las logiciens Anglais Contemporains, 1883.

42. Morlan (George) : America's heritage from J.S. Mill, 1936.

43. Maher (Michael) : Psychology, empirical and rational, 1950.

44. Morris (C.W.) : Logical positivism, pragmatism and scientific empiricism, 1937.
45. Mises (Richard Von) : Positivism : a study in human understanding(1951)
46. Metz :Philosophischen Strömungen der Gegenwart in Grossbritannien.
47. Mesnard (P.) : La logique de Mill.
48. Mansel (Henry Longueville) : Prolegomena Logica, aninquiry into the psychological character of logical processus, 1851.
49. MacCosh (J.) : an examination of J.S. Mill's philosophy, 1866-77.
50. Neff (Emery E.) : Carlyle and Mill, mystic and utilitarian, 1924-26.
51. O'Hanlon (H.F.) : A criticism of J.S. Mill's Pure idealism, 1866.
52. Proceedings of the society for psychological research, 1882. and the following years.
53. Facotte (J.) : La logique et l'empirisme intégral, 1936.
54. Packe (M. St. J.) : The life of John Stuart Mill-1954.
55. Piaget (Jean :
(a) Traité de logique .
(b) Psychologie de l'intelligence.
(c) Logic and Psychology.
56. Poirier (René) : Nature et signification de la logique organique (les Etudes philosophiques No. 1-1956).
57. Quine (W.V.O.) :
(a) Mathematical logic.
(b) From a logical point of view.
58. Ray (Jean) : La méthode de l'économie politique d'après Mill, 1919.
59. Ray (L.) : Le roman de J.S. Mill. an account of Mill and Mrs. Taylor, 1913.
60. Royce (Jesiah) : Logical Essays, 1951.
61. Ribot (Th.) : La Psychologie Anglaise contemporaine, 1870.
62. Rougier (Louis) :
(a) Les paralogismes classiques du rationalisme, essai sur la théorie de la connaissance, 1920.
(b) La structure des théories déductives 1921.
63. Russell (B.) :

(a) A History of western philosophy.

(b) Histoire des idées au dixième siècle.

(c) The principles of mathematics translated into arabic by Prof. Dr. A.F. El-Ahwani.

64. Street (Charles L.) : Individualism and Individuality in the philosophy of J. S. Mill, 1926.

65. Schwazstein (S.J.) : Psychologie et Philosophie, 1945.

66. Taine (H.A.) : Le positivisme Anglais, étude sur Stuart Mill 1864.

67. Tawney (G.A.) : J.S Mill's Theory of Induction.

68. Thouverez : Stuart Mill 1908.

69. Vaysset-Boutbien Mme. Raymonde : Stuart Mill et la Sociologie française contemporaine, 1941.

70. Wisnewski (l'abbé Joseph) : Etude historique et citrique de la théorie de la perception extérieure.

71. West (Julius) : J.S. Mill, 1913.

72. Windelband :

(a) Lehrbuch der geschichte der Philosophie

(b) Uber denken und nachdenken.

(c) Uber den gegewartigen stand des Psychologischen Ferschubg.

73. Wittaker (Thomas)

(a) Reason, a philosophical essay, 1943.

(b) Compte and Mill, 1908.

SOME OTHER IMPORTANT REREFECES BOOKS

74. Mind Magazine

75. The Ratonalist annual

76. Lalande : Vocabulaire de Philosophie

77. Piéron : Vocabulaire de la psychologie.

78. Crawford (J.F.) :
Relations of Fact to Inference in Mill's Logic, Chicago, 1916.

79. Green (T.H.) The Logic of J. S. Mill.

80. Janet (Paul) : Mill et Hamilton, Le problème de l'existence de corps 1869. Revue de deux mondes LXXXIII Oct.

81. M'Laren (Charles B.B.) : University Essays in Metaphysics, moral philosophy (Mr. Mill's psychological theory Edinburg, 1870).

82. Brochard (V.) : La logique-de J.S. Mil., Rev. Phil. Vol. xii, 1881, pp. 449-478

83. Carran (L.) : Le Dualisme de St Mill, Rev Phil, vol. viii, pp 139-156

84. Castell (A) : Mills Logic of Moral sciences A Study of the impact of Newtonism early nineteenth century thought, 1936.

85. Levin (T.W.) : Notes on inductive logic, an introduction to Mill's system of Logic. 1885

86. Rickaly (J.) : Free will and four English Philosophers (Hobbes, Locke, Hume and Mill), 1906

87. Courtney (W.L) : Th metaphysics of Mill 1879

88. Hamilton (Mary A.) : John stuart Mill, 1933.

« فهرس المحتــويات »

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر



الثمن ٢٥ قرشاً

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي